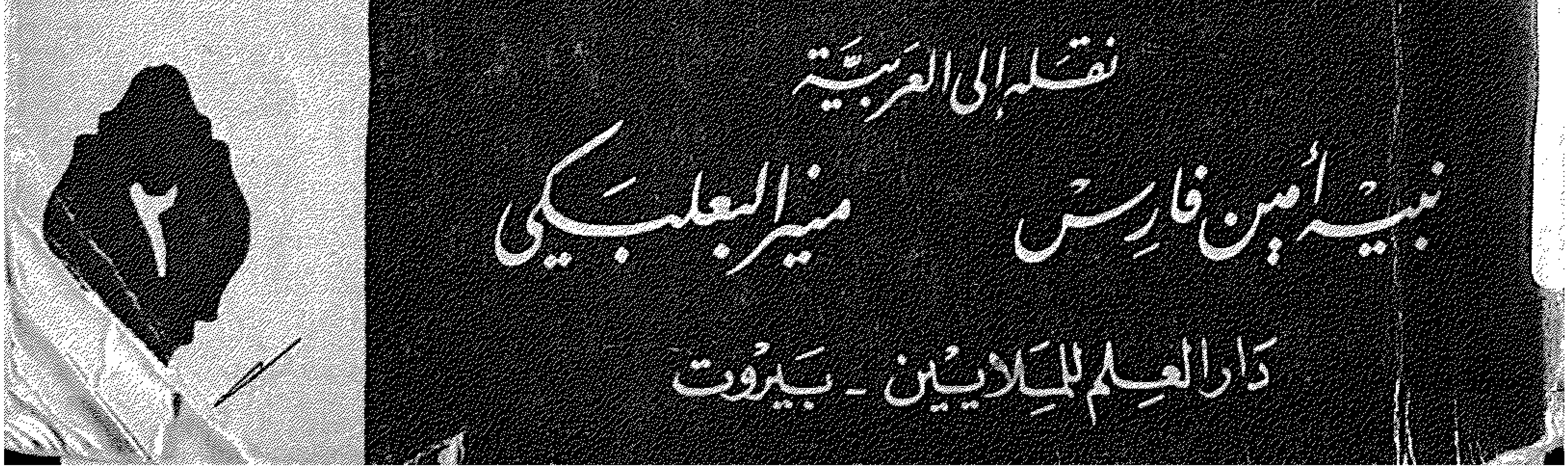


كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

الامبراطورية الإسلامية وانحلالها



٢

نقله إلى العربية

نبيه أمين فارس — منير البعلبكي

دار العلم للملايين - بيروت

اهداءات ٢٠٠١

كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

٢

الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها

نقله إلى العربية

الدكتور نبيه أمين فارس — منير البعلبكي

الطبعة الثالثة

دار العلم للملايين

بيروت

الطبعة الأولى ، شباط ١٩٤٩
الطبعة الثانية ، تشرين الثاني ١٩٥٤
الطبعة الثالثة ، كانون الثاني ١٩٦١

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من « تاريخ الشعوب الاسلامية » للمستشرق الألماني الكبير الاستاذ كارل بروكلمان، نزفه الى قرّاء العربية، بعد ان قدمنا اليهم في حزيران الماضي الجزء الأوّل منه، فلقي من إقبالهم ما زادنا اقتناعاً بحاجة المكتبة العربية إلى أمثال هذه البحوث القيّمة في تاريخ الإسلام السياسي والحضاري.

أما الأجزاء الثلاثة الباقية، وتبحث في « الاتراك العثمانيين وحضارتهم »، و «الاسلام في القرن التاسع عشر »، و « الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية» فسنخرجها تباعاً في وقت قريب*، وبذلك تتمّ للقارىء العربيّ – لأول مرّةٍ – موسوعةٌ تستغرق تاريخ العرب والمسلمين منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا.

والله نسأل ان يجعل جهدنا خالصاً لوجهه الكريم.

المعربان

---

* وقد ظهرت هذه الأجزاء جميعاً.

العَبّاسِيّونَ الأوّلُون

لم يُتحْ للخليفة العباسي الاوّل، ابي العباس عبدالله، أن يحكم غير فترة قصيرة من الزمن ، ومن هنا خلدَ ذكره في التاريخ بوصفه – في المحلّ الأوّل– مبيدَ الأمويين. وإنما عُرف بالسفّاح، وهو الاسم الذي اطلقه على نفسه في الخطبة التي القاها يوم بويع له بالخلافة في مسجد الكوفة . وفي حزيران سنة ٧٥٤ خلفَه اخوه ابو جعفر عبدالله المنصور[١] ليكون هو المؤسسَ الحقيقي لسلطان بني العباس . وكان على ابي جعفر باديء الأمر أن يمكّن لنفسه بالقضاء على حركة عمه عبدالله بن علي الذي هبّ يطالب بالخلافة – وكان يقيم في شمالي سورية مع الجيش الموجّه لقتال البيزنطيين – ولكنّ أبا مسلم ما لبث أن هزمه .

وقـُدّر على هذا المولى الأمين الذي يدين له العباسيون ، قبل

(١) اصل اللقب « المنصور بالله » . والواقع ان الخلفاء العباسيين جميعاً تلقبوا في ما بعد بهذه الألقاب ذات المظهر الورع . ومن اراد التوسع في دراسة عصر المنصور فليراجع :

Nöldeke, *Orientalische Skizzen.* Berlin, 1892, pp. 112-162 (*Sketches from Eastern History*, tr. by J. S. Black, London and Edinburgh, 1892. 107 - 145) .

كل شيء، بقيام دولتهم ، أن يصلي وشيكاً بجحود الخليفة الجديد وإنكاره للجميل . والحقّ أنه كان شديد الإدلال بالخدمات التي أداها لبني العباس . ففي سنة ٧٥٤ كتب الى السفاح يستأذنه في الحج ويسأله ان يوليه اقامة الموسم في الناس . ولكنّ السفّاح أخضعه لأمرة أخيه (المنصور) . وكانَ أبو مسلم قـــد اظهر للمنصور كثيراً من الاستقلال والتفرّد بالأمور؛ فكان همّ المنصور الأول أن يُبعد أبا مسلم عن خراسان ، وهي معقله ومُستَقَرّ قوّته وسلطانه . وعلى الرغم من أن ابا مسلم رفض ما عرضه عليه المنصور من الاضطلاع بأمارة مصر ، فقد سمـح لنفسه بأن يُستَدْرَجَ إلى العراق حيث قُتِل ، على عينيْ الخليفة ، قرب العاصمة القديمة ، المدائن . ولقد وَجدَ من يثـأر له في شخص سُنْباذ الفارسي الذي رفع راية العصيان في خراسان وتوغل حتى بلاد الجبال . وهناك بـــين همَذان والريّ ، هزمته جيوش الخليفة وقضت عليه .

إخضاع العلويين

ولعلّ العلويين كانوا ، حتى اللحظة الأخيرة، يعلـّلون النفس بأن أهل خراسان انما يعملون لمصلحتهم* ، ومن هنا لم يذعنوا ، في الحال، للأمر الواقع المتمثـّل في استيلاء ابناء عمومتهم عـــلى السلطان . ولكنهم كانت تُعْوزهم ، كما أعوزت جدّهم من قبل ، العزيمة والحنكة السياسية . ولقد أظهروا معارضتهم للسّلالة الجديدة في المدينة ، عـــلى الخصوص ، بوصفها المركزَ الرئيسي للبيت

(*) أي لمصلحة العلويين .

العلوي ، وكان كثير من افراده قد تفرقوا لذلك العهد، في البلاد. فلم يكن من العامل الذي عيّنه المنصور على المدينة إلا ان سجن عدداً كبيراً منهم ، وبثّ رجاله للبحث عن زعيمهم محمد ، أحد حُفداء الحسن من جهة ابيه ، والحسين من جهة امه . فكان هذا العمل بالذات هو الذي عجّل باندلاع الثورة .

ففي ختام سنة ٧٦٢ ثار العلويون ، واطلقوا سراح المعتقلين من ذوي قرباهم، وحملوا الفقيه الشهير ، مالك بن أنَس (صاحب المذهب المالكي المنتشر في إفريقية الشمالية كلها اليوم) على ان يُحلّهم من يمين البيعة للعباسيين ، باعتبار انهم بايعوا مكرهين . وطبيعيّ ان يكون من اليسير على الجيش الخراساني الذي وجّهه المنصور الى المدينة ، التغلب على حركة الثائرين الساذجة، اولئك الثائرين الذين ظنوا ان في استطاعتهم ان يحموا انفسهم ، احسنَ الحماية ، بواسطة خندق كالذي اصطنعه الرسول . وقاوم محمد مقاومةً باسلةً قُتِل على اثرها ، وصودرت ممتلكات أسرته. أما المدينة نفسها فقد احسنَ الخليفة معاملتها بعد ان أمسَت لاتشكل اي خطر عليه .

اما ثورة العلويين بقيادة ابراهيم ، اخي محمد، في البصرة فكانت اعظم خطراً . ولكن ابراهيم هذا كانت تعوزه المقدرة السياسية أيضاً. فعلى الرغم من أنه وفق إلى احتلال البصرة ، واستطاع بما استخلصه فيها من اموال أن يكسب ولاء فارس والسُوس، فقد رفض ان يسير إلى الكوفة حيث كان المنصور مُرابطاً بجيشٍ هزيل . فما كان من قائد جند المنصور ، عيسى بن موسى ، الذي

سبق له أن أخمدَ الثورة في المدينة ، الا أن تقدّم الى السوس في الحال فبسط سلطانه على البلاد، ولكن بعد قتال عنيف. واخيراً عزم ابراهيم على مهاجمة الكوفة، ولكنه قتل في معركة نشبت بينه وبين جنود عيسى في باخَمْرَى ، جنوبي الكوفة ، في ١٤ شباط سنة ٧٦٣ .

بناء بغداد

ولمّا تمّ للمنصور هذا الفوز الحاسم على العلويين جدّ في بناء عاصمةٍ امبراطوريةٍ جديدة ، كان قد اقدم على تخطيطها بُعيد ارتقائه عرش الخلافة. وكان اخوه قد أنشأ لنفسه مقراً في الهاشمية، على ضفة الفرات اليسرى ، غير بعيد عن الأنبار . ولكنّ قربها من الكوفة ، هذه المدينة المتمرّدة التي كلفت الامويين متاعب جساماً، كان خليقاً بأن يتهدد الدولة الجديدة بالخطر، في المستقبل. وبعد أن فكر المنصور في الأمر مليّاً وقع اختياره على قرية نصرانية صغيرة واقعة على الضفة الغربيّة من دجلة تدعى بغداد لتكون عاصمة لامبراطوريته . وكان الاختيار ممتازاً . والحقّ ان المنطقة ليست مدينة بازدهارها السريع لعناية الخليفة فحسب، بل لموقعها الملائم الذي مكّنها من الاحتفاظ باهمية بالغة، حتى بعد انحلال الحضارة في العراق، بالكلّية . وعلى ضفة دجلة اليسرى، شيد الخليفة، عن طريق حملة واسعة من العمل الالزامي، قصوراً لنفسه ولحاشيته ، ومساجد ، ودوراً للحكومة مجتذباً التجار الى مدينته بشروط تساعدهم على الانشاء والتعمير، جالباً مواد البناء في الدرجة الأولى من مقرّ الساسانيين القديم، المدائن.

وأنشأ المنصور في بغداد شبكة من القنوات وعقد فوقها بجسور، وشيد من المنشآت المائية والتحصينات ما يسر على الناس سبيل العيش الامين هناك. كذلك ضمّت الى المدينة مجموعة من المناطق المجاورة اهمّها الكَرْخ (من الآرامية كرخا ، وتعني المدينة) . وعلى الضفة الشرقية، حيث ينهض الجزء الرئيسي من بغداد اليوم، بنى المنصور ، اول الأمر، معسكراً لابنه المهدي . وأقطع ذوي قرباه ومواليه وقواده الارباض المحيطة بالمدينة . ولقد اطلق على عاصمته اسم « دار السلام » او « مدينة السلام » ، ولكن اسمها القديم ظل شائعاً على ألسنة الناس .

الأدارة

وكانت «روح» العاصمة الجديدة تختلف، منذ البدء، اختلافاً كلياً من « روح » دمشق . فعلى الرغم من ان العرب ظلوا يتوافدون على بلاط المنصور ايضاً، فالواقع أنه لم يعد في ميسورهم ان يقرَبوا الخليفة ، كما كانوا يفعلون زمن عبد الملك ، وكأنما هو الاول بين عددٍ من الاقران . فخليفة بغداد لم يكن ، بأي حال، شيخاً من شيوخ القبائل، بل خلَفٌ لملوك الفرس الكبار. وفي السنوات التوالي نشأ عند خلفاء بغداد شوقٌ الى استطلاع الكتب الفارسية عن اسلوب التشريفات الذي كان يتبعه الساسانيون، ورغبة في محاكاته وتقليده . فلم يعد التقدّم في البلاط والمكانة في الحكومة امتيازاً وراثياً مقصوراً على الاشراف ، بل اصبح الخليفة يقدم من يشاء، ويؤخر من يشاء . وانتهت الخِلعةُ [٢] ،

(٢) ومنها اخذت كلمة (gala) .

ولم تكن معروفـة زمن الامويين ، الى ان تكون آية على الحظوة عند الخلائف من بني العباس . وبينا كان الأمويون يكتفون ، في اغلب الاحيان ، بحاجب يُنيطون به امر ادخال الناس عليهم ، نجد ان عدد الحجاب والخدم في البلاط العباسي يزداد في اطراد ، ولا عمل لهم الا الحؤول بين الخليفة وافراد الشعب واقامة العقبات بينه وبينهم . والواقع ان الخلفـاء العباسيين نفضوا ايديهم ، او كادوا ، من تصريف شؤون الدولة ، ملقين عبء ذلك على غارب الوزراء . ولكنهم تصرفوا في ما يتصل بالموت والحياة مباشرة: فقد كان الجلاد — وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية قبل ذلك العهد — يلازم الخليفة دائماً ، وكان النطع حاضراً ابداً ، قرب العرش ، لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها .

كذلك تدين الامبراطورية العباسية للمنصور بالقواعـد التي قامت عليها حكومتها . والواقع انه احتفظ ، في الأعم الاغلب ، بنظام العمل الذي جرى عليه البيزنطيون والساسانيون ، والذي جرّبه الامويون من قبـل . وكان يسعى ابداً إلى ان يعيّن على رأس كل ولاية عاملاً كفؤاً بارعاً. صحيح انه لم يستطع ان ينسى آله وذوي قرباه في معرض هذا التعيين ، ولكنه مع ذلك لم يحجم ، مطلقاً ، عن رفع مواليه وعُتَقائه إلى اسمى المناصب . وكان في ميسوره ان يراقب ، أحسنَ المراقبة ، الادارةَ في الولايات من طريق نظام البريد ، هذا النظام الذي نستطيع ان نقول انه لم يُنشأ حقاً إلا في عهده ، بالرغم من وجوده ايامَ الامويين . وكان اصحاب البريد مسؤولين عن جهاز الاستعلامات كله في الحكومة ،

ولكن واجبهم الرئيسي كان إبقاء الخليفة على اطلاع دائم بمسالك عمّالهِ في الحكم . وكانت تقاريرهم المطّردة ، الدقيقـة ، ذات فائدة كبيرة للمصلحة العامة . فالأنباء التي اعتادوا ارسالها عن احوال الزرع، مثلاً ، كانت تساعد على اتخاذ الاحتياطات المناسبة ضدّ أيّ نقص في الغلال . ليس هذا فحسب ، بل إن سجلات المحطات البريدية التي وضعوها لتـؤلـفُ أحد المصادر التي نشأ عنها ، في الجيل الثاني ، علم الجغرافية عند العرب .

وقرّب المنصور الى بلاطه علمـــاء الفقه والحديث الذين كانوا حتى ذلك الحين ، منعزلين في المدينة، يتآمرون ، في السرّ على الدولة الأموية . لقد تمّ لهم ، في النهاية ، تحقيق المثل الأعلى الثيوقراطيّ الذي حلموا به ، بعد ان تولى آل بيت النبي زمام السلطان ، كرّةً اخرى . والأمر الذي لا شك فيه أن اثنين من مؤسسي أقدم المذاهب الفقهية الباقية الى اليوم ، كانا يعطفان على العَلوية . فأما أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفيّ ، فكان جدّهُ عبداً أُسر اثناء فتح كابُل ثم اعتقه سيده ، وكان من بني تَيم الله . بيد ان أتباعه ما لبثوا أن اخترعوا له نسَباً يرقى الى احـــد ملوك الاساطير الايرانية القدماء . ومهما يكن من أمر ، فقد عاش ابو حنيفة ، بوصفه مولى من موالي تيم الله ، مستغنياً عن الناس من طريق التجارة بالحرير ، في الكوفة . ولقد كان من مؤيدي زيد بن إبراهيم في ثورته بالبصرة، وفي سنة ٧٦٧ توفي في سجن بغداد. وكان يعقد حلقة للتدريس في الكوفة ويفتي في المسائل الشرعية. وهو في فتاواه يَلزَمُ السنّة [الحديث] لزوماً شديداً ولا يُفسح

المجالَ امام الاجتهاد باكثر مما فعل أيّ من اصحـاب المذاهب الاخرى . والحق أن حسد رجال المذاهب المتأخرين هو الذي أثار امثال هذه المآخذ عليه. ولقد سبق لنا أن رأينا في معاصره مالك ابن انس ، مؤسس المذهب المالكي ، في المدينة ، نصيراً للعلوية ، حتى اذا أخمدت ثورتهم عوقب على موقفه هذا بالجَلْد. ومهما يكن فقد أجلّه الخلفاء الذين تعاقبوا بعدُ إجلالاً عظيماً وزاره هرون الرشيد قبيل وفاته ، فيما كان يؤدي فريضة الحج . وبينـا نشر تلامذة مالك مذهب استاذهم في الاندلس وشمالي إفريقيـة في المحل الاول، التحق الحَنَفيّةُ وشيكاً بخدمة الحكومة المركزية. ولقد وفق ابو يوُسف ، بوصفه قاضي القضاة في الاسلام ، الى أن يظفر باقرار رسمي لمذهب ابي حنيفة. كذلك وضع كتاباً اساسياً لهرون الرشيد في الخراج . وكان قد سبقه احد كتاب المهدي الذين عملوا أول امرهم في الادارة الأموية إلى وصف الاوضاع الواقعية في كتاب ألفه عن الخراج .

الثورات في فارس . المقنع

وكان المنصور منهمكاً ، أبداً ، بصيانة حدود امبراطوريته العظيمة وتوسيعها حيثما اسعفته الأحوال . وعلى الرغم من ان الحروب المتواصلة ضد البيزنطيين لم تنجح في عهده اكثر مما نجحت في عهد الأمويين ، وعلى الرغم من ان الحملات ضد الخَزَر الاتراك في بلاد القَبْق (القوقاز) ، والدّيلم على الساحل الجنوبي مـن بحر الخَزَر ، والاتراك على الضفة الاخرى من نهر جَيحون ، وضد الهنود لم تؤدّ الى توسع ذي غناء ، على الرغم من ذلك كله

فقد اظهرت هذه الاعمال الحربية كلهـا ان في استطاعة حكومة مركزية قوية ان تجابه امثال هذه الازمات والشدائدالتي عجزت الاجيال المنحلة ، في ما بعد ، عن مجابهتها والتغلب عليهـا .
وكان بنو العباس يستهدفون بين الفينة والفينة للخطـر يأتيهم من الثورات المذهبية المضطرمة في خراسان ، الواقعة في اقصى الطرف الشرقي من الامبراطورية ، حيث احتك الاسلام بالعقائد البوذية والآراء الشامانية* ، وحيث كان الدين الايراني القومي، على الخصوص ، لا يزال يؤثر في عقول الناس تأثيراً قوياً . فليس من شك في ان المنصور نفسه قـد تخلص من ابي مسلم ، وانه امر سنة ٧٥٨، بالفتك ببعض المتعصبين له من اهل خراسان [الراوندية] عندما ظهروا امام مقره في الهاشمية ليمجدوه بوصفه تجسداً للذات الألـهية ، وكان قد سعى الى تهدئتهم بالكلام الرقيق ، فأبوا .
ولكن رجلاً فارسياً من مرو ، ومن رجـال ابي مسلم المقربين اليه – واسمه حكيم – ما لبث ان ظهر سنة ٧٧٨ في اتباعـــه وادّعى انه التجسد الجديد للذات الالهية ، بعد موت مولاه .
وإذ كان يبرز دائماً للجماهير وعلى وجهـه نقاب موشىً بالذهب يزعمون ان الغرض منه ان يحجب ، كنقاب موسى ، بهاء الذات الالـهية عن العيون الدنسة غير الجديرة بالنظر اليه ، فقد عُرف في التاريخ بلقبه، «المقنّع» . ومن قلعة سَنام قرب كَشّ في ما وراء النهر ، استطاع هذا الثائر ان يُخضـــع الاقليم كله ، في

(*) نسبة الى كلمة شامان، وتعود في النهاية الى اصل سنسكريتي بمعنى كاهن أو ساحر يزعمون انه كان في مقدوره الاتصال بالارواح الصالحة والشريرة. وقد عمت هذه الديانة الشعوب النازلة في منطقة جبال اورال من مغول واتراك. (المعربان)

حين كانت ثورة اخرى من ثورات الخوارج تندلع نيرانها في خراسان. والواقع ان الخليفة قد سيّر إليه جيوشاً عديدة فتغلب عليها . واخيراً وُفّق جند الخليفة الى حصاره في قلعته، فما كان منه إلا ان اضرم فيها النار ، فالتهمته وزوجاته واتباعه (٧٨٠م) . وكانت العقائد الشيوعية التي بشّر بها مَزْدَك، في العهد الساساني، قد بُعِثَتْ قبل عام واحد في مقاطعة جُرجان، لتنفجر من جديد في شكل ثورة خطيرة، على عهد الرشيد .

وفي شمالي افريقية ايضاً ، حيث لم يمتد حكم المنصور ، في اغلب الظن ، إلى ابعد من القيروان — على ايّ حال — شبّت ثورة جديدة من ثورات البربر. ذلك بأن هؤلاء القوم ، على الرغم من دخولهم في الاسلام ، ثبتوا في وجه جميع المحاولات الرامية إلى تعريبهم، واحتفظوا بحسّ قوميّ لا يزال حياً الى الوقت الحاضر. ومن هنا وجد الخوارج الذين كادوا يُستأصلون في قلب الامبراطورية، الارض صالحةً بين البربر لبثّ دعايتهم ونشر أفكارهم، مرةً بعد مرة.

وكان المنصور قد عيّن باديء الأمر ابنَ عمه عيسى بن موسى — الذي ادّى خدمات جليلة للدولة باخضاعه ثورات العلويين — خلَفاً له في الحكم. حتى إذا شبّ ابنه المهديّ رغب في أن ينقل ولاية العهد اليه. وهكذا حمل عيسى على التنازل عن حقه في الخلافة واكرَهَهُ على ان يُحلّ الناسَ من يمين البيعة الذي اقسموه له سنة ٧٦٧ . فلما توفي المنصور ، في ٧ تشرين الاول ، سنة ٧٧٥ ، وهو عائد من الحج — وكان مولعاً بأن يتولى موسمه بنفسه — رقيَ المهدي العرش ، من غير ان يعترضه احدٌ .

وعلى الرغم من جميع مظاهر الأبهة التي نجدها في عهد المنصور، والجديرة بملك شرقي عظيم، فقد استطاع هذا الخليفة بفضل اقتصاده الشخصي، أن يترك خزانة عامرة بالأموال. وهكذا كان في ميسور المهدي أن يحيا في بلاطه حياة آخذة بنصيب صالح من الرفه والنعمة. ولكنه بالأضافة الى ذلك، خدم الامبراطورية خدمات جلى بأنشاء شبكة من الطرق العامة، وتحسين نظـــام البريد. وانتهت بغداد، بفضل موقعها الممتاز، إلى أن تصبح في عهده مستودعاً رئيسياً للتجارة مع الهند. ولقد أظهر المهدي، فوق ذلك، تبصراً وحسن دراية برعايته للصناعات الوطنية. بيد ان الثورات المذهبية التي سبق ان اشرنا إلى اشتعالهـا في الولايات الفارسية حملت الخليفة على ان يراقب، بشدة بالغة، حياة رعاياه العقلية، في قلب الامبراطورية ايضاً. والواقع ان المانوية، لا الزرادشتية الخالصة، كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير على اولئك الذين دخلوا حديثاً في الاسلام ثم لم يرتاحوا ارتياحاً كلياً لشعائره الصارمة؛ بـل لقد كادت تكون [اي المانوية] دين الطبقات المثقفة. ولقد سبق للمنصور نفسه ان امر بعبد الله بن المقفع، الكاتب، ان يقتل. وكان عبد الله هذا (واسمه الفارسي رُوزبه) ابن رجل يجمع الخراج للحجاج بن يوسف. وكان من اتباع عيسى بن عليّ عم السفاح والمنصور، [وعلى يديه] اسلم. ولقد نقل الى العربية عن الفهلوية تاريخ الفرس، "خُدَايْنامه"، والترجمة الفارسية لكتاب الامثال الهندي الموسوم بـ « كليلة

ودمنة » ، ووضع عدداً من الرسائل في الحكمة السياسية على ما جاء عند الايرانيين . ويقال انه اثار حفيظة المنصور عليه يوم كلفه [سليمان وعيسى ابنا عليّ] بان يكتب صيغة امان يتعهد فيه المنصور بان لا يغدر [بأخيهما ابي العباس عبد الله] ، عم المنصور، فأعدّ صيغة غامضة [بالغ فيها وشدد]. وثمة مجال للشك في ان هذه التهمة التي نسبت الى ابن المقفع هي وحدها السبب الذي حمل والي البصرة على ان يُنزل به ما انزل من وحشي العقاب . فقد يكون أثار شبهات السلطان وشكوكه من طريق مشاركته في نشاط الفرس السياسي الديني ، هذا النشاط الذي اثقلَ ، كما رأينا ، كاهل المنصور ، وأنقض ظهره .

وفي عهد المهدي لقي المصيرَ نفسه ، صالح بن عبد القدوس ، الشاعر ، الذي دعا في أحاديثه الدينية بالبصرة دعوة صريحة الى ثَنوية الفرس . ولقد حاول ان يتفادى عاقبة النقمة التي أثارتها هذه الدعوة عليه في الاوساط الفقهيـــة ، بالفرار الى دمشق ، ولكن رجال المهدي تعقبوه ، ورجعوا به الى عاصمة الخلافة ليصلب سنة ٧٨٣ بتهمة الزندقة بعد ان اصبح لفظ الزنديق علماً شائعاً على من يُنسب الى البدعة ، في ذلك العصر . والحق ان هذه الكلمة كانت على عهد الساسانيين ، صفة يُنبزُ بها كل من يجرؤ على تفسير «الأبستاق» * تفسيراً جديداً ، غير رشيد ، (زَند) ، وكانت تُطلق على أتباع ماني ومزدك ، بخاصة . وفي السنة نفسها قُتل بشار بن بُرد ، الشاعر الضرير ، الذي لم يتورّع عن أن يصرّح في

(*) أو « الأفستا » كما ترد في بعض المؤلفات الحديثة . (المعربان)

شعره بتعبده للنار، كأسلافه. وإذ قد كان في الوقت عينه معروفاً بسلاطة اللسان، لا يعفّ عن التعرض للخليفة نفسه، في هجائه، فقد علّلت الرواية نهايته المفجعة كما علّلت نهاية ابن المقفع بهذا الزيغ السياسي. ومهما يكن من امر، فحوالى ذلك الوقت بالذات عهد المهدي في ملاحقة الزنادقة إلى عامل خاص يدعى «العريف». ويقال ان هذا العامل ظل ينشط اول الامر طوال سنوات ثلاث. حتى إذا قضى المهدي وجاء من بعده خلفاؤه وُجهت همّة «ديوان التفتيش» هذا نحو محاربة الآراء المذهبية، ايضاً، ضمنَ إطار الاسلام الفكري نفسه، وهي آراء كانت تزعج الحكومة لسبب ما، وإن لم تكن تنطوي في ما عدا ذلك، على أيّما أذى أو ضرر.

بين موسى وهرون

وتوفي المهدي، بعد حكم دام عشر سنوات، فخلفه ابنه موسى، سنة ٧٨٥، متخذاً لنفسه لقب الهادي. ولقد قاوم موسى نفوذ أمه الخيزُران التي سبق لها ان شاركت مشاركة بعيدة في تصريف شؤون الدولة إبان خلافة زوجها، وكادت تسيطر عليه سيطرة تامة. وكانت الخيزران قبل ذلك جارية بربرية. والحق أن موسى حاول ان يُكرِه أخاه هرون، وكان أثيراً عند أمه، على التنازل عن ولاية العهد، ولكن عبثاً. وفي ١٥ ايلول سنة ٧٨٦ قُتل الهادي وهو في دار حريمه، قرب الموصل، بتحريض من الخيزران، ما في ذلك شك. وما عتمت أن ظهرت، منذ هذه الساعة، تلك الآفات التي أدت، آخر الامر، الى هلاك الاسرة

العباسية .

وفي عهد الرشيد ، الذي امتدّ ثلاثاً وعشرين سنة ، بلغت الخلافة العباسية أوج سلطانها وقوتها [٣]. ولما كان الرّفه المادي قد انتهى في هذا العهد ايضاً ، الى غاية لم يسبق له ان بلغها من قبل ، فقد قويت نزعة الأجيال المتأخرة الى ان ترى في الخليفة هرون الرشيد ملكاً مثالياً ، وان تعزوَ الى مواهبه الشخصية ما هو مدينٌ به لمجرّد الظروف المواتية في ايامه .

الرشيد والبرامكة

وعهدَ الرشيد الى وزرائه في تصريف شؤون الدولة كلهـا تقريباً ، في السنوات الأولى من حكمه . والواقـع أن منصب الوزارة كان منذ عهد غير قصير وقفاً على آل بَرْمَك [٤] المتحدرين من اسرة كهنوت متقدمة في نوبَهار ، احدى الصوامع البوذية في بلـخ . وقد ادعت الرواية الفارسية في ما بعد ، بدافع من النعرة القومية ، ان هذه الاسرة كانت من كهنة الفرس عبدة النار . فبعد مقتل ابي سَلَمَة استوزر السفاح خالد بن برمك ، أو على الاصح عيّنه عنده كاتباً اول . حتى إذا كانت خلافة المنصور احتفظ خالد بالاشراف على الشؤون المالية ولمعَ اسمه ، بشكل خاص ، في بناء بغداد . ولكنه كان في الوقت نفسه جندياً بارعاً خدم ،

(٣) راجع اوديسيو G. Audisio, *Harun ar Rashid, Caliph of Baghdad*. New-York, 1951 وراجع ايضاً ن. عبود N. Abbott *Two Queens of Baghdad*. Chicago 1946

(٤) راجع بوفا L. Bouvat, *Les Barmécides d'après les historiens arabes et persans*, Paris, 1912.

أيام الشباب ، تحت لواء أبي مسلم و قحطبة . ليس هذا فحسب بل لقد وُفق سنة ٧٦٥ – ٧٦٩ إلى أن يقضي ، بوصفه والياً على طبرستان، على آخر إمارة وطنية في جبل دُماوند، واشترك في الحروب ضد البيزنطيين ، وهو في سن عالية . فكان طبيعياً أن يُفيد من هذه المناصب كلها ، شأن جميع الموظفين ، ثروة ضخمة . ومن هنا وجدنا المنصور ، قبيل وفاته ، يصادر منه حوالي ثلاثة ملايين درهم، ثم يمنحه إمارة الموصل التي كانت تُعد، لقربها من الأكراد الآخذين بأسباب الشغب والفتنة ، منصباً ذا أهمية خاصة . وفي الوقت نفسه تسنم ابنه يحيى ولاية آذربيجان، حتى اذا كانت خلافة المهدي استدعي الى بغداد. وفي سنة ٧٧٧، عندما عُين هرون أميراً على الولايات الغربية بالاضافة إلى إرمينية وآذربيجان ، خطا يحيى خطوة جديدة نحو المجد ، إذ اصطنعه هرون رئيساً لامناء سره. والحق ان يحيى ظل مخلصاً لسيده يوم جهدَ الهادي في حمل هرون على التنازل عن ولاية العهد ، بل إن الرواية لتذهب الى انه فقد حريته ، فترة من الزمان ، بسبب من ذلك . فلم يكد هرون يلي عرش الخلافة حتى كافأ يحيى على اخلاصه فرفعه الى مقام الوزارة. وهكذا حكم هو وابناه، الفضل وجعفر، الامبراطورية الاسلامية ، من سنة ٧٨٦ حتى سنة ٨٠٣ ، حكماً مطلقاً ، وان يكن قد خضع خلال السنوات الاولى من وزارته

(٥) لما كانت القروض الحكومية لا تزال غير معروفة ، لذلك العهد ، فقد كانت أمثال هذه الابتزازات ، التي خضع لويلاتها العمال والموظفون الذين أثروا من طريق الوظيفة ، تؤلف وسيلة مطردة لملء خزانة الدولة بعد فراغها . وكان عندهم اصطلاح خاص لذلك هو : « المصادرة » .

لرقابة شديدة من أم الخليفة . وبينما وُفق الفضل ، بوصفه أميراً على الولايات الشرقية ، إلى تحقيق انتصارات باهرة في الحقلين العسكري والعمراني ، ظل جعفر في العاصمة ، إلى جانب الخليفة الذي كان يقدّمه ويؤثره ، تاركاً أمر الولايات التي عُهد اليه بادارتها او على الاصح باستغلالها ، الى مندوبين من قبله . وكان طبيعياً أن تؤدي هذه الصداقة الى ملل الخليفة ، مع الايام . وتعزو الروايات سبب الخلاف الاخير إلى حادثة غرامية محصلها ان الخليفة عقد لجعفر على اخته العباسة عقداً صورياً حتى يكون في ميسوره أن يأنس بالاجتماع بهما في وقت معاً ، ولكن جعفراً أساء اصطناع هذه الحرية التي تمت له . فلم تكد أم الخليفة تقضي نحبها سنة ٧٩٠ حتى انتزع الرشيد ، على ما تقول المصادر أيضاً ، خاتم الدولة من جعفر ، وحوّل جزءاً من صلاحياته الى خصمه وخلفه ، الفضل بن الربيع . وفي أوائل سنة ٨٠٣ ، عندما قفل الرشيد من الحج — وكان يتولى إمرته في أغلب الاحوال بنفسه — أمر بجعفر أن يُقتل في ليل ٢٩ كانون الثاني ، ليعلق رأسه على الجسر المركزي ببغداد ، ويقطع جسمه نصفين يُعرض كلٌّ منهما على واحد من الجسرين الآخرين . اما ابوه واخوته فاعتقلوا وصودرت ممتلكاتهم . ثم ان الرشيد نقل مقره ، بعد نكبة البرامكة ، الى الرّقة على الفرات .

ولم يخل عهد الرشيد من ثورات تعاقبت في داخل الامبراطورية . ففي سورية اندلعت نار الخصومة القديمة ، شديدة حامية ، بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، سنة ٧٩٦ . وفي دمشق اغتنمت السوقة فرصة الاضطراب للامعان في اعمال النهب والسلب . ولم يستتب

الامن في تلك الديار الا بعد ان خرج جعفر بنفسه اليها ، وأمر بتجريد السكان جميعاً ، من السلاح .

الاغالبة في شمالي إفريقية

وتوالت الانتفاضات على عمال الخليفة ، في إفريقية ، من غير انقطاع . وهنا اعاد الامنَ الى نصابه ، بادىء الرأي ، ابراهيم بن الأغلب ، الذي قُتِل والده – وكان اميراً على إفريقية ، وأصله من مَرو الرُّوذ – في ثورة سنة ٧٦٧ . وفي سنة ٧٩٥ عُهد الى ابراهيم في الولاية على اقليم الزّاب الواقع جنوبي الجزائر على جانبيْ بسكَرة . حتى اذا طرد الثوارُ خلف ابيه [محمدَ] ابن مقاتل هرع ابن الأغلب الى نصرته سنة ٧٩٩ ، وببراعة فائقة أقرّ الأمن والنظام في تلك الأرجاء . فكافأه الرشيد على حُسن بلائه بأن كتب له بالعهد الى افريقية لقاء خراج سنوي قدره اربعون الف دينار . وفي الحال شرع ابن الاغلب في انشاء مدينة جديدة على ثلاثة اميال جنوبي القيروان ، دعاها العباسية وجعلها قاعدة لأمارته . فلما كانت السنة التالية صار في مقدوره ان يستقبل فيها سفراء شارلمان الذين جاءوا ، في الظاهر ، يطلبون آثار القدّيس سيبريون في حين ان هدفهم الحقيقي ، غير شك ، كان انشاء علاقات ديبلوماسية مع المسلمين ، واستمزاج ابن الاغلب في ما يتعلق بالقيام بعمل مشترك ضد اسبانية . [6]

والحق ان الرشيد نفسه مدينٌ بشهرته في الغرب لعلاقاته الشهيرة مع ملك الفرنجة الكبير ، هذه العلاقات التي تذهب الرواية الى أنه

(٦) انظر Æginhardi Annales Francorum, year 801.

انشأها هو نفسه من طريق وفـدٍ بعث به الى اكس لاشابل .
وأياً ما كان، فليس عند المصادر العربية ما تقوله في هذا الشأن. ولعل الامر كله لا يعدو ، في أغلب الظنّ ، كون بعض التجار الشرقيين قد انتحلوا، لدى شارلمان، صفة السفراء الناطقين باسم الخليفة ، من غير تفويض [٧] .

واستمر النضال ضـــد بيزنطة طوال عهـــد الرشيد ، ولكنه لم يُؤتِ من الثمرات شيئاً اكثر من إكراه الامبراطور نقفور بعد فتح هرقلة ، سنة ٨٠٦ ، على التعهد بأداء جزية للمسلمين. وكان ثمة في ايران ايضاً اضطراب متصل . حتى اذا ثار رافع بن ليث في سمرقند ، سنة ٨٠٥ ، وبسط سلطانه على بلاد ما وراء النهر كلها ، اضطر الخليفة إلى أن يسير بنفسه لمقاتلته . ولكن الأجل لم يمهله ، فما كاد يبلغ طوس في خراسان حتى مرض ومات ، يوم ٢٤ آذار سنة ٨٠٩ .

الشعر في العراق

وازداد مُلك هرون بهاء بما أطلعه الأدب العربي من ثمرات يانعة في أرض الحضارة البابلية القديمة الخصبة. فقد خلف شعراءَ البادية الذين استغرقت الخصومات القبلية والمنافسات التافهة معظم نشاطهم ايام الأمويين جيلٌ جديدٌ من شعراء الحواضر. وتكاثرت

(٧) انظر شميت F. F. Schmidt in *Der Islam, III*, 409-II
وانظر ايضاً بارتولد W. Barthold في المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٣٣٣ وما بعدها . والواقع أن الشرق لم يكن يعرف آنذاك ما ندعوه السلك الديبلوماسي باكثر مما عرفته اوروبة . وكان المسلمون يعتمدون في اداء هذه المهام الديبلوماسية على الفقهاء ، في الأعم الأغلب .

شواغل الناس ، فهم لا يجدون متسعاً من الوقت يفرغون فيه لقصائد الشعراء القدماء الطويلة المملة : بل لقد فقدوا القوة على فهمها وتذوقها . فكان من الطبيعي أن يعمد الفن الجديد إلى تجزئتها ، محاولاً أن يغذو كلاً من عناصرها المختلفة على حدة وليس من شك في أن الافق الفكري لم يتسع [في الشعر الجديد] إلا قليلاً . فقد غنّى القدماء الحب والخمر والطرد كما غناها المولدون ، وسخروا من خصومهم سخرية لاذعة كما كان يفعل المولدون . ليس هذا فحسب ، بل لقد وُفق القدماء في بعض الأحيان إلى أن يوقعوا على أوتار أدعى الى استثارة الشجون ، وذلك في مراثٍ تندب الحياة الدنيا وتبكي زوالها . وكانت القصيدة الغزلية قد نهضت على ساقها وأصبحت فناً مستقلاً ، عهد عبد الملك ، في شعر عمر بن ابي ربيعة ؛ وكان الخليفة الوليد الثاني قد أحيا فن الخمرية . فلما نشأ الشعراء المولدون تعهدوا هذه الفنون كلها بالتنمية والتجويد . ولم يكتفوا باستعارة المحسّنات البيانية من لغة التخاطب العامة في عصرهم فحسب ، بل عدَوا ذلك ، في الأعم الأغلب ، الى الاستمداد من لغة البدو وكانت لا تزال تعتبر المثل الأعلى [في السلامة والفصاحة] . والحق ان مدائح الخلفاء ، والبرامكة جرت في معظم الاحوال على الأسلوب القديم ، حتى عند الشعراء الذين لا تنميهم اصول عربية ، والذين عرفوا كيف يجيدون هذا الاسلوب ويتأتّون له برشاقة بارعة . فقد كان أشهر مدّاحي العباسيين ، مروان بن ابي حفصة ، حفيداً لرجل من يهود خراسان ، ولكنه كان ينزل اليمامة ، في العادة ، فلا يكاد

يغادر البلاط، بعد انشاد مدائحه في الخليفة ، حتى يفيء اليها من دون البلاد جميعاً. وكان خلف الاحمر – وهو ابن عبد من فرغانة أعتقه سيده – من العلم بالشعر القديم والغناء فيه بمحل مكنه من تقليده وروايته في الناس على انه من كلام الجاهليين [٨] .

أما أشهر شعراء العصر ، ابو نواس – وهو ابن غبالة فارسية ، قضى أيام شبابه [الاول] في البصرة والكوفة – فكان متمكناً من العربية في جميع فروعها تمكناً عجيباً جعل الرواة يزعمون أنه لم يتم له الا من طريق الاقامة المتطاولة بين ظهراني الأعراب . ولكنه كان يفسح المجال ، في بعض قصائده ، لتعابير ينتزعها من لغة التخاطب اليومية . والذي لا شك فيه أنه كانت لهذا الشاعر موهبة اصيلة في الشعر الغنائي ، على الرغم من أنه كثيراً ما انقاد الى التحذلق السخيف . ولم يسلم شيء ، حتى الدين نفسه ، من استهتار ابي نواس في لهوه هذا . والواقع ان الاشارات البذيئة التي يحفل بها ديوانه ، في تصريح حيناً ، وفي تلميح حيناً ، لتدل دلالة واضحة على ذوق سامعيه الوضيع . والذي يظهر أن أبا نواس كان يمثل أيضاً دور النديم في البلاط وفي المجتمع البغدادي ، وهو

(٨) يرى كثير من علماء العربية ان خلف الاحمر هو واضع «لامية العرب» التي تنسبها الرواية الى الشنفرى ، احد ابطال العرب اليانيين ، قبل الاسلام ، والتي تعتبر من أشهر القصائد ، واجملها في مقياس الذوق الاوروبي ايضاً . (وقد ترجمها ردهاوس J. W. Redhouse سنة ١٨٨١ ، وهيوز G. Hughes سنة ١٨٩٦ ، قابل نيكلسون :
R. A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, p. 80

الدور الذي لم يكن معاصره ابو دلامة ليجيد غيره .[٩] ولكن هذا العصر لم يعدم فريقاً آخر من الشعراء ، اخذوا باسباب الجد وحاولوا أن يردعوا المجتمع البغدادي المنغمس في الملذات عن ضلالته . والمؤثرات النصرانية ظاهرة ، اوضح ما يكون ، في شعر ابي العتاهية الذي نَعِمَ ، وهو شابٌ ، بحظوةٍ في بلاط الرشيد هيأتها له قصائده الغزلية المستملحة ، لينقلب بعد الى تزهيد الناس في الحياة الدنيا بشدةٍ واندفاع بالغين ، حتى لقد أثار شكوك اولئك الذين أخذوا على عاتقهم تعقب الزنادقة .

ولقد قدّر للمغنيات اللواتي لعبن دوراً عظيم الاهمية في حياة بغداد الاجتماعية ، ان ينهضن بالنصيب الأوفى من خدمة الغزل الجديد ونشره في الناس ، شأنهن من قبل ، على عهد الأمويين ، في مكة والمدينة . وانقضت فترة تصدّر خلالها الحياة الفنية في بغداد وسامراء احد* ابناء الخليفة المهدي من جارية ديلمية، وكان من هواة الموسيقى ؛ وتذكر الروايات انه احدث فيها احداثاً كثيرة زادت في الثروة الفنيــــة . أما في عهد الرشيد وخلفائه فقد تزعم الحركة الموسيقية في العاصمة ابراهيم بن ماهان الموصلي ، ابن احد ملتزمي الخراج ، وولده إسحق . وكان كلٌ منهما يدرب الجواري ويخرّجهن في الغناء ثم يبيعهن باثمان عاليــة . والادب العربي حافـــل بالقصص الغرامي اللطيف الذي يتحدث عن

---

(٩) من شخصية ابي دلامة هذا استوحى فون وبر **C. M. von Weber** الفكرة الرئيسية في الاوبرا التي وضعها باسم « أبو حسن » ***Abu Hasan***

* هو ابراهيم ابن المهدي .   (المعربان)

هؤلاء الجواري ومحبيهن العاجزين عن النهوض بما يكلفهم اياه مالكو الجواري من مطالب فاحشة ، في بعض الاحيان .

والواقع ان العربية كانت لا تزال هي لغة الادب والتأليف ، غيرَ منازَعة . ومع ذلك فقد ظهر عددٌ من الشعراء ، الفارسيي الاصل ، الذين افتخروا في منظومهم ، جهاراً ، بتراث الآباء والاجداد ، ومجّدوا الفرس على حساب العرب . ولقد برزت هذه النزعة ، في صوره أشدّ وأوضح ، في النثر الذي كانت تتفتح براعمه في الوقت نفسه . فقد وضع رجل فارسي يدعى عَلاّن ، وكان نسّاخاً في مكتبة البلاط ايام الرشيد والمأمون ، كتاباً خاصاً حشر بين دفتيه مثالب القبائل العربية المشترَكة في الشعر القديم ، فلُقب من اجل ذلك بالشعوبي ، أي المدافع عن تساوي الامم في الحقوق . كذلك تمثلت النزعة نفسها في عدد وافر من آثار ذلك العصر الكتابية [١٠] .

النحو وفقه اللغـــة

ولعل من اقوى الشواهد على مدى السيطرة التي كانت لا تزال للغة العربية ولماضي العرب العظيم على الحياة الفكرية في ذلك العهد هذين العلمين اللذين انصبّ عليهما اهتمام المثقفين آنذاك : فقه اللغة والتاريخ . فاما اولهما فكانت نشأته ذات صلة بالقرآن . ذلك بانه كان من الضرورة الماسة ان يفهم هذا العددُ الغفير من الداخلين حديثاً في الاسلام ، والناشئين في بيئات لا تتكلم العربية ، كلامَ

(١٠) انظر جولدزيهر I. Goldziher , *Die Shu'ubijja und ihre Bekundung in der Wissenschaft*, in *Muhammedanische Studien*, I, Halle, 1889. p. 147 — 208.

الله فهماً كامــــلا ، وأن يُحسن أداءه في الصلاة المفروضة .
ليس هذا فقط، بل لقد كان من الضرورة الماسة ان تُمهّد السبيل
امام هؤلاء الاعاجم الى امتلاك ناصية الدقائق المعنوية في العربية،
والتضلع من مَتنها الزاخر بالمفردات. والواقع انه كان يتعين على من
يرغب في ان يحتل مكانة ما في المجتمع البغدادي ان تتم له معرفة
دقيقة بالشعراء الجاهليين الذين ظلت اشعارهم النموذج المحتذى في
حلقات الأدب ، وان تتم له القــدرة على النظم على طريقتهم
ايضاً . وهذا هو السبب الذي جعل معجم الخليل [بن احمـد]
البصري اساساً لنشأة فقه اللغة العربية وتطوره . صحيح ان
ترتيب هذا المعجم الكبير بحسب مخارج الحروف ، مبتدئاً بالعين
التي هي اعمق حروف الحلق (ومن هنا دُعيَ : كتاب العـين
وحسب) لم يلبث ان أثبت عـدم صلاحه ، فاطرحته الحلقات
الأدبية ؛ ولكن طريقته الذاهبة الى شرح المفردات عـلى اساس
الشواهد الشعرية استطاعت ان تفرض نفسها على جميع المعاجم
التي تلت. كذلك بدأت دراسة النصوص الشعرية نفسها في وقت
مبكر ايضاً، وكانت تستهدف البحث في مؤسسات الحياة البدوية
وأوضاعها التي تؤلف قوام القصائد الجاهلية، والتي كان اهل المدن
يجهلونها ، في الجملة ؛ وتقصد الى جمع الاخبـار المتصلة بالشعراء
انفسهم ، لتنتهي آخر الأمر الى محاولات في تقويم الاثر الادبي
وتعيين منزلته الفنية. وتنسب الروايات الى الخليل ايضاً اختراع
العروض ووضع نحوٍ هو ، بالرغم من اعتماده على منطق ارسطو،
ثمرةٌ مستقلة كل الاستقلال من ثمرات الحضارة الجديدة . ثم إن

سيبويه الفارسي ، احد تلاميذ الخليل ، قام بخدمة جليلة عندما وضع هذا العلم في صورة نظامية جرت عليها الأجيال المقبلة، ولو ان الاسلوب الذي اعتمده كان بعيداً عن التوفيق. وكان ينافس سيبويه في علم النحو احدُ قراء القرآن [السبعة] ، الكسائي الكوفي، الذي سبق له ان علم الرشيد نفسه، ثم عهد اليه الرشيد في تأديب ولده الأمين . وفي بعض الروايات ان تلميذ الكسائي ، الفرّاء ، درّس تفسير القرآن في مسجد الكوفة. ومهما يكن من شيء ، فقد كان اكثر مقامه ببغداد . والمقول انه وضع مؤلفه في الحدود النحوية (ولم يصلنا هذا الكتاب) في قصر المأمون .

وقد افترض العرب فيما بعد ، استناداً الى روايات التاريخ الأدبي ، أن الخلاف كان قائماً بين مذهبين لغويين - هما مذهب البصرة ومذهب الكوفة - وان هذا الخلاف لم يسوّ إلا بعد أجيال عندما اندمج المذهبان وتوحدا في مدرسة بغداد . ولكن الذي يظهر لنا أن المنافسات الفردية بين علماء هاتين المدينتين - البصرة والكوفة - قد بولغ فيها إلى حد لا مبرر له .

التاريخ

فإذا انتقلنا إلى العلم الثاني وجدنا أن العناية بالرواية التاريخية كانت شديدة جداً، حتى في بلاد العرب قبل الاسلام. والواقع ان بلاد العرب لم تعرف الملاحم الشعرية، فاذا بالحكايات عن ايام القبائل وثاراتها الناشئة في الغالب عن بواعث تافهة جداً تحل محل هذه الملاحم ، وتحيي ذكراها في أشعار توضع على ألسن الأبطال . فلما استطارت الفتوح كان فيها لهذا الفن حافز غير متوقع.

وكانت القبائل المختلفة قد ضفرت من ملاحمها أكاليل الفخر، مشيدة فيها بالدور الذي لعبته على مسرح المنازعات بين الامم. والحق ان هذه المآتي قد جمعت وصنفت، على شكل كتاب، حتى في عهد الامويين. فأخرج احد افراد قبيلة الازد في الكوفة، أبو مخنف لوط بن يحيى، هذه الاخبار في ترسّل رائع ينتظم اكثر من ثلاثين مقالة مستقلة، تتألف كلٌ منها في الاعم الاغلب من مشاهد مفردة ومحاورات. ونحن مدينون في بقاء مقالات ابي مخنف هذا وعدم ضياعها لمحمد بن السائب الكلبيّ، احد علماء الكوفة وبصورة أخص لابنه هشام الذي نقل الطبري عنه هذه المقالات، في تاريخه الكبير. وكان محمد بن السائب يعنى عناية خاصة بانساب القبائل العربية، وقد حاول أن يحدد سني حكم اللخميين في الحيرة من النقوش التي على قبورهم، والتي كانت لا تزال مصونة، لعهده، في كنائسهم. امـا هشام، الذي جمع آثار ابيه بين دفتي كتاب ضخم في الأنساب لا يزال باقياً الى اليوم، فتذهب الروايات الى انه اكتسب عطف المهدي بمؤلف في مثالب الامويين أملاه على احد كتاب الخليفة، وبذلك استطاع عماله ان يردّوا على رسالة مهينة كان قد بعث بها صاحب الاندلس [عبدالرحمن الداخل]. ليس هذا فحسب، ولكننا مدينون لهشام ايضاً بمعلومات قيمة عن ديانة العرب الوثنيين في كتاب له آخر دعاه، بوصفه مسلماً صالحاً، « كتاب الاصنام ». وعلى الرغم من ان ابا مخنف، بما هو كوفي، كان يميل الى عليّ فأن أخباره لم تظهر هذا التشيع شأن المؤلفات التي نسبت اليه بعد زمن طويل في ما يتصل باستشهاد الحسين في

كربلاء ، وبالمختار ، النبي الكاذب . والواقع أن النزعة الشيعية اصرح واشف تقنعاً في تاريخ موقعة صفين الذي كتبه نصر بن مزاحم المتوفى بالكوفة سنة ٨٢٧، ولقد انتهى الينا في نصه الاصلي ولا يزال يتلى الى اليوم، في الدوائر الشيعية، كسيرة قومية. وفي عهد الرشيد ظهر سيف بن عمر الاسدي، ايضاً. ولقد صرف همته في تأريخه للفتوح ولارتداد العرب (بعيد وفاة الرسول) ولواقعة الجمل ، الى تمجيد قبيلته ، تميم ، وكان مولعاً بالخوض في المحسنات والتزاويق الخيالية . ومهما يكن من شيء ، فقد أعجب الطبري اعجاباً شديداً بتاريخ سيف بن عمر هذا – وليس محل ثقة في التفاصيل على الاطلاق – حتى لقد اعتمده من دون سواه تقريباً، وبذلك أضلّ المؤرخين الذين جاءوا من بعده واعتمدوه في تآليفهم .

اما المدينة فتميزت، على العكس، بالبحث التاريخي الدقيق . وكان ابو معشر الذي جاءها، بادىء الامر ، كمولىً من موالي الهند والذي استقرّ بعدُ في بغداد ، هو اول من صنف كتابـــاً عن غزوات الرسول . وكان معنياً في الدرجة الاولى بتحري الدقة وتحقيق الأخبار. وتأسّاه في ذلك محمد بن اسحق الذي قصد ايضاً الى بغداد ليتجنب ، في ما يبدو ، عداوة العلماء الذين حصروا اهتمامهم بالاحاديث الفقهية دون سواها. وهناك وضع للمنصور اول سيرة كاملة للرسول. وانما وصلتنا هذه السيرة في رواية متأخرة . فلما كانت خلافة الرشيد اتم هذا العمل الواقديّ، مولى يحيى البرمكي. وكان الواقدي يُسرّ في ذات نفسه الولاء لعلي وآله ، ولكن ما صنفه عن مغازي الرسول وفتوح البلدان لم يفسح له في مجـــال

الاعراب عن ولائه هـذا . ثم ان تلميذه وكاتبه ابن سعد جمع في «كتاب الطبقات» الاخبار المتصلة بالنبي ، وصحابته والتابعين ، فعجل ذلك في ظهور كتب السيرة التي بالغت الاجيال المتأخرة في غربلة مادتها وتنخلها مبالغة بعيدة ، والتي ندين لها – بالاضافة الى كثير من الهراء الذي لا قيمة له – ببعض المعلومات ذات القيمة الكبيرة في التاريخ الثقافي . والواقع ان معالم التاريخ كلها ، حتى عند ابي معشر والواقدي ، اقتصرت على سني الخلفاء ، وشؤون عمالهم الادارية ، وامراء الحج والصائفات ضد البيزنطيين . وقلما ازدانت هذه الكتب بشيء من تفاصيل الحوادث المهمة . ثم جاء الطبري ، المولود في آمل من اعمال طبرستان ، فأتم العمل الذي بدأه سابقوه – ولعله اعتمد ايضاً اخبار سني الفرس الرسمية – وبذلك امسى اعظم مؤرخي الامبراطورية . والواقع ان الطبري استهل تاريخه بعصر ما قبل التوراة ، وفقاً للروايات الاسرائيلية المتأخرة التي جمعها مفسرو القرآن ، مضيفاً الى ذلك مختاراً من ترجمة ابن المقفع لكتاب خداينامه الفهلوي . أما في تاريخ الاسلام فاعتمد المصادر التي سبقت منا الاشارة اليها مردداً ما جاء فيها بأسانيده كلها . وبالاضافة الى هـذا التاريخ الكبير صنّف الطبري تفسيراً واسعاً للقرآن اعتمد فيه جميع المصادر التي في متناوله . بيد ان غاية الغايات التي كان يطمح اليها الطبري هي إنشاء مذهب فقهي مستقل . ولقد تمّ له ذلك ، ولكن مذهبه لم يُعمر دهراً طويلاً .

وما كاد الرشيد يلحق بالرفيق الاعلى حتى خيف على الامبراطورية أن تنقسم شطرين[١١]. وتفصيل ذلك ان الرشيد نفسه كان قد سمى ولده الأكبر محمداً الأمين، ابن زُبيدة حفيدة المنصور، ولياً للعهد واميراً على سورية في الوقت نفسه، ولكنه عهد بالولايات الشرقية إلى ولده الآخر، عبد الله المأمون، وكانت أُمه أَمَة فارسية، بعد أن نص على ان ايّ اعتداء يقوم به الأمين على حقوق اخيه يترتب عليه فقدانه العرش. ثم إن الرشيد عين ولداً له ثالثاً، يدعى القاسم، أميراً على الجزيرة الفراتية، فتقلصت بذلك سلطة المأمون وضاقت. ومع ان الأمين عمد عقب ارتقائه عرش الخلافة الى جعل إمارة القاسم مقتصرة على قِنسرين فحسب، فانه لم يجرؤ على التعرض للمأمون، على الرغم من تحريض وزير ابيه الفضل بن الربيع. هذا من جهة. ومن جهة ثانية فقد اضطر المأمون، بادىء الامر، الى التسليم بحقوق اخيه، فيما كان وزيره الفضل بن سهل يستحثه على توحيد الامبراطورية. والواقع انه كان لا يزال يخشى الخطر الذي يتهدد الدولة من المشرق. فقد قُدّر لاهل التُبَّت، إبان الفتوح العربية في آسيـة الوسطى، ان ينتصروا في سلسلة من المعارك ضد الصين، بمعونة عرب كاشغَر ولكنهم، اي التبتّيين، انتهوا بعد إلى ان يستشعروا الخطر من تقدم القوى الاسلامية، ومن هنا ناصروا رافع بن ليث في ثورته بسمرقند، فهم يهددون

(١١) راجع غابريالي G. Gabrieli, *La successione di Harun ar - Rashid e la guerra fra al - Amin e al - Mamun, Rivista di studi orientali*, 1929.

الآن بالهجوم على بلاد ما وراء النهر. بيد ان المأمون اضطر سنة ٨١٠ الى ان يلقي بالتحفظ عرض الحائط ، عندما اخذ الأمين يذكر اسم ابنه موسى في خطبة الجمعة، بالاضافة الى اسم المأمون، مثيراً بذلك شكوك هذا الاخير ومخاوفه ، في ما يتصل بولاية العهد . حتى اذا ذهب المأمون الى ابعد من ذلك وقطع جميع علاقاته ببغداد، أعلن الامين خلعه وعهد الى قائد جيوشه علي بن عيسى في اتخاذ جميع الاجراءات الضرورية ضده. بيد أن علياً هذا ما لبث ان قتل في موقعة جرت بين قواته وجيوش المأمون ، يقودها طاهر بن الحسين ، في الري . وإنما كتب النصر في تلك الموقعة لجند المأمون، فلم يكن من الامين إلا أن بعث بجيش جديد كان نصيبه التشتت ايضاً. وعندئذ رفض الجند الذين وجههم الى الشرق للمرة الثالثة ان يتقدموا الى أبعد من خانقين، على الحدود العراقية. ليس هذا فحسب ، بل لقد نشبت الثورات ضد الأمين في سورية، وحوصر هو وأمه في العاصمة من قبل الحسين ابن قائده علي الذي قضى في الري ، ولكن نفراً من الذين أقاموا على الاخلاص له عادوا فأنقذوه من إساره . ولم تكد بلاد العرب تبايع المأمون حتى انتهى قائداه طاهر وهرثمة إلى ابواب بغداد . وتساقطت المدينة منطقة اثر منطقة في ايديهما، فاضطر الأمين، آخر الأمر، الى الاستسلام . وعلى الرغم من ان هرثمة قد امنه على حياته ثم سار به من قصره ، في اواخر ايلول سنة ٨١٣ ، على حراقة ، فقد هاجمه رجال طاهر وقتلوه .

الدولة الطاهرية

ومكث المأمون ، باديء الأمر ، في مرو ، على الرغم من أن

هذا النّصر الذي تمّ له جعله سيّد الامبراطورية الأوحد فاغتنم العلويون فرصة غيابه عن العاصمة وشرعوا يصطادون في الماء العكر . هكذا خرج بالكوفة محمد بن ابراهيم بن طباطبا ، في اوائل سنة ٨١٥ ، وادّعى الخلافة ، ولكن هرثمة لم يلبث ان هزمه في سهولة ويُسر . والظاهر ان هرثمة نفسه انتهى ، بعد هذا النصر الجديد ، الى ان يكون خطراً على الخليفة ووزيره فأمرا به أن يُعتَقَل ، بُعَيْد دخوله مروَ ؛ وما هي إلا فترة وجيزة حتى أمرا بقتله فقُتل . اما طاهر بن الحسين ، وكان يستحق من الخليفة المثوبة بمقدار ما استحقها هرثمة ، فقد أُرْسِل على رأس جيش هزيل الى الرقة ، على الفرات ، حيث كانت الثورة تلي الثورة . وفي سنة ٨١٧ دعا البغداديون المنصورَ ابن الخليفة المهديّ الى تولي السلطة ، فلم يستجب المنصور لهم بل أقام على ولائه للخليفة وسعى الى اقرار الأمن باسمه * وحسبَ المأمون ، غيرَ شكّ ، أن في استطاعته اكتساب عطف العراقيين اذا عقد لعليّ بن موسى الرضا على ابنته ، وسمّاه ولياً للعهد . والواقع أنه أقدم على هذا الصنيع في آذار سنة ٨١٧ ، باشارة من وزيره الفضل ابن سهل واستبدل ، في الوقت نفسه ، رايات العلويين الخُضْر ، برايات العباسيين السود . ولكن العراقيين أبوْا مبايعة عليّ ، ونادوا بابراهيم بن المهديّ ، الموسيقي الهاوي ، خليفة عليهم ، في ٢٤ حزيران فاضطرّ المأمون عندئذ الى ان يتخذ اجراءات فعالة في مركز الامبراطورية . وتذهب الروايات الى ان الفضل بن سهل

---

* اي باسم الخليفة .

كان يخدعه في الايام السالفة ، بتقارير كاذبة عن احوال العراق، زاعماً ان صهره العلوي كان اول من كشف له عن حقيقة الحال هناك . ولم تكن الأمور في الشرق أدعى الى اطمئنان المأمون من الأمور في العراق . ذلك بأن العقائد التي بشر بها ابو مسلم وتلميذه المقنّع ، وهي القائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الالهية ، لم تلبث ان بُعثت في آذربيجان على يد بابَك [الخُرَّميّ] الذي اجتمع حوله خلقٌ كثير واتسع سلطانه حتى لأوشك ان يعزل المقاطعات الفارسية عن الغرب. ومهما يكن من شيء فالواقع ان المأمون انطلق في سبيله الى طُوس مباشرةً ليستمد القوة من طريق الصلاة على ضريح ابيه الرشيد. وبينا هو في بعض الطريق قُتل وزيره ، وهو في الحمام ، بمدينة سَرْخَس* وفي طوس أيضاً توفي صهره من جراء اضطراب هضميّ في ما يظهر، ولكن الراجح أن يكون قد دُسّ له السم فمات. وهناك دُفن في جوار هرون؛ وإذ قد رفعه الشيعة ، في الحال ، إلى مرتبة الشهداء، فان مدينة جديدة لم تلبث ان نشأت حول مزاره، باسم «المشهد الرضوي» أو «المشهد»، لتحل بعدُ محل طوس القديمة بكاملها ، وهي تُعد اليوم اعظم الاماكن الشيعية المقدسة بعد كربلاء [١٢] واذ غلبت

---

* وجاءت ايضاً « سرخس » بفتح ففتح فسكون . (المعربان)

(١٢) راجع سايكس P. M. Sykes, *The Glory of the Shia World, the Tale of a Pilgrimage Translated*, London. 1910. 234 - 57.

وراجع ديز Diez, *Chorassanische Baudenkmaler*, Berlin, 1918, p. 89 ff.

وكذلك راجع ستروثمان R. Strothmann, *Die Zwölferschi'a*, Leipzig. 1926, p. 171 .

السوداء بعيد ذلك، على الحسن [بن سهل] اخي الوزير الفضل وأمير العسكر في واسط آنذاك (وكان العراقيون يكرهونه كرهاً شديداً) ، وتغير عقله حتى شدّ في الحديد وحبس في احد البيوت، بحجة من هذا الاختلاط العقلي، فقد خلع اهل بغـــداد ابراهيم ابن المهدي ودعوا للمأمون بالخلافة ، فدخل العاصمة في آب سنة ٨١٩ . ولم يكد ينسحب من خراسان حتى رفع الخـــوارج راية الثورة فيها . فعهد المأمون في إخمـادها الى طاهر ، الذي وُفق خلال فترة قصيرة إلى اقرار النظام في المقاطعة كلها. بيد ان طاهراً لم يلبث ان نازعته نفسه الى الاستقلال ، بعد ان استشعر انه قد أمسى في مأمن من الخليفة ، في تلك الديار النائية ، فأغفل سنة ٨٢٢ الدعاء له في خطبة الجمعة . وعلى الرغم من ان هذا الاغفال كان بمثابة الثورة الصريحة على المأمون فانه لم يجرؤ على ان يرفض تعيين طلحة بن طاهر أميراً على خراسان بعد وفاة أبيه . واحتفظ أبناء طاهر وأحفاده ، الذين سيمر بنا ذكرهم بعد ، بسلطانهم هذا نحواً من قرن بطوله . والواقع ان هذه الأحــــداث أفقدت الامبراطورية الاسلامية أقصى ولاياتها الشرقية ، كما افقدتها اقصى ولاياتها الغربية [١٣] .

ولمع من أبناء طاهر عَلم آخر، اسدى للامبراطورية خدمات

---

(١٣) انظر روثشتاين W. Rothstein, *Zu asch - Schabustis. Bericht über die Tahiriden* (*Orientalische Studien, Th. Nöldeke gewidmet*) , Giessen, 1906, I. 155 - 170 .

وانظر ايضاً بارتولد W. Barthold, *Turkestan Down to the Mongol Invasion*, London, 1928, 207-22 .

جلي في الولايات الغربية. ذلك هو عبد الله الذي استطاع القضاء نهائياً على نصر بن شَبَث . وكان نصرٌ هذا من أنصار الأمين ، وكان قد استقلّ بعد وفاة سيده بأقليم حلب ، وظل على ذلك حتى سنة ٨٢٥ عندما هزمه عبدالله . ثم إن المأمون كلف ابن طاهر إقرار الأمن والنظام في مصر ، حيث كانت نار الفتنة القديمة قد اندلعت بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، كرّة أخرى ، إبان الحرب بين الأخوين ؛ وقد ناصرت القيسية الأمين ، وناصرت الكلبية المأمون . ولم تكد وحدة الامبراطورية تستقر ثانية حتى اندلعت نيران القلاقل مرة اخرى عندما اقبلت جماعة من الاندلسيين (كان قد طردهم امير الاندلس الاموي منهـــا) واستولوا على الاسكندرية . ولكن عبدالله استطاع في فترة وجيزة إكراههم على الانسحاب إلى إقريطش ، وإقامة الآلة الحكومية من جديد. وكان إرث اخيه طلحة في خراسان قد انتقل اليه ، بعد وفاته. وكان المعتصم ، وليّ العهد ، قد تولى إمارة مصر . حتى اذا نشبت فيها ثورة القِبط فعجز عن قمعها وحده ، طلب المأمون الى عبدالله ان يتدخل شخصياً ويخمد نار الفتنة .

وكان المأمون يعهد بقيادة الحملات الحربية ، في أواخر أيام خلافته ، الى كبار رجاله العسكريين ، في العادة . ومع ذلك فقد اضطر إلى أن يستأنف النضال ضد البيزنطيين بنفسه . ولعل المساعدة التي واصل البيزنطيون إسداءَها إلى بابَك ، المقيم على الثورة في آذربيجان بعد أن أخفقت جميع المحاولات للقضاء عليه ، كانت هي الدافع الذي حمله على مهاجمة آسية الصغرى في آذار سنة ٨٣٠ .

وهكذا اشترك الخليفة ثلاث سنوات متعاقبة في حملات الصيف ضد البيزنطيين [الصوائف]، وتابع المعركة أيضاً بعد ان التمس الامبراطور تَوْفيل * الصلحَ سنة ٨٣٢ عقب سقوط « لؤلؤة »، امنع الحصون البيزنطية على الحدود قرب طرسوس. وفي آب سنة ٨٣٣ توفي المأمون في البُدَنْدُون قرب طرسوس، في أثناء حملته الثالثة على البيزنطيين.

النهضة العلمية في عصر المأمون

وليس من شك في انه قــد قدّر للمأمون ان يخدم الثقافة الاسلامية خدمة جلى خلال العشرين السنة من مقامه في بغداد، من طريق اهتمامه الشخصي بعلوم اليونان. والواقـع ان دراسة هذه العلوم لم تنقطع يوماً من الايام في الاديرة السورية. ذلك لأن لاهوت آباء الكنيسة الاغريقية، وفي جملتهم ثاوَدُوْرُس المصّيصي ذو الاثر العظيم في التفسير النسطوري للكتاب المقدس، لم يكن ليفهم من غير الرجوع الى المصطلحات التي استمدها هذا اللاهوت من الفلسفة الارسطوطاليسية. ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية استطاعت دائماً ان تحظى ببعض الاهتمام ايضاً، على الرغم من ان العناية بالمسائل الفكرية كانت محصورة عند السوريين في ايدي رجال الدين. وعلى الرغم من ان مدرسة الاسكندرية الطبية، ذات الروح الفلسفية، كانت قد لفظت انفاسها الاخيرة بعيد الفتح العربي الذي قطع ما بينها وبين بيزنطة، فقد واصل السوريون في انطاكية وحَرّان حماية تراثها وتنميته، ونقلوه الى بغداد. والواقع ان اثر الكلية الطبية

* Theophilus

التي أنشأها الساسانيون، قبل ذلك، في جُند يسابور * من اعمال السوس، كان أعظم من هذه الناحية. فمن هناك جاءت اسرة بَختيشُوع الشهيرة بين النجبت من كبار الأطباء، كجرجيس ابن جبريل الذي عالج الخليفة المنصور في بغداد، وغيره ممن لمعت اسماؤهم في هذه الصناعة بعد عهد المنصور أيضاً وفي بغداد التقى الطب اليوناني بالطب الهندي على صعيد واحد. فقد سبق لهرون الرشيد نفسه ان استدعى مرة الطبيب الهندي مَنكه الى بغداد، كما سبق للبرامكة ان أمروا بنقل بعض كتب الطب الهندية الى اللغة العربية.[١٤] فلما كانت خلافة المأمون نقيت هذه الجهود كلها عطفاً منه ورعاية. فلقد حاول أن يجمع في مكتبة بلاطه، الموسومة ببيت الحكمة، كنوزَ العلم الاسلامية إلى كنوز العلم الأجنبية، وأمر بأن تُشترى المصنّفات اليونانية من آسية الصغرى. وفي عهده استهلّ ابو يوسف يعقوب الكندي — «فيلسوف العرب»، وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم، كما دعاه كاردانو * سنة ١٥٥٢ — نشاطَهُ الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسطوطاليسية والافلاطونية

---

* ووردت ايضاً بفتح الدال.

(١٤) انظر براون E.G. Browne, *Arabian Medicine*, Cambridge, 1921.

وانظر ايضاً ميرهوف **M. Meyerhof**, *Von Alexandrien nach Bagdad, ein Beitrag zur Geschichte des philosophischen und medizinischen Unterrichts bei dem Arabern Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften*, **1930**.

* **Gardano**

الجديدة من طريق الترجمة والأقتباس فحسب ، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرجَ من دراساتٍ في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبةٍ بروح تلك الفلسفة. والواقع ان الكِندي قد أثبت أنه ابن بيئته عندما عُني بالتنجيم وبكشف الغيب ، كعلمين من العلوم الجدية الخالصة . وعلى الرغم من وقوفه موقفاً سلبياً في ما يتصل بالدعاوى الخادعة التي كان يقول بها رجال « الكيمياء » في عصره ، فأنه لم يجد ايّما غضاضة في ان يُعنى بتقطير العطور. ليس هذا فحسب بل لقد عُني كذلك بعلم الحرب فوضع رسالةً ذكر فيها ما يزيد على خمسة وعشرين ضرباً من ضروب السيوف وَفْقاً لمصدر انتاجها من اليمن الى سرَنْديب (سيلان) حتى فرنسة والروسيا ، ووصفَ خصائص شَفَراتها كلٍّ على حدة ، وعرَضَ لبعض الفوائد في ما يتعلق باعادة طبع السيوف المفلولة ، بواسطة التبريد التدريجي [١٥] .

وحظيت الرياضيات وعلم الفلك باهتمام خاص في بغـــداد . فترجم الحجاج بن يوسف بن مطر للخليفـــة المأمون مصنفات أُقليدُس وكتـــاب بطليموس الشهير عنـــد العرب بالمجَسْطِي ، وكان قد رفع الى الرشيد ترجمـــةً لكتـاب « الأسطُقُسّات » (العناصر) لأقليدس . ولقد استعين في هذا الباب بالعلوم الهندية ايضاً . فقد سبق لابراهيم الفزَاري أن ترجم للمنصور كتاب الفلك الهندي الموسوم بـ « السند هند » . ثم جاء

(١٥) انظر وليدي A. Zeki Validi, *Die Schwerter der Germanen nach arabischen Berichten des 9. bis II Jahrhunderts*, *Zeitschrift der Deutsch. Morg.Ges.* 90, 1937,20.

محمد الخُوارِزْمي فلخّصه للمأمــون . والخُوارزمي هو الذي اقتبسَ كتابَ بطليموس في صورة الارض ، ووضع اول كتاب مستقل في الجبر . ومن هنا، فأن اسمه لا يزال خالداً إلى اليوم في كلمة algorithm * التي تعبر عن طريقــةٍ من طرق الحساب .

وكانت للمأمون ايضاً معرفــة بالمشكلات العملية في علم الفلك ، فقد أمرَ بمراجعة جداول بطليموس الفلكية [زيج] على اساس ملاحظــات أُجريت في بغداد ودمشق في آنٍ معــــاً ، كما أمر بقياس درجة من خط الهاجرة .

الحديث والفقه

كان موقف المأمون من مشكلات عصره اللاهوتية مماثلاً لموقفه من العلوم اليونانية ورعايته لها. والواقع أن الجهود الروحية انصرفت، اكثر مــا انصرفت ، خلال القرنين الاولين للاسلام ، الى محاولة التوفيق ما بين المثل اللاهوتية القائمة على أساس القرآن والسنة من ناحية ، والحقيقة من ناحية ثانية. فعلى الرغم من ان مصحف عثمان قد حسم الخلاف حول نص القرآن في وقت مبكر جداً ، فقــد ظلت المسائل المتعلقة بقراءة هذا النص على وجه الصحة تشغلُ العلماء جيلاً بعد جيل. ولقد سبق لنا ، غير مرة، ان رأينا قارئي القرآن يتعصبون للمذاهب السياسية ، حــــتى اذا تعاقبت الايام احتفظوا بنفوذهم في الحياة العامة . وكان تفسير القرآن لا يزال خاضعاً ، في الاعم الاغلب، لسلطان القُصّاص الذين ظهروا قبل

* ولا صلة لها بجداول اللوغارتم (logarithm) كما يتوهم بعضهم .
(المعربان)

ذلك ، عهدَ الامويـين ، والذين كانوا كثيراً ما يرافقون الجند ، أيام الحروب ، ليبعثوا في نفوسهم الحماسة بما يروونه على مسامعهم من قصص البطولة المنتزعة من تاريخ الانبياء . أما في ايام السلام فكان اهل التقوى يتحلقون حولهم في المساجد ، كما كانت جموع المتبطلين تحتشد حول زملائهم من القصاص في زوايا الشوارع ، سواء بسواء . ولدينا نصٌ يرجع الى القرن الثاني للهجرة يفيد أن أحد العراقيـين كان يفسر القرآن للعرب والفرس ، وقد جلس الاولون الى يمينه ، والآخرون الى يساره ، باللغتـين العربية والفارسية . وإنما كان هؤلاء يستعيرون ، في معظم الأحوال ، مادة تفاسيرهم من القصص التلمودي المفسر لحوادث التوراة عند اليهود ، ومن الاساطير النصرانية التي انتهت الى علمهم بعد أن حرِّفت بسبب تعدد الروايات . ومن هذه الينابيع استقى محمد الكلبي أيضاً في تفسيره للقرآن ، وهو الذي تحدثنا عنه آنفاً بوصفه أحد رواد التأليف التاريخي عند العرب . وكان مُقاتِل البَلخي ، وهو أحد معاصريه (وكان اصغر منه سناً) قـد حاول ، قبل ذلك ، ان يصنّف مادة القرآن التشريعية ، وان يعين معانيها الاصطلاحية من طريق تعريفات دقيقة . ولقد ضُم هذا الجهد ، في ما بعد ، الى التفسير اللغوي الخالص الذي رفع لواءه الفرّاء ، تلميذ الكسائي ، النحوي الكوفي . ثم جـاء الطبري فوضع تفسيره الجامع مشتملاً على ثمرات الجهود التي بذلها جيلٌ كامل من المفسرين . وكانت الاحاديث المتصلة بحياة الرسول وتعاليمه متداولة في هذا العهد ايضاً تداولاً يكاد يكون شفهياً خالصاً ، ولم تدوّن إلا في

الاحوال النادرة ، كجمع بعض الأحـاديث التي تتعلق بمسائل خاصة ، أو التي انفرد بها راوٍ واحد .

أما كتب الحديث القانونية الكبرى – كصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الكتب التي رفعتها الجماعة الاسلامية في العصور التوالي إلى مقام من القداسة يكاد يُداني مقام القرآن – فلم تظهر إلا في الجيل التالي . ثم ان تطبيق سُنة النبي ، أي المثل الذي ضربه في حياته ، كما تنص عليه الأحاديث ، لم يلبث أن أصبح مصدر علم الفقه ، حيث لا تزال المعاملات والعبادات ، كما هي الحال في اكثر الحضارات البسيطة ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً . وبالاضافة الى المذهبين الأقدمين ، مذهبِ أبي حنيفة في العراق ومذهب مالك في المدينة ، ظهر مذهب الاوزاعي في سورية ؛ ولقد ساد فترة من الزمان في شمالي إفريقية ثمّ طغى عليه المذهب المالكي . أما في سورية نفسها فلم يكد ينتشر حتى تقدّم عليه مذهب الشافعي الذي لم تكتب له الغلبة لا في الحجاز ، وهو موطن اسرته ، حيث كان لتلامذة مالك شأن كبير ، ولا في العراق حيث كانت السيادة لتلامذة ابي حنيفة ، ومن هنا حاول ان يضمن لنفسه منطقة نفوذ جديدة في مصر . وكانت وفاته بالفُسطاط ، في ٢٠ كانون الثاني سنة ٨٢٠ . والحق ان الشافعي قد قام ببحث اوسع من أبحاث سابقيه في اصول الفقه ، على الرغم من انه شايعهم في عدم الشك في سلطان التقليد . ومهما يكن من شيء فقد أحس أحمد بن حنبل ، في بغداد ، بانه مضطرٌ إلى التوكيد على سلطان التقليد باكثر مما فعل مالكٌ والشافعي . ولم يلبث رفضه الجافي لأيما خطة وسطٍ

ان قاده الى النزاع مع الدولة . ليس هذا فحسب ، بل ان تعصب أتباعه ظل أبداً يتهدد القانون والنظام في بغداد بأشد الخطر طوال عدة قرون تلت . حتى اذا كان العصر الحديث بعث مذهب ابن حنبل على يد الحركة الوهابية ، في شبه جزيرة العرب ، فكان في ذلك حافز قوي دفع بالاسلام الذي تحجّر [مع الايام] نحو تطور أبعد.

المناظرات الكلامية

وكان النزاع على المسائل السياسية الطارئة على الجماعة بسبب خلافة علي قد أدى الى ظهور فرق اسلامية مختلفة . فالخوارج الذين ثاروا على علي ذهبوا في تعصبهم الى حد تكفير كل مسلم يقترف احدى الكبائر . ولقد عارضهم في ذلك المرجئة الذين قالوا بعدم جواز تكفير المسلم ، وتركوا الحكم في مصير صاحب الكبيرة ، في العالم الآخر ، لله وحده . وهذا الموقف المعتدل في ما يتصل بالسلوك الأخلاقي مكن الفقهاء المؤيدين للدولة الأموية من الرد على حدة المعارضة ؛ بل لقد كان في استطاعة علويي الهوى أن يوسّعوا على أنفسهم بواسطته ، فعل ابي حنيفة ، على ما تقول الروايات . ففي خلافة هشام ، عندما اشتد امر الدعوة العباسية إلى حد الظهور [علانية] - وإن بقيت في بادىء الأمر عاملة من وراء ستار العلويين وبخاصة فريق الزيدية المعتدل - التمس اتباع هذه الدعوة العباسية طريقاً وسطاً بين المذهبين مكنهم من أن يتخذوا موقفاً خاصاً محايداً من النزاع بين العلويين واخصامهم . ودعي اتباع هذا «الاعتزال» المعتزلة . والواقع ان هذا الاسم نفسه قد أطلق على رجلين اثنين خرجا على شيخهما المحدّث الورع

الحسن البصري» ، المتوفى سنة ٧٢٨ ، ليؤسسا مذهبين خـاصين بهما . فقد ذهبا الى ان المسلم صاحب الكبيرة ليس بالمؤمن وليس بالـكافر ، ولكنه في منزلةٍ بين المنزلتين . ويُعتـبر واصل ابن عطاء ، تلميذ الحسن [البصري] أول المعتزلة . وقد اجتذب مذهبـه عمـرو بن عُبيد الذي كان اشدّ عـداوة للعلوية من واصل نفسه ، ومن هنا لم يعترف بابي بـكر وعمر خليفتـين شرعيين للرسول فحسب ، بل اعترف بعثمان خليفة شرعياً ايضاً. ولقد انتهى في ما بعد الى ان يصبح واعظاً للخليفـة المنصور . والواقع ان واصلاً وعمراً شنا حرباً عنيفة على معاصرهما جَهْم بن صَفوان الذي قـال بالجبر ، في حين كان المعتزلة يقولون بارادة الانسان الحرة . واياً ما كان ، فالذي يبدو انهما اخذا عن خصمهما هذا ، العقيدة القائلةَ بخلق القرآن وصفات الله . وكان واصل وعمرو على اوثق الصلة بالشاعر صالح بن عبـد القدوس وحلقته ، بادىء الأمر ، ولكن خلافاً ما لبث ان نشب بين الفريقين ، فادا بالنضال ضد تأثير المانوية الشديد في معتقدات الطبقة المثقفة يصبح في جملة هموم المعتزلة ومشاغلها الرئيسية . ولم يكن للمعتزلة معدىً ، في سبيل تدعيم معتقدهم في صفات الله ، عن اصطناع الطريقة التقليدية المتبعة في الفلسفة اليونانية ، على الرغم من رفضهم القاطع لنزعة هذه الفلسفة بطبيعة الحال . وبينا كان ممثلو السنة الخالصة يعتبرون كلمة الله ، القرآن ، ازلية كالله نفسه ، انتهى التفكير الاعتزالي في ما يتصل بالصفات الالهية الى الفكرة التي سبق لجهم بن صفوان ان قال بها ، وهي ان القرآن ليس ازلياً ، بل مخلوق . ولقد وُفق

المعتزلة الى ان يثيروا شوق الخليفة المأمون نفسه الى هذه النظرية واهتمامه بها حتى لقد اعلنها سنة ٨٢٧ عقيدة الدولة الرسمية، وامر بامتحان جميع الذين يرفضون القول بها كما امتُحنَ اتباع المانوية من قبل . وكان ضحية هذا الاضطهاد الفكري الاولى المحدّث المتحرج احمد بن حنبل . وتفصيل ذلك انه بينما كان المأمون معسكراً بطرسوس في احدى غزواته للبيزنطيين اعتُقِل ابن حنبل في بغداد وسيق الى مقر قيادته مصفداً بالاغلال . ووافت المنون الخليفة قبل ان يبلغ العالم الاسير مقر القيادة. فلم يكن من رجال المأمون إلا ان عادوا به الى بغداد .ولكن اضطهاده لم ينقطع في عهد خليفة المأمون ايضاً .حتى اذا كانت خلافة المتوكل واشتد ساعد الرجعية استعاد ابن حنبل مكانته وحظوته .ولقد كان ثمةَ ميلٌ الى اعتبار المعتزلة ممثلين لتفكير لاهوتي حرّ يقوم في الطرف المقابل للسنّة الرشيدة. ونحن نستطيع ان نقطع ، على اساس مما بسطناه آنفاً ، بأنهم لم يكونوا اقل تعصباً من فقهاء السنة بحالٍ ، وانهم لم يختلفوا منهم في الأساليب ، ولكن في بعض المعتقدات الخاصة فحسب .

المعتصم وحرسه

ورقيَ العرش بعد وفاة المأمون اخوه محمد ، وكان اميراً على مصر ، متخذاً لقب المعتصم بالله . ولم يجد المعتصم ايما معارضة ، لان الجيش الذي كان قد بايع العباس بن المأمون بالخلافة ما لبث أن انفضّ من حوله لدُن ظهور المعتصم المفاجىء . ولكن فقدان الامن في العراق كان في ذاته دليلاً على مقدار ما اصاب هيبة الخلفاء من أذىً بالغ .فلقد سبق للساسانيين ان أنزلوا ، جنوبيّ العراق،

في المستنقعات الواقعة بين البصرة وواسط ، شعباً هندياً يُعرف بالزُّط (جَت) ، كان قد غادر مواطنه الاصلية ، فعل أقربائه الغجر ، لأسباب مجهولة . وعلى الرغم من محاسنة المسلمين لهم ، إذ اصطنعوهم في الجيش من غير تمييز ، فانهم لم يلبثوا ان اصبحوا عنصر فتنة وفساد ، حتى في عصر المأمون ، فعطّلوا جميع المواصلات بين البصرة وبغداد ، طوال سنوات . فلما كانت خلافة المعتصم ، وجد نفسه مضطراً الى ان يتخذ اجراءات صارمة . ولكنه لم يوفق الى القضاء عليهم بصورة حاسمة ، وإجلائهم الى قلعة عين زَرْبة ، احد الثغور في قيليقية ، إلا سنة ٨٢٥ . وكان الصراع العنيف بين العرب من ناحية ، والفرس الذين حظوا بعطف المأمون خلال السنوات الاولى من خلافته ، قد حمل المعتصم قبل ذلك الحين على ان يَكِلَ امر سلامته الشخصية الى فرقة من الموالي بعضها من البربر ، وغالبيتها من الاتراك . وإنما اقبل هؤلاء الاتراك من بلاد ما وراء النهر ، إما عن طريق النخاسة ، وإما على سبيل الجزية يؤديها الامراء الوطنيون الى خزانة الدولة الاسلامية . ولقد عهد المعتصم ، حتى ذلك الحين ، بتصريف شؤون هذه الفرقة الى رجال من غير الموالي ، ولكنه لم يلبث ان ملأ مناصب القيادة بمواليه الخصوصيين مبالغة منه في الحرص على سلامته الشخصية . والواقع ان هؤلاء الزعماء * انتهوا في وقت مبكر الى ان تكون لهم سلطة على الدولة . حتى اذا انقضت فترة

(*) ويشبههم المؤلف ، كغيره من المؤرخين ، بالحرس البريتوري الروماني . (المعربان)

غير طويلة اصبحوا هم سادة الدولة الحقيقيين، وكان طبيعياً ان يتكشف خطر هؤلاء العبيد على العرب لبصائر الأذكياء من الرجال منذ ذلك الحين . وهكذا القى ابنُ سعدٍ (الذي وضع كتبه في عهد المعتصم) ، على لسان احد الصحابة نبوءة مفادها ان الاتراك سيردّون العرب ، في يوم من الايام ، إلى بواديهم * .

بيد ان أشهر قواد المعتصم ظل من غير شك ، رجلاً فارسياً اسمه حيدر بن كاوُس ويدعى عادة بالأفشين نسبة الى اجداده ، وكانوا سابقاً امراء أشرُوسَنة في آسية الوسطى . ولقـــد وفق الأفشين الى القضاء على حكم بابك في آذربيجان بعد ان افتتح قلعته عنوة واستباحها في خريف سنة ٨٣٧ . وما هي الا فترة حتى انقضّ الأفشين على البيزنطيين الذين هاجموا في عهد الامبراطور توفيل الجزيرةَ وشمالي سورية . وهزم الأفشينُ الامبراطور ، واستولى على عمورية ، في غَلاطِية ، بعد ان لجأ ، إثر حصار متطاول ، إلى الخدعة . ولكن من الجائز جداً ان تكون هـــذه الانتصارات

---

* جاء في الحديث: « ان أمتي يسوقها قوم عراض الوجوه صغار الأعين ، كأن وجوههم الجحف (ثلاث مرات) حتى يلحقوهم بجزيرة العرب . أمـــا السائقة فينجو من هرب منهم . واما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض . وأما الثالثة فيصطلمون كلهم من بقي منهم . قالوا يا رسول الله ، من هم ؟ قال الترك . أما والذي نفسي بيده لتربطن خيولهم الى سواري مساجد المسلمين . وفي رواية عن ارقم بن يعقوب زيادة : كيف انتم اذا خرجتم من ارضكم هذه الى جزيرة العرب ومنابت الشيح .

رواه احمد في المسند ، وابو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن ، وسعيد بن منصور في سننه ، ورواه ابو داود في سننه مختصراً ، وغــيرهم . (المعربان)

بالذات هي التي أثارت حسد الخليفة له. وعلى الرغم من انه احبط، بعد رجوعه من حرب البيزنطيين، مؤامرة جديدة هدفت إلى تنصيب العباس بن المأمون خليفة، فقد اتهم بالارتداد عن الاسلام سنة ٨٤٠ وحبس في بناء خاص. ثم منع عنه الطعام إلا القليل حتى مات، إذ لم يجرؤ أحد على أن يُنزل به عقوبة الصلب المألوفة.

بنـاء سامرا

واذا كان هرون الرشيد قد آثر في السنوات الاخيرة من حياته أن يفزع الى الرقة، البلدة الريفية الصغيرة الواقعة على الفرات، اجتناباً لصخب بغداد، فقد عزم المعتصم على أن ينشيء، سنة ٨٣٦، مقراً جديداً لنفسه في سامرّا، القائمة على الضفة اليمنى من دجلة، على مسافة مائة كيلو متر الى شمال بغداد. ولعل الاذن العربية توهمت ان اسم سامرا الفارسي يخفي في طياته نذير شؤم فحرّف في الاستعمال الرسمي الى «سُرَّ من رأى». وعهد المعتصم في بنائها الى أشناس، احد قواده الاتراك؛ فأنشأ فيها قناتين متفرعتين من دجلة نحو الشرق، خلعتا على المدينة الجديدة، بالاضافة الى النهر نفسه، منعة الحصن البحري. وكانت المدينة تنتظم، من قبل، ثمانية اديرة نصرانية. ولقد شيد قصر الجوسق للمعتصم، اولاً، حتى اذا جاء من بعده خلفاؤه، وكانوا سبعة حكموا طوال نصف قرن، حلوا جيد المنطقة بقصور ومساجد جديدة. وعلى الرغم من انه لم يبق لنا من هذه المنشآت الفخمة، التي أقيمت خلال تلك الفترة القصيرة من الازدهار، الا خرائب وأطلال، فالحق انها تقدم لنا صورة عن فن العمارة في العصر العباسي هي أنبض بالحياة من تلك

التي تقدمها لنا بغداد، حيث عبثت أيدي الاجيال المتأخرة بما ثبت من آثارهـا في وجه الاعصار المغولي . والواقع ان المعماريين المسلمين اعتمدوا في الشرق ، كما اعتمدوا في الغرب ، التقاليـد القديمة، سواء بسواء. فقصر الخليفة المتوكل الموسوم بـ « بَرْكوارى » – وهو اهم بناء لا تزال آساسه محفوظة لنا ، في سامرا – إنما شيد على طراز قصور المدائن الفهلوية من حيث التصميم العام، وتخطيط المساحات وشكل الواجهات. وهو مستطيلٌ، يبلغ طول كل من جانبيه ثلثيْ الميل تقريباً. وعلى الجهة الغربية، المنحدرة نحو النهر، مقابل السطائح ، كانت تنهض ثلاثـة عقود من آجُرٍّ تقود الى القسم المخصص للسكنى وقاعات الاستقبال العامة. وكانت هذه مجتمعةً، على شكل صليب، حول أروقة داخليةٍ ثلاثة يحيط بها عددٌ من غرف الاستقبال والحمامات وغرف الخدم . وإلى الشرق، كانت تحاذي القصرَ حديقةٌ ذات شلالات . وإلى الشمال، كانت بِركةُ ماء عظيمة تتوسط السراديب والآبار. وحول القصر كانت تقوم مساكن للحاشية وثكنات للحرس . أما مهندسو الجامع الكبير فتأسوا أثراً أعرق وأوفر حظاً من جلال القِدَم. ذلك بأنهم بَنَوا مئذنة هذا الجامع فوق قاعدةٍ طولهـا ٣٢٨ يردة ، على طراز الأبراج البابليـــة ، ذات السلالم [الخارجية الملوّية] ، وهي « الزِكّورة ». والحقّ أن الموارد العظيمة التي كانت لا تزال في متناول هؤلاء المعماريين ، على الرغم من ان الامبراطورية كانت في ذلك الوقت قد اخذت في الانحطاط، لتَظْهَرُ لنا أوضح مايكون الظهور من مساحة هذا الجامع الهائلة حقاً . فهو بمثابة مستطيل

يبلغ مائتين وستين متراً طولاً ، ومائة وثمانين متراً عرضاً ، تقريباً . ويستغرق صحنه الداخلي ، المتوزّع على خمس وعشرين بلاطة ، أربعة وأربعين الف متر مربع . وبحَسْبنا ، لكي نكون فكرة عن معنى هذا الرقم أن نذكر ، أن صحن كنيسة القديس بطرس في رومة يبلغ ١٥١٦٠ متراً مربعاً ، وصحن آيا صوفيا في استانبول يبلغ ٦٨٩٠ متراً ، في حين لا يزيد صحن كاتدرائية « كولون » على ٦١٢٦ متراً .

انحلال الخلافة ونشوء الدويلات

●

كان القواد الاتراك قد انتهوا في عهد ابن المعتصم وخلفه ، الواثق بالله ، (٨٤٢ — ٨٤٧) إلى غاية من النفوذ في بغداد حتى لقد اضطر الخليفة الى أن يخلع على أشناس لقب السلطان، وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخالصة. حتى اذا توفي الواثق في سن مبكرة، كان وصيف ، خلف أشناس ، قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع الى العرش الرجل الذي يرتضيه. والواقع انه نصب بادىء الأمر محمد بن الواثق ، وكان لا يزال دون سن الرشد، خليفة على المسلمين، بالاتفاق مع السلطات المدنية العليا ، من غير شك . وأياً ما كان ، فسرعان ما استبدل بمحمد هذا عمه جعفراً المتوكل على الله . ولكن الخليفة الجديد ما لبث ان حاول التخلص من نفوذ «صانعي الملوك». وكان ابن الزيات من العاملين ضده ، فانتقم منه بعد انقضاء ثلاث سنوات على ولايته. وكذلك قضى على القائد التركي إيتاخ الذي سبق له ولوصيف ان ساعداه على ارتقاء العرش .

المتوكل وأبناؤه

وكان المتوكل يرجو أن يتخذ من الشافعية ، وهم من أهل

السنة ، عضداً يحابه ُ به العلويين الذين ما انفكوا يناضلون دون غاياتهم وامانيهم. وكان مستشار المأمون ، قاضي القضاة احمدبن ابي دُؤاد الذي فُلجَ بعيد تولي المتوكل أمر المسلمين مباشرة ، قد تخلى عن منصبه لابنه محمد . ولكن المتوكل لم يلبث ان اعتقله واخوته في السنة الثانية من خلافته ، وصادر ممتلكاتهم جميعاً . ثم انه عهد بقضاء القضاة الى يحيى بن اكثم ، الشافعي المذهب ، الذي سبق ان كانت له مكانة مرموقة عهد المأمون، ولكنه اضطر الى ان يقنع ببعض المناصب ، في الولايات بسبب من كراهيته للمعتزلة . وفي سنوات ولايته الثلاث ، وكانت هذه اقصى ما سمح به جشع المتوكل ومكره ، احدث يحيى انقلاباً كاملاً [في الشعائر المتبعة] . فقد هُدم قبر الحسين في كربلاء، ومُنع الناس من اتيانه . وأُطلق سراح جميع الفقهاء الذين كانوا قد زُجَّ بهم في السجون لعدم تبنيهم عقيدة خلق القرآن، وفي جملتهم احمدبن حنبل ، وحُرم البحث في هذه المسألة والجدال حولها. وكان على اهل الذمة الذين مثلوا دوراً عظيماً في بلاطات اسلاف المتوكل ، بوصفهم علماء وبوصفهم اطباء على الخصوص - والذين لم يكن في ميسور المتوكل نفسه الاستغناء عنهم بالكلية - ان يعانوا الاضطهاد في ظل هذا العهد البعيد عن التسامح. فقد امر المتوكل بهدم البِيَع النصرانية واليهودية المحدثة في بغداد ، وبأخذ النصارى واهل الذمة كلهم بتصيير علامات معينة مهينة على ما ظهر من لباسهم، وبالاقتصار في مراكبهم على البغال والحمر دون الخيل والبراذين. وكان المتوكل قد عقد ولاية العهد ، في مستهل خلافته ، لابنه

الاكبر ، [المنتصر] ثم لابنيه الاصغرين [محمد المعتز وابراهيم المؤيد] من بعده . ولكن الفتح بن خاقان ، الاثير عند المتوكل ، اوغر صدره على المنتصر فقدم عليه اخاه المعتز في ولاية العهد. والواقع ان شوكة القواد الاتراك استعصت حتى على محمد [بن عبد الله] بن طاهر الذي أُسندت اليه ولاية الشرطة في بغداد ، سنة ٨٥١ . واذ لم يكن الخليفة المسرف قادراً قط على استجابة مطالب حرسه فقد حاول سنة ٨٥٨ اجتناب سيطرتهم ، بأن جعل دمشق حاضرته ولكنه لم يلبث ان بارحها عائداً الى العراق. حتى إذا تكشف المتوكل بعد ذلك عن حماقةٍ وقصر نظر فحاول مصادرة ممتلكات القائد وصيف في بلاد الجبال، تآمر هذا الاخير مع ولي العهد ، المنتصر ، على قتل المتوكل . ونفذت المؤامرة ليل التاسع من كانون الاول سنة ٨٦١ في «الجعفري» وهو القصر الذي كان المتوكل ، قد أقامه على ابواب سامرا ، قبل ذلك بفترة غير طويلة .

ولم يستطع المنتصر ، قاتل ابيه ، ان يحافظ على العرش اكثر من ستة اشهر ، بذل خلالها جهوداً عقيمة لاستخلاصه لنفسه من طريق اكراه اخويه ، المعتز والمؤيد ، على التنازل عن ولاية العهد ، ومن طريق محاسنة العلويين . وبعد ان قتله الاتراك بالسم رفعوا الى العرش ابن اخي المتوكل : احمد المستعين بالله . حتى اذا حكمَ اربع سنوات ليس غير ، فقدَ سلطته التي كانت قد تقلصت فعلاً الى طيفٍ من الخيال بسبب النزاع المستمر بين امراء الجيش الاتراك . فقد اضطر «بغا» ، الذي كان له فضلُ تنصيبه خليفةً ، الى ان يفرّ معه من وجه الخصوم الى بغداد، في

حين رُفع المعتز الى عرش الخلافة ، في سامرا . وحاول محمد [بن عبدالله] بن طاهر الذي كان المستعين قد عيّنه اميراً على العراق والمدينتين المقدستين ان يُنجد سيده المحاصر في بغداد ، ولكنه لم يلبث ، بعد خلاف نشب بينه وبين بُغا، ان انقلب عليه . وهكذا لم يعد في ميسور المستعين أن يثبت في بغداد، فاضطر الى خلع نفسه في كانون الثاني سنة ٨٦٦، ليُقتل في تشرين الاول من السنة نفسها في واسط .

وحاول المعتز أن يتخذ من حرسه المغاربة اداةً لمقاومة الاتراك الذين كان لهم، على كل حال ، الفضل في ارتقاء كرسي الخلافة . ولكن الاتراك لم يلبثوا، بعد ثلاث سنوات ونصف، ان خلعوه عن العرش لعجزه عن سد حاجتهم الملحة الى المال . والحق ان خلفه ، محمد المهتدي بالله بن الواثق، سعى عبثاً الى اجتناب مصير اسلافه ، فاختصر نفقات القصر الملكي لكي يعيد الى الجهاز المالي المضطرب شيئاً من النظام الذي فقده . وايا ما كان، فقد قُتل في معركة ضدّ موسى بن بُغا ، وهو لما يُتم السنة الاولى من ولايته.

ثورة الزنج في العراق

أما ما انتهت اليه الحكومة المركزية ، في ذلك العصر ، من ضعف بسببٍ من استبداد أمراء الجيش وتبدل الحكام المتواصل ، فيبدو لنا أوضحَ ما يكون اذا عرفنا ان دولة شُطّار من العبيد الهاربين من سادتهم قد ظهرت تحت سمع هذه الحكومة وبصرها وعلى ابواب العاصمة نفسها تقريباً، فألقت الهول والرعب في العراق كله ، سنوات بكاملها . وتفصيل الأمر ان جماعة من زَنج افريقية

الشرقية كانوا يعملون، لمصلحة بعض المتعهدين البصريين في كسح السباخ العظيمة القائمة قرب البصرة . فظهر رجـــل فارسي اسمه عليّ بن محمد – وكان يزعم انه ينتسب الى عليّ وفاطمة من طريق زيـــد بن عليّ (من اجل ذلك فمن الجائز ان تكـون نسبته هذه حقيقية، لما كان عليه بيت زيد بن علي من كثرة العدد آنذاك) ودعا الزنج الى الخروج على مستثمريهم . والذي لاشك فيه أنه لم ينادِ بشيء من الاصلاح في الاحوال الاجتماعية، ولكنه اكتفى بأن وعد هذا الشعب المظلوم –والعبيد في جملتهم– وعداً قاطعاً بتحسين حالهم وضمان الحرية والثروة لهم. وهو لم يصدر في دعوته على أساس من حقوق أسرته بل جاهر بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تميز قومي ، والتي بـــدت من غير شك ، سائغة عند اتباعه ، على الخصوص . وانما ظهر علي بن محمـــد هذا ، اول ما ظهر ، في ١٠ ايلول سنة ٨٦٩ ، وما هي الا فترة وجيزة حتى استولى على ضواحي البصرة . وسيرت عليه حكومة بغداد الجيش بعد الجيش ،فهزمت جميعاً،خاصة وان المرتزقة من الزنج انحازت عموماً الى جانبه . كذلك لم يكن لسكان البصرة ، الذين نفروا بأنفسهم لحربه في ٢٣ تشرين الاول سنة ٨٦٩،طاقة على الثبات في وجه شجاعة رجاله الضارية. وسرعان ماقامت على قاعدته الحربية الجديدة هذه التي كان يسهل الدفاع عنها ، بسبب من تعدد القنوات الصغيرة والمستنقعات القائمة حولها،بلدة جديدة، هي «المختارة» – ولقد استعمل اللبن في بنائها السريع اولاً ثم جهزت بالغنائم العظيمة التي استولى عليها . وهكذا بسط سلطانه

على دجلة حتى مصبه ، ثم حمل على خوزستان [16] .

ولكنّ تحسناً كان قد طرأ في الوقت نفسه ، على الموقف في العاصمة . فعلى الرغم من ان المعتمد بن المتوكل كان هو نفسه في غاية الضعف فقد ولى ُبعيدارتقائه العرش سنة ٨٧٠ ،اخاه الموفق بالله ، أمر الجيش . وكان الموفق هماماً حازماً ، فلم يكد يمكّن لنفسه في سامرا ،صيف سنة ٨٧١ ، حتى سير جيشاً لقتال الزنج ، ولكنه لم يستطع أن يشتبك معهم في معركة حاسمة ،على الرغم من بعض الانتصارات الأوليـة التي تمت له . وكانت قبـائل البدو الضاربة في الاقليم المجاور قد انضمت بدورها الى صفوف الثائرين. وفي ٧ ايلول سنة ٨٧١ أوقع صاحب الزنج وأتبـاعه بالبصرة ، أثناء صلاة الجمعة ،فنهبوا المدينة الغنية ،وأعملوا السيف في رقاب أهلها — فمات منهم ثلاثمائة الف ، على ما تقول ابعد الروايات عن المبالغة — وأشعلوا النيران في مبانيها ، وكان الموفق نفسه قد خاض المعركة ضد الثائرين في نيسان سنة ٨٧٢ ، فلم يقدر على شيء. واتفق ان برز من الشرق خطر جديد ، فاضطر الموفق الى ان يترك الزنج وشأنهم ، فترة من الزمن .

بين الصفارية والطاهرية في إيران

كان الخوارج ، الذين ُهزموا في كل مكان تقريباً ، قد ثبتـوا فترة طويلة في سجستان ،جنوب شرقي إيران ،وهي المقاطعة التي تفصل اليوم بين إيران الحالية وافغانستان . ولكنهم كانوا قـد

(١٦) انظر نولدكه Th. Nöldeke, « A Servile War in the East » in *Sketches from Eastern Histroy*, tr. by J. S. Black, 1892, pp.146—175.

انحطوا الى درك اللصوصية والنهب في ذلك الاقليم النائي الذي تُرك امره في ايام هرون الرشيد للحـــكام الوطنيين ، فـلم يُشدّ الى الادارة المركزية شداً محكماً . ومن هنـــا اضطر أهل البلاد الى مقاتلتهم ، دفاعاً عن النفس ، فوفق أحد زعماء الفرق المتطوعة لهذا الصنيع الى الاستيلاء على العاصمة وطرد العامل الذي كان امير خراسان ،من آل طاهر ،قد عينه عليها .وكان في خدمة هذا الزعيم رجـل اشتغل في حداثتـه بعمل الصُفر (النحاس)يدعى يعقوب الصفار .وكان يعقوب هذا من الشجاعة بمحل أوقع الرعب في نفوس الناس ، فعهد اليه سيده السابق بالقيادة العليا ليستقر هو في بغداد بعد ان قضى حجه الى مكة . والواقع ان أخاه حاول ان يُخضع يعقوب ، فلم يُوفـق الى ذلك ، في حين كان الصَفـّار ،الذي أمسى أميراً ،يفتح شيئاً فشيئاً مقاطعة سجستان برمتها ، ويسدي اليها خدمة جُلى بقطع دابر اللصوصية وأعمال النهب .ولم تكد تنقضي سبع سنوات على ذلك ،سنة ٨٦٧ ،حتى كان يعقوب قد هاجم املاك آل طاهر الجنوبية في هَراة . ثم إنه سعى الى اكتساب عطف الخليفة ، فبعث اليه بهدايا سنيّة مما كان قد غنمه . وانما تظهر لنا المكانة الضئيلة التي كانت الحكومـة المركزية لا تزال محتفظة بها في تلك الامصار عندما نعلم انها نزلت عند رغبة يعقوب فأقطعته ولاية كِرْمان المجاورة ،كما اقطعتها في الوقت ذاته عليّ بن الحسين ، أمير مقاطعة فارس . ولقد حاول علي هذا أن يسبق يعقوب الى احتلال الولاية ،ولكن الاخير هزم جنده وأسر قائده ، ثم تقدم لقتال علي نفسه فهزمه في ٢٦ نيسان

سنة ٨٦٩، واستولى على عاصمته، شيراز . واذ لم يكن في ميسوره ان يستولي على فارس ذاتها، فقد ولى وجهه من جديد قبلَ المشرق وتحقق بمجد الجهاد ، من طريق نشر راية الاسلام ، في افغانستان. حتى اذا هاجم فارس كرة اخرى أقطعه الخليفة بَلخ ، وطُخارِستان والسند ابتغاء تحويل نظره عن الغرب .

وكانت أحوال آل طاهر في خراسان قد انتهت ، في الوقت نفسه ، الى غاية من الوهن بعيدة ، فلم يكن من يعقوب الا ان افاد من خيانة بعض اشراف تلك الديار للاستيلاء على عاصمتهم نيسابور ، في آب سنة ٨٧٣ ، استيلاءً يسيراً لم يكد يقع فيه قتال. حتى اذا أصدر اليه الخليفة أمره بالجلاء عن خراسان في الحال لم يأبه بذلك الامر ، بل سار بجنده الى طَبَرِستان التي تقع على الساحل الجنوبي من بحر قزوين ، والتي كان حاكمها ، [الحسن] ابن زيد بن ... علي ، قد أنزل في كنفه ابنَ طاهر الطريد . وعلى الرغم من أنه احرز ههنا أيضاً نصراً أولياً، فقد وجد نفسه مضطراً الى الانسحاب بسبب من وعورة الاقليم . فلما كان صيف سنة ٨٧٥ انقلب الى مقاطعة فارس من جديد وبسط سلطانه عليها في سهولة ويسر ، ثم تقدم غرباً عبرَ خُوزستان . واذ كانت حكومة بغداد لا تزال منهمكةً في تأديب الزنج فقد حاولت ان تغريه بالرجوع من حيث أتى ، فاعترفت به والياً على خراسان والمقاطعات المجاورة ، وعلى فارس ايضاً . ولكن شيئاً لم يكن ليصرف يعقوب عن طِيَّته ، فتابع سيره على بغداد . فخرج اليه الموفق ، نائب الخليفة في ذلك الوقت ، بجيش عظيم ، فالتقاه عند دير العاقول ،

على نحو اثني عشر ميلاً جنوبي المدينة (بغداد). وهنا مُني يعقوب بأول هزيمة جدية في حياته، في ٨ نيسان سنة ٨٧٦. ومهما يكن من أمر، فلم يجرؤ الموفق على تعقبه حين انسحب الى تخوم العراق. وفي هذه الاثناء عرض صاحب الزنج على يعقوب عقد تحـالف عسكري، فأبى ذلك في غلظة وجفاء. ثم ان الموفق استأنف مفاوضاته مع يعقوب، ولكن المنية ادركت هذا الاخير قبل ان تنتهي المفاوضات الى أيما نتيجة في جُنديسابور، ٥ حزيران، سنة ٨٧٩ [١٧].

وخلف يعقوبَ أخوه عمرو، وكان اول أمره مُـكارياً وبنّاء، ثم مالبث ان تكشف عن مواهب عسكرية عالية. وفي الحال عقد الموفق معه معاهدة أقرّته والياً على ما تمّ لاخيه فتحه من البلدان. ليس هذا فحسب، بل لقد خلع عليه ولاية الشرطة ببغداد، وهي رتبة اسمية، غير شك، كانت من قبل الى آل طاهر. ولكن الخُجُستاني، احد رفاق يعقوب القدماء، مالبث ان شق عصا الطاعة على عمرو، في خراسان، وهزمه في ٧ تموز سنة ٨٨٠، واستولى على العاصمة نيسابور. والواقع ان عمراً اضطر الى ان يخلي له البلاد فترة من الزمن، لينسحب الى موطنه الاصلي، سجستان. وما هي إلا سنتان حتى قُتل الخجستاني، فبسط عمرو سلطانه على خراسان، كرةً اخرى.

(١٧) راجع نولدكه Th. Nöldeke, « Yakub the Coppersmith » in *Sketches*, pp. 176—206.
وراجع بارتولد W. Barthold, *Zur Geschichte der Saffariden*, *Orientalische Studien*, 1, 171—196.

والواقع ان النزاع بين يعقوب الصفّار والحكومة المركزية في بغداد قد افسح في مجال العمل امام الزنج الذين لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة واسط الهامة ، بل عدَوا ذلك الى تثبيت اقدامهم في خوزستان . اما وقد فَرغ الموفق الآن من امر الشرق ، فقد صار في ميسوره ان يستأنف النضال ضد اولئك الثائرين ، في عنف وفي حذر . وكان عليه ان ينشىء عدداً من السفن الحربية يستعين بها على مهاجمة مدينتهم المحوطة من جوانبها جميعاً بالقنوات . وانما نهض بعبء المعركة ابو العباس احمد بن الموفق ، الذي ارتقى عرش الخلافة بعدُ متخذاً لقب «المعتضد». ولقد اكتفى بادىء الامر بانتصارات ثانوية وسعى الى ان يحمل ضباط جيش العدو ، وعامة الجند خاصة ، على القاء السلاح والتخلي عن اصحابهم. ولم يبرز الموفق نفسه الى ميدان القتال الا بعد عام واحد ؛ في الخريف. وبعد ان استولى على « المنيعة » ، وهي المدينة الثانية التي انشأها الزنج، ارتد على خوزستان لاستخلاصها من قبضتهم. وفي ربيع سنة ٨٨١ حاصر عاصمتهم نفسها، «المختارة»، وأنشأ قبالتها ، على الضفة الثانية من دجلة، ولاغراض عسكرية، مدينة جديدة دعاها « الموفقية» . ونجح جند الخلافة ، في التقدم الى قلب عاصمة العدو ، غير مرة ، ولكن الموفق لم يغامر في شن هجوم حاسم إلا في تموز سنة ٨٨٣، عندما انضم الى جيشه جيش لؤلؤ ، الذي خان مولاه امير مصر ، وكان قائداً لجند الشام من قبله . واخيراً سقطت المدينة امام ضربات لؤلؤ الحازمة في آب سنة ٨٨٣، وبذلك قضي على تلك الجماعة الخارجة التي طالما عاثت

فساداً في اغنى جزء من اراضي الخلافة .

الطولونيون في مصر

وفي تلك الاثناء كان غرب الامبراطورية قد تخلص بالكلية من نفوذ الحكومـة المركزية كما تخلص الشرق ، سواء بسواء . وكانت مصر تخضع ، خلال العقود السابقة ، على العموم ، لحـكم ولاة ، كان ينتدبهم الامراء العباسيون ، او القواد الاتراك ، لان هؤلاء آثروا ان يعيشوا على مواردهم في عاصمة الخلافة لكي يتسنى لهم رعاية مصالحهم عن كثب في ذلك الجو السياسي المضطرب . وفي سنة ٨٦٨ آلَ هذا المركز الى بايكباك التركي ، فبعث بأحمد ابن طولون الى مصر لينوب عنه في حكمهـا . وكان طولون في الاصل مملوكاً تركياً من بخارى ، وكان قد انتهى في عهد المعتصم الى ان يصبح قائداً لحرس الخليفة . اما ابنه احمد فنشأ نشأة عسكرية قاسية . ولقد خدم بضع سنوات في طرسوس ، على الحدود البيزنطية ، فاعجب به الخليفة المستعين في سامرا ، وعظمت منزلته عنده ، حتى لقد طلب اليه ، حين خلع نفسه من العرش سنة ٨٦٦ ، ان يحرسه في طريقه الى منفـــاه بواسط . ولكن احمد ترك الخليفة لجلاده ، ورجع ادراجه الى العاصمة ، حيث كان الخليفة الجديد [المعتز] منهمكاً في اغداق الجوائز والهبات على انصاره الذين ايدوه فيما احدث من انقلاب . وكان بايكباك ، زوج ام أحمد ، في جملة هؤلاء . والواقع ان احمد قد مكن لنفسه في مصر تمكيناً حمـل يارجوخ التركي ، الذي خلف بايكباك في امتلاك البلاد [واختيار اميرها] ، على ان يثبته في عمله ، ويسعى الى توثيق العلاقة معه

بتزويجه احدى بناته. حتى اذا كانت سنة ٨٧٣ وصارت مصر الى جعفر ابن الخليفة المعتمد ، بوصفها جزءاً من نصف الامبراطورية الغربي، قنعت نفسه بمبلغ من المال [بينا بقي احمد مستأثراً بالسلطان].

واحتفظ ابن طولون في السنوات القليلة الاولى من حكمه بمدير للمال مستقل ، هو احمد بن المدبّر الذي سبق له ان نهض بأعباء هذا المنصب في البلاد منذ سنة ٨٥٦ . ولما كان ابن المدبر قد استثار كراهية الناس له بما فرض عليهم من ضرائب واقامه من ضروب الاحتكار التي أنقضت ظهر الحياة الاقتصادية، في كثير من شعبها، كما استثار مخاوف الحكومة المركزية بسبب بما تم له من ثروة ضخمة وجاه عريض ، فقد نجح ابن طولون في حمل حكومة بغداد على استدعائه ، على الرغم من ان مركز العامل الذي تعينه بغداد ظل قائماً بعد ذلك دهراً طويلاً . ومع الايام تخلص ابن طولون من سلطان العامل ، من طريق جزية معينة كان يؤديها اليه . حتى اذا عهدَ اليه الخليفة المهتدي في إخضاع عامل فلسطين المتمرد على الدولة، ومنحه صلاحية تنظيم جيش من المماليك، اغتنم هذه الفرصة لأنشاء جيش مستقل اتسع نطاقه يوماً بعد يوم. وإنما اخذ هذا الجيشَ بأقسى النظام ، رغبة منه في شد عناصره المتباينة ، بعضها الى بعض ، برباط محكم . وكان من ابرز هذه العناصر فريق الروم الذي بدا خطره حتى في عهد ابن طولون نفسه ، ثم تعاظم في عهد خلفائه ، بصورة مُريعة ، بعد ان فاق العناصر الاخرى عدداً . ومن ثم صار في وسع ابن طولون أن يحتفظ لنفسه بثروة البلاد ، وقوامها الزراعة وصناعة النسيج

المزدهرة ، وان ينمي هذه الثروة في اطراد ، من غير ما إساءة الى الحياة الاقتصادية العامة . أما شؤون العدل فكانت ، وفقاً للعادة التركية ، منوطة بقضاة يعينهم هو ، وبذلك كان جائزاً أن يظل منصب القاضي شاغراً ثماني سنوات متلاحقة . والحق ان غنى القطر المصري قد يسر له مضاهاة الخليفة في أبهة البلاط وفخامته . فأنشأ ، على طراز سامرا ، مدينة جديدة ، اختطها شمال شرقي العاصمة المصرية القديمة الفسطاط (القاهرة القديمة) فوق رقعة من الارض أُقطعت لضباطه وموظفيه ، ومن هنا اسمها : القطائع . وكانت تسيطر على هذه المدينة الجديدة قلعته القائمة على الجرف الذي تكلله اليوم قلعة صلاح الدين . ولقد نقل الى مدينته هذه حضارة العراق وفنونها . وكانت هـذه ، كما اسلفنا ، مزيجاً من العناصر الفارسية والهلـينية .

وعندما استبد الموفق على اخيه ، بعد ان قام بأمر الدولة مدة ، بذلَ غاية الجهد لتدعيم سلطة الحكومة المركزية في مصر ايضاً . ومع ان احمد بن طولون وافق على ان يزيـد مقدار الجزية بعض الشيء ، فقد ابى الانصياع لما أمره به الموفق من التخلي عن منصبه لامير سورية ، أماجور . ليس هذا فحسب ، بل لقد تقدم هو نفسه الى سورية ، عقب وفاة أماجور سنة ٨٧٧ ، حيث اخذ يبين الطاعة لنفسه . وإذ كان الموفق ما يزال في شغل شاغل بأمر الزنج في العراق فقد اضطر إلى ان يدع ابن طولون يتابع سيره على سورية ، في هدوء . ثم إن لؤلؤاً ، الذي كان ابن طولون قد خلّفه أميراً على سورية فضرب في اثناء امارته هذه نقوداً باسمه — بدا له ان يخرج على

مولاه سنة ٨٨١ ، مخافة ان يسلبه منافسه جزءاً من اراضيه، في ما يظهر ، فانضوى تحت راية الموفق. فلم يكن من ابن طولون إلا أن دعا الخليفة إلى تحرير نفسه من وصاية أخيه ، والأقبال عليه في مصر . ثم انه توجه الى سورية ، حيث كانت الثورة قد اندلعت نارها على الحدود البيزنطية . وحاول الخليفة المعتمد ان يفرّ من الرقة ليلحق به ، فحيل بينه وبين ما حاول، في اللحظة الأخيرة. وكان ابن طولون أبعد ما يكون عن التفكير في حرب الموفق إرضاء للخليفة . ومع ذلك فقد أعلنه العداوة بأن قطع الخطبة له كولي للعهد. فكان جواب خصمه عن هذا التحدي أن أمر بلعنه في المساجد . ولكن الموفق أيضاً كان أميل إلى الأخـذ بتسوية سلمية للخلاف ، ومن أجل ذلك رفض أن يقدم للؤلؤ [18] ، عتيق ابن طولون، جيشاً يغزو به مصر. ليس هذا فحسب ، بل لقد شرع في المفاوضة مع أحمد ، ولكن المنية عاجلت هذا الاخير، في شمالي سورية ، (آذار سنة ٨٨٣) قبل أن تنتهي المفاوضات الى اتفاق.

واضطُر العباس، ابنه الاكبر، الذي سبق أن ثار عليه يوماً، والذي كان بغيضاً للجيش بقدر ما كان بغيضاً لبطانة أبيه، إلى أن يقسم يمين الولاء لأخيه الأصغر ، خُمـارَوَيه ، وكان ذلك آخر العهد به. واعتقد الموفق أن من اليسير جداً التغلب على هذا الامير الغرّ فقطع مفاوضات الصلح . والواقع ان عامل الموصل من قبل احمد بن طولون انضمّ إلى عامل دمشق ، وأبى أن يُقسم لخمارويه يمين الطاعة فتصدّت له قوات خمارويه واوقعت بجنوده هزيمة

(١٨) وكان الموفق مديناً له في إخضاع الزنج .

اولية، فيما كانوا يعسكرون على العاصي حتى ينسلخ فصل الشتاء. بيد ان الموفق ما لبث أن بعث بابنه احمد - الخليفة المعتضد في ما بعد - على رأس جيش لنصرة الثائرين، فمني المصريون بهزيمة شديدة. وإذ لم يكن في ميسور احمد وحليفه أن يتفقا على قسمة الغنائم، فقد أمسى أحمد وحيداً في الميدان - بعد أن تخلى عنه حليفه - وليس معه في ما يظهر غير اربعة آلاف رجل. وفي هذه الاثناء (ربيع سنة ٨٨٥) سار خمارويه إلى فلسطين على رأس سبعين الف مقاتل استوفوا حظهم من الراحة، واشتبك مع جند الخلافة في معركة دارت في مكان يُدعى الطواحين قرب الرملة. ولم يلبث خمارويه أن أدرك أنه خسر المعركة، بالرغم من تفوق جيشه العددي، فرجع أدراجه إلى مصر. ولكن خصمه لم يحسن الافادة من النصر الذي تمّ له. فلم يكد يصطدم بمقاومة جديدة حتى رجع ادراجه إلى دمشق. حتى إذا لم يُلاق فيها حفاوةً ما، سار إلى طرسوس. وإذ اصطدم بمقاومة هنا أيضاً غادر الميدان كله لخمارويه. وهكذا أصبح في وسع خمارويه أن يتفرغ لحرب خصومه الآخرين في سهولة ويُسر. وفي سنة ٨٨٦ عقدت بين الفريقين المتنازعين معاهدة صلح ضمنت للطولونيين الولاية على مصر وبلاد الشام والثغور طوال ثلاثين سنة، مقابل جزية هزيلة يؤدونها. وفي خلال السنوات الاربع التالية وقعت بين خصوم خمارويه السابقين منازعات افسحت أمامه مجال التوسع، حتى لقد ضم الى سلطانه الموصل أيضاً. وفي سنة ٨٩١ توفي الموفق؛ وبعد عام مضى على أثره الخليفة المعتمد؛ فخلفه احمد بن الموفق متخذاً لقب المعتضد بالله. وعقد خمارويه مع المعتضد

معاهدة جديدة مَهرَها بزواج ابنته [قطر الندى] من الخليفة، على الرغم من ان هـذا الزواج لم يتمّ فعلاً إلا بعد سنتين (٨٩٦) عندما جازت الاميرةُ سنّ الثانية عشرة. والواقع أن أبهة الجهاز الذي جهّز به أميرُ مصر بنتَه أذهلت بلاط بغداد، الذي اعتاد منذ فترة غير قصيرة حالاً هي اقرب الى الضيق منها الى السعة، ودعت الى رواج إشاعـة تقول بأن الخليفة لم يُقبـِل على هذه المصاهرة مع خمارويه إلا ابتغاءَ إفقارِه . وليس من شك في ان إسراف خمارويه استهلك جزءاً كبيراً من ممتلكاته . حتى لقد آل أمر الطولونيين الى الضعف بُعَيْد مقتله في دمشق ، اوائل سنة ٨٩٦، لأسبابٍ تتصل بفضيحـة نسائية على ما يظهر . ولم يكد خلَفُهُ ، ابو الجيش ، ينهض بعبء الحكم من بعده حتى خلَعهُ أخوه هرون قبل ان تنقضي تسعة أشهر على ولايته . ولم يكن هارون بقادرٍ على ان يقاوم، مقاومةً فعالةً ، جيوش القرامطة التي شرعت تعيث في سوريا فساداً . وعندئذ التمس الدمشقيون انفسهم من الخليفة المكتفي (وهو الذي ارتقى العرش بعد المعتضد) أن يُنجدهم بجنوده . حتى اذا اعاد المكتفي الأمنَ الى نصابه في تلك الديار ، لم يبقَ من مبرر للأبقاء على الطولوني المستضعَف . وفيما كان اسطول من السفن الحربية يبحر من قيليقية الى الدلتا كانت الجيوش العراقية تتقدم الى مصر عبر فلسطـين . فلما سقطت دِمياط ، قتل هرونَ انسباؤه في مقره بالعبّاسة ، ٣٠ كانون الاول سنة ٩٠٤ . وفي ١٢ كانون الثاني ٩٠٥ ، سقطت الفسطاط . اما « القطائع » التي بناها أحمد فدكت دكاً، وسيق

الباقون من افراد اسرته الى دار الخلافة ، بغداد .

جامع ابن طولون

وبدت ايام الطولونيين ، بالنسبة الى ما حققه مَن خلَفهم في الحكم ، عهداً ذهبياً في اعين الاجيال اللاحقة . فحسُنت احوال الناس المادية وازدهرت ازدهاراً فائقاً بفضل سياسة احمد المالية الرشيدة ، التي ازالت كثيراً من المظالم ووضعت ، فوق كل شيء ، حداً لاستغلال البلاد لمصلحة المستثمرين الغرباء . ومع انه لم يسلم لنا ، بسبب من تدمير مدينة القطائع ، اي من منشآت خمارويه العمرانية الفخمة ، فقد حفظت لنا الأيام جامع ابن طولون ، الذي شيده احمد مؤسس الدولة الطولونية ، في غضون سني ٨٧٦-٨٧٩ والذي لا يزال يكشف لنا بوضوح ، على الرغم مما انزلته به يد الزمان من اذى ، عن حقيقة النشاط الفني في ذلك العهد ومداه. وانما شيد ابن طولون جامعه هذا على طراز جامع سامرا الكبير ، وان تكن سعة الاول لا تعدو نصف سعة الآخر . فثمة خمسة صفوف من الدعائم تخترق صحن الجامع الرئيسي ، واحد منها اليوم في حال خربة ، في حين تخترق ساحاته المحاذية نافذتان ذواتا اقواس مدببة واعمدة صغيرة في الزوايا مندمجة في الحائط بين الدعائم والجدران الخارجية . وتتألف هذه من الآجر ، وهي مغشاة بجص زينت سطوحه البيضاء بحواش مخرمة . وبالاضافة الى النوافذ ترى حنيات مدببة متوجة باكاليل متعددة الزخارف بارزتها . ومن الحائط ينبثق المحراب ، ولا تدخل نصف دائرته الا خطوتين في الحائط . وتحيط بثلاثة من جوانبه ، بين جدرانه والسور الخارجي ،

أروقة مكشوفة تسمى الزيادات ، تقيه من عابري السبيل . اما المئذنة – وهي نسيج وحدها في فن العمارة الاسلامية – فقد انشئت على طراز سامرّاويّ . وهي تنهض خارج الجامع ، في طرفه الشمالي . والواقع ان بناءها القائم من الحجارة الكلسية لايتكشف عن الشكل اللولبي المألوف في العراق ، ولكنه مفرغ في صورة مربع كأبراج الفرس المجوسية القديمة [19] .

ظهور الزيدية في جنوب بلاد العرب

ولئن كان في استطاعة حكومة بغداد أن تفتح مصر من جديد ، بعد ان استقلت عنها زهاء اربعين سنة ، لقد فقدت بالكلية ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، سلطانها على بلاد العرب الجنوبية . ففي ذلك الاقليم النائي من الامبراطورية ، عجز الاسلام عن تعديل الأحوال الاجتماعية والسياسية تعديلاً جوهرياً كاملاً . ذلك ان الحكام الارستوقراطيين ظلوا يحتفظون بقلاعهم ويفرضون سلطتهم على مناطق نفوذهم ، كما كانوا يفعلون عهدَ سبأ وحمير ، من غير أن يجدوا معارضة من ممثل الخليفة في صنعاء ، ما داموا يؤدون نصيبهم من الجزية في شيء من الاطراد . ولقد ترك لنا احدُ هؤلاء الحكام المحليين – وهو الحسن الهمْداني الذي توفي في سجن صنعاء سنة ٩٤٥ بعد اشتباكات متلاحقة مع القوى السياسية المسيطرة على طبقته الارستوقراطية – صورةً عن موطنه المستغرق

---

(١٩) انظر ديز E. Diez, *Die Kunst der islamischen Völker*, 44 ff.

وانظر ايضاً زكي محمد حسن *Les Tulunides, Etude de l'Egypte Musulmane à la fin du IX siècle*, 868 -905, Paris, 1933.

في الافتخار بأمجاده الثقافيـــة القديمة التي ليس لايّ من الأقاليم الاسلامية ما يضارعها ، وذلك في كتابيه « الأكليل » و « صفة جزيرة العرب » . والحق ان الحكومة العباسية قد رأت من الخير ، فترة من الزمان ، ان تشجع نشوء القوى المحلية إلى جانب عمالها الرسميين. يدلك على ذلك أن المأمون ، بعد ان أخفقت سياسته العلوية ، وجّه إلى بلاد العرب الجنوبية قوات خراسانية تحت قيادة جندي مجرّب اسمه محمد ، وكان يدّعي النسبة الى زياد ابن أبيه اخي معاوية لأبيه وأمير العراق ، فوفـّق محمدٌ هـذا الى اخضاع المقاطعات الساحلية حتى الشِّحْر في حضرموت ومشارف البلاد لسلطانه ، في حين ظلت الاراضي الجبلية خاضعة للحاكمين في صنعاء . ومن مقره في زَبيد استطاع هو وأعقابه أن يحتفظوا بسلطتهم في البلاد طوال مائة وخمسين عاماً ، وإن لم يستقر لهم الأمر دوماً . ومهما يكن من شيء ، فقد كبحت سلطة خلفه الثاني كبحاً شديداً على يـد يَعْفُر بن عبد الرحمن ، أحد الاشراف المحليين الذين شقوا عصا الطاعة على عامل المعتصم . ولقد استطاع يعفر من مقرّه في شِبام أن يبسط سلطته في اتجاه الجنوب ، في حين وُفق ابنه الى حمل الحكومة المركزية على الاعتراف به أميراً على صنعاء . ولم يلبث العلويون أن أدلوا دلوهم بين الدلاء . فقد ظهر دعاة القرامطة ، وسيأتي ذكرهم قريباً ، في المناطق الجبلية النائية ، ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بمركزهم طويلاً ، وان لم ينقطعوا عن بث دعايتهم الدينية السياسية . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد نجح أحد أعقاب زيد بن علي في ان ينشيء لاسرته سلطة هناك استطاعت ان

تصمد لعاديات الاجيال والقرون ، ولا تزال الى اليـوم تؤلف عنصراً قوياً في تاريخ بلاد العرب . فبعد ان اخفقت المغامرة التي نهض زيد بعبئها، في العراق، ابتغاء القضاء على سلطة الخليفة الاموي هشام، انسحب اعقابه الى المقاطعات الواقعة في اطراف الامبراطورية. واتفق ان كان اشراف طبرستان ومازندران على الساحل الجنوبي من بحر قزوين يتلمسون زعيماً يسندون اليه امورهم تخلصاً من جور الامراء من آل طاهر . فوضع الحسن بن زيد ، احد حفدة زيد بن علي، نفسه في خدمتهم . وكان ينزل في مدينة الري، ويمتاز من اجداده بقوة العزم وبراعة السياسة . ولقد وُفق هو واعقابه ، الى أن يثبتوا هناك مدة تزيد على نصف قرن (٨٦٤ – ٩٢٨) حفلت بالحروب المتطاولة. كذلك ظهر من اعقاب زيد ، يحيى بن الحسين، حفيد القاسم بن ابراهيم، المعروف بالرَّسّي نسبة الى الرَّس، وعلقت عليه الآمال ، بسبب من علمه وورعه ، في ان يبعث اثناء امامته امجاد البيت [العلوي]. حتى اذا تبين له، بعد زيارة قام بها لابناء عمومته في طبرستان، أن من المتعذر عليه ان يمكّن لنفسه هناك، وجه انظاره نحو بلاد العرب الجنوبية حيث كانت الفوضى ضاربة اطنابها ، وكان خبر هذه الفوضى معروفاً في المدينة . وفي ١٦ آذار سنة ٨٩٧ ظهر وخمسين رجلاً ليس غير أمام ابواب صَعْدَة وهي الموقف الرئيسي القائم على طريق الحاج بين مكة وصنعاء، والباعد عن الاخيرة مسيرة خمسة ايام فقط. ومن هناك دعا الناس، بوصفه الامام الهادي الى طاعه آل الرسول. وكما ساعدت الحزازات القبلية ، التي دعي الرسول الى ازالتها، على تدعيم مركزه كزعيم

المدينة ، فكذلك وفق الهادي الى اكتساب عدد متزايـــد من الاتباع بسبب من الحكومة التي اصلح بها ما بين المسلمين والنصارى في أسقفية نجران القديمة ، اولاً ، وما بين القبائل الضاربة في تلك المنطقة ، في ما بعد. ولكن سلطته ظلت مقتصرة على صعدة وما جاورها ، لان القرامطة ورجال الدولة اليعفرية في جنوبي البلاد كانوا ينازعونه نفوذه هناك. ومهما يكن من امر ، فقد ترك الهادي لابنائه ، بعد أن توفي في ١٨ آب سنة ٩١١ ، مركزاً مكيناً لم يلبثوا ان انطلقوا منه وبسطوا سلطانهم على البلاد كلها [٢٠] .

القرامطة

وفي عهد الخليفة المعتضد ، الذي خلف أباه الموفق في تدبير أمر الدولة سنة ٨٩١ ثم خلف عمه على عرش الخلافة بعد عـام ، أصابت البلاد المحيطة بقلب الامبراطورية هزة جديدة سببتهـا حركة دينية سياسية خطيرة. فقد كان شائعاً في الاوساط الشيعية ان كل ما يعانيه العالم من جور سوف ينقضي عندما يظهر المهدي ، وهو الامام الاخير ، الذي ما فتىء يحيا في الخفاء ، فيملأ الارض عدلاً ورحمة . حتى اذا اخفقت جهود آل عليّ المتلاحقة في سبيل الثورة على النظام القائم ، تعلقت آمال اتباعهم بانقضاء العالم في وقت قريب . وبينـا كان فريق منهم – وهو الذي لم يتحقق بالقوة السياسية الا في ما بعد – ينتظر ظهور هذا المهدي في شخص الامام الثاني عشر ، انحصرت آمال الفريق الآخر في الامام السابع ،

---

(٢٠) راجع فان آرندونك C. van Arendonk, *De opkomst van het zaidietische imamat in Yemen*, Leiden, 1919.

اسماعيل، الذي توفي سنة ٧٦٢، قبل والده جعفر الصادق نفسه.
والواقع ان هذا الحادث، والى حد ابعد، تلك الصفة المقدسة التي كان يتمتع بها العدد «سبعة» في بلاد المشرق، هما اللذان، هيئا من غير شك لهؤلاء «السبعية» أساس مُعتقدهم. ثم اضيفت الى هذا، العقيدة الايرانية القائلة بالنعمة اللدنية، والنظريات الغنوستية التي تعود بأصلها الى النساك، وعناصر من الفلسفة اليونانية واخرى من المانوية – ديانة الطبقة المختارة – لتُصهر في عقيدة باطنية تتلاءم مع الميل المعروف في الشرق الى تأسيس الجمعيات السرية – ذلك الميل المتوارث عن جنس الشرق الادنى، والذي كثيراً ما استغله المحرضون طمعاً في الوصول الى مآربهم السياسية. وانما وجدت هذه المعتقدات تعبيرها الادبي، بعد قرن من الزمان، في ما كتبه اخوان الصفاء من رسائل هي اقرب شيء الى ان تكون موسوعة فلسفية. ولقد نشأ القرامطة كفرقة، اول ما نشأوا، في العراق سنة ٨٩٠ في المنطقة المحيطة بواسط، حيث اخمدت ثورة الزنج قبل ذلك بقليل. فهناك انشأ رجل يدعى حمدان قَرمط (لعلها كلمة آرامية معناها «المعلم السرّي») مركزاً لاتباعه دعاه، على غرار النبي، «دار الهجرة». وانما دعيت الفرقة كلها «القرامطة» نسبة الى لقبه «قرمط». والواقع ان الالفة (وهي الشركة في الاموال) سادت في هذه الخلية الاولى من خلايا تلك الحركة. فكان المريدون يقيمون «ولائم محبة» يتناولون فيها «طعام اهل الجنة» [البُلغة] متبعين في ذلك، على الارجح، مَثل فرقة الصابئة الغنوستية الأصيلة في تلك الديار منذ

القدم. ليس هذا فحسب ، بل ان بعض الروايات لتذهب الى ان عَبْدان، وهو صهر حمدان، قد وضع كتاباً شرح فيه طريق المريد او الناجب الى بلاغات الفرقة السبعة . والغاية من هذه البلاغات السبعة التي رُفعت بعد الى تسعة ، ان تنتهي بالمريد الى ان يؤمن – من طريق الدراسة الدقيقة لمعتقده الديني – بان جمال العقيدة الكلي لمّا ينكشفْ له بعد ، ومن ثمّ الى ان يشك في آساسها . وبذلك يصبح خاضعاً لسلطة الامام المستتر وممثليه الذين بقيت اشخاصهم مكتومة عنه دوماً ،ويعلـّم ان كل ما اوحي به سابقاً من تنزيل وشرائع دينية انما يمثل حجاباً لمعنى باطني لا يدرك الا بالتأويل، ليس غير. حتى اذا أعدّ المريد هذا الاعداد أُخذ اخيراً بالطاعة العمياء للجماعة ولرؤسائه، وحرر من جميع القيود العقائدية، ومن جميع اغلال القانون ، في وقت معاً . ثم ان احد الرئيسين [صاحب الناقة]* اللذين كان من المفروض ان يكونا مستقرين خارج السواد [العراق]، استبدل بعبدان داعية اعظم نشاطاً منه هو زِكْرَوَيه الدِنداني ووجّهه الى سورية. فنجح سنة ٩٠٠ في تحريك الاعراب من بني العُلَيْص للانتفاض على الدولة الطولونية التي كانت قد انتهت آنذاك الى حال من الضعف بعيد جداً . ونودي [بصاحب الناقة] خليفة [وتسمى بأمير المؤمنين] ابي عبدالله محمد وزعم انه من نسل علي . وعاث القرامطة فساداً في جميع المدن السورية ، ولم تسلم من وحشيتهم وتصمد لحصارهم غير دمشق وحدها. وفي سنة ٩٠١ توفي خليفتهم، فقام بالامر من بعده اخوه

---

* والآخر صاحب الظهور (المعربان).

عبد الله احمد [صاحب الخال] ، ولكنه لم يلبث أن أسر ، بعد عامين ، وقتل في بغداد . وما هي إلا فترة قصيرة حتى قتـــل زكرويه أيضاً . وكانت حكومة بغداد قد مكنت لنفسها في سوريا بعد أن تم سقوط الطولونيين ، وبذلك صار في ميسورها القضاء على حركة القرامطة هناك ، وفي العراق .

ولكن القرامطة وفقوا إلى فوز راسخ في بلاد العرب . فحوالى سنة ٨٩٤ بعث صاحب الناقة أبا سعيد الحسن بن بَهرام الجَنّابي إلى الأحساء في منطقة البحرين على الخليج الفارسي. فنجح هذا ، بمساندة الاعراب من قبيلة عبد القيس ، في انشاء دولة مستقلة هناك جعل عاصمتها المؤمنية بدلاً من هَجَر ، العاصمة القديمة ، وهي الهُفوف اليوم. وإنما حكم هو وخلفاؤه في تلك الديار بوصفهم مفوضين من قبل الإمام المستتر ، واعتبروا في كثير من الفطنة التقليد الاعرابي القديم ، فسمحوا لشيوخ القبائل بأن يشاركوا في اتخاذ المقررات السياسية . والواقع أن ابن أبي سعيد وخليفته أغار على العراق أكثر من مرة فسلب ونهب ، كما أغار على قوافل الحج (٩١٤-٩٤٣) . ليس هذا فحسب ، بل لقد استولى في ١٢ كانون الثاني سنة ٩٣٠ على مكة نفسها ونزع الحجر الاسود من الكعبة وأنفذه إلى عاصمته بالاحساء حيث ظل طوال ثلاثين سنة . أما محاولات القرامطة تثبيت أقدامهم في جنوبي بلاد العرب فكانت أقل حظاً من النجاح ، كما أسلفنا [٢١] .

---

(٢١) راجع دي غويه M. J. de Goeje, *Mémoire sur les Carmathes de Bahrain*, 2 nd edition, Leiden, 1880.

وراجع ايضاً لويس B. Lewis, *The Origins of Isma'ilism*, Cambridge, 1940.

واستغرق هذا النضال ضدالقرامطة عهد الخليفة المكتفي بن المعتضد بأطوله (٩٠٢ – ٩٠٨) . [حتى اذا توفي] حاول وزيره العباس بن الحسن [بن أيوب] الجَرْجرائي (وكان قد استبد في أيامه بجميع السلطات في الداخل، من غير أن يحسن يوماًاصطناعها في براعة) أن يمد في عمر وزارته من طريق اختيار جعفر،أخي المكتفي ، لخلافة المسلمين وولاية أمرهم ، متخذاً لقب المقتدربالله وهو بعد صبي في الثالثة عشرة . بيد أن خصوم الوزير ما لبثوا ان ائتمروا به وقتلوه.ثم خلعوا المقتدر وبايعوا عبد اللهبن المعتز . وكأن نكد الطالع أبى إلا أن يكون مصير عبد الله هذا كمصير ابراهيم بن المهدي قبل تسعين عاماً . ذلك بأنه أفرغ همته ، وهو في ميعة الصبا ، للعلم والشعر فعلَ ابراهيم من قبله . وكانت تترقرق على شعره أناقة ارستقراطية تجري على أساليب المحدثين ، وأسلوب أبي نواس بخاصة ، وتهفو بين الفينة والفينة إلى تقليد الشعراء الأقدمين . والحق أن الترف الذي كان لا يزال طاغياً على أوساط البلاط ، لذلك العهد ، رغم ما أصاب الدولة من ضعف سياسي ، كثيراً ما تجلى في شعره عن طريق الأناقة اللفظية . ولكنه كان إلى ذلك أول من تغنى بمآتي ابن عمه الخليفة المعتضد في قصيدة بطولية كثيراً ما سقطت إلى درك أرجوزة تسجل الحوادث وتسردها . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان أول من حاول أن يجمع في نظام واحد شتات الملاحظات التي أبداها بعض اللغويين المتأثرين بالفلسفة اليونانية ، في ما يتصل بالبديع ،

والتي ضمنوها عدداً كبيراً من شروحهم للدواوين الشعرية .
كذلك عني ابن المعتز عناية بعيـــدة بتاريخ الادب ، فوضع اول تاريخ للشعر المعاصر * . اما مدى انغماس هذا الشاعر في مناعم العيش وملذاته فيتضح لنـا من كتابه الذي ألفه في آداب الشراب والخمر ** . ومهما يكن من امر ، فلم يكد هذا الامير ، القليل الحظ ، يرتقي عرش الخلافة حتى خلعه انصار المقتدر في اليوم نفسه ، وعلى رأسهم مؤنس الخادم (وقد عاد حديثاً من مكة ، وكان قد نفي اليها بعد ان خدم المعتضد صاحباً للشرطة) . واستطاع مؤنس ورجاله ان يردوا هجمات اصحاب الخليفة المنافس عن دار الخلافة في القصر الحسني *** وان يفوزوا بالنصر بعد ان هاجموهم واشتبكوا معهم في معركة دارت في شوارع المدينة . وهكذا اضطر عبد الله الى ان يلتمس النجاة في بيت صديق له جوهري ، حيث قتل في ٢٩ كانون الاول سنة ٩٠٨ بعد اثني عشر يوماً من استخلافه . وحاول مؤنس ان يستغل نفوذه عند الخليفة الحدث ، [المقتدر] ليضمن لنفسه المكافأة على ما اسداه اليه من خدمة ، ولكن الوزير [أبا الحسن] بن الفرات كثيراً ما حال بينه وبين النجاح في تحقيق اغراضه . والواقع ان المقتدر نفسه سعى مرتين للتخلص من هذا الرجل [أي ابن الفرات] الذي اساء الى الدولة اساءة كبرى بجشعه وعدم كفايته . ولكنه كان يعاود في كل مرة تسنم المنصب

* « طبقات الشعراء » (المعربان)
** « الجامع في الغناء » (المعربان)
*** نسبة الى الحسن بن سهل . (المعربان)

الذي أُقصي عنه، حتى اذا استرد منصبه للمرة الثالثة وُفق المقتدر الى قتله وقتل ابنه المُحَسِّن في ١٨ تموز سنة ٩٢٤ .

مالية الدولة في عهد المقتدر

ان معرفتنا بمالية الدولة في ظل المقتدر لتقوم على اساس صورة وصلت الينا عن موازنة سنة ٩١٨ – ٩١٩ . فعلى الرغم من ان معظم الولايات استقلت عن بغداد بالكلية فقد واصلت اداء الجزية اليها بمقادير ضخمة . وكانت الولايات الشرقية، في السنوات الاولى من الحكم العباسي ، تؤدي ما يتوجب عليها من الجزية فضة، في حين كان النقد الذهبي سائداً في البلدان التي سلخت عن الامبراطورية الرومانية، حيث مناجم الذهب المستثمرة منذ العصور القديمة . ثم ان الذهب المتدفق على بغداد ما لبث ان أخذ سبيله الى المشرق ايضاً، فاذا بالفضة تفقد ما يزيد على نصف قيمتها النقدية الاصلية . حتى اذا دب الضعف في جسم الحكومة المركزية استعاد النقد الفضي مكانته شيئاً بعد شيء . ففي عهد المقتدر لم يقرّ للخليفة بالسلطان الفعلي الا في العراق وخوزستان وفارس والجزيرة الفراتية وسورية ومصر ، في حين لم يقرّ له بالسيادة المباشرة الا في عُمان وآذربيجان وارمينية . وبينما كان العراق يقدم لخزانة الدولة، من طريق الخراج والرسوم المفروضة على الملاحة والانهار والمكوس ١،٥٤٧،٧٣٤ ديناراً [٢٢]، والولايات الشرقية تقدم ٦،٢١٣،٢٨٣ ديناراً ومصر وسورية تقدمان ٤٩٢و٧٤٦و٤ ديناراً، كان على الخليفة ان

(٢٢) كان الدينار يعادل ، لذلك العهد ، ما يزيد على ستة عشر درهماً من الفضة .

يكتفي برقم اجمالي لا يتجاوز ٢٢٦،٣٧٠ ديناراً من آذربيجان وارمينية . تضاف الى هذا كله ١،٧٦٨،٠١٥ ديناراً من موارد الضياع والاوقاف . اما ابواب النفقات الواجبة التغطية فكانت تنتظم العناية بالمدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وطرق الحج ، وتحصين الثغور والتخوم ، ورواتب القضاة ، والمحتسبين (ولاة الحسبة) ودواوين النظر في المظالم ، وأصحاب البريد في جميع الولايات . ولكن المبالغ العظمى هي التي كانت تُنفق على بلاط الخليفة وجنده ، ومع ذلك فكثيراً ما كان في استطاعة الخلفاء وذوي قرباهم أن يجمعوا ثرواتٍ طائلة . ففي ابتداء عهد المقتدر وُجد في بيت مال سلفه خمسة عشر مليون دينار كان قد جمع المعتضد وحده تسعة ملايين منها . ومهما يكن من شيء ، فكثيراً ما كانت الموازنة تُختم بعجزٍ . وإذ كان من المتعذر تغطية العجز من طريق القروض ، كما هو الحال في الدول الحديثة العصرية ، فقد جرت العادة بأن تجمع المبالغ المطلوبة على شكل غرامات مالية تفرض على المثرين ، وهم في الأعم الأغلب من الموظفين الذين كانوا بدورهم يبتزون أموال الشعب دون حساب . وكان هذا الاجراء من الالفة عندهم بحيث اتخذوا له اصطلاحاً قانونياً خاصاً هو « المصادرة » . ففي سنة ٩١٤ صادر المقتدر ثروة أحد الصاغة ، وتقدر بأربعة ملايين دينار . ولم تكن الغرامات المالية المراوحة بين الخمسين الف دينار والمئة الف دينار أمراً نادر الحدوث . ولقد نتج عن عدم الامان هذا الذي تعرضت له الثروات النقدية أن صار امتلاك الاراضي والضياع ، بطبيعة الحال ،

وسيلة الى تشغيل الاموال مرغوباً فيهـــا ، خاصة وان الخراج المفروض عليهـا كان ضئيلاً ، نسبياً . وكانت الأراضي التي يملكها الحكام المحليون غير خاضعة ، في الجملة ، للضريبة، وفي بعض الاحوال كانت تؤدي ضرائب محدودة . وكان الأثرياء كثيراً ما يقفون ممتلكاتهم للفقراء ، وللدفاع عن ثغور الدولة وتخومها ، وللمدينتين المقدستين ، وما الى هذا كله من ابواب البر ، وبذلك يتخلصون من اداء الضريبة عن هـذه الممتلكات ، ويقونها غائلة المصادرة . وكان الواقف يحتفظ لنفسه بادارة ما وقفه من ممتلكات ، حتى اذا توفي انتهت الادارة الى اكبر ابنائه ، وهكذا .

ولقد نشأت في مصر ، عن هذه الاوقاف ، أوقاف ذرية صحيحة . والحق ان ام المقتدر نفسها حاولت ان تحافظ بهذه الطريقة على ما كانت تملكه من أراضٍ ، ولكنهـا لم توفق الى ما أرادت . وتفصيل ذلك انه بعد وفاة ابنها ، استُخلف القاهر ، وهو أخو المقتدر لأبيه ، فسعى الى حملها على الاعتراف بحل أوقافها العظيمة ، ولكنها امتنعت عن ذلك ، في عناد ، فلم يكن منه إلا أن احضر القاضي والعدول وأشهدهم على نفسه انه قد حل أوقافها جميعاً . بيد ان خزانة الدولة اصيبت بأعظم الأذى حين لجأ الخلفاء ، بسبب من ندرة النقـــد في ايديهم ، الى دفع أرزاق جنودهم بأقطاعهم الأراضي ، كما وقع لأول مرة في عهد القاهر . أما في الولايات فقد فُصل فصلاً دقيقاً ما بين السلطة العسكرية والشؤون المالية ، كما سبق أن اشرنا . وكان العمال المعاونون للأمراء في حكم الولايات يتعهدون بأن يقدموا الى الحكومة المركزية مقادير بعينها من المال

كضريبة تدفعها الولاية الى خزانة الدولة ، ومن ثم يعملون على ان يجمعوا هذه المقادير من جمهور السكان ، ويجمعون مقادير اضافية معها تكون بمثابة ربح شخصي لهم . وكان مساعدوهم يطبعون على غرارهم في ذلك . أما إذا وفق احد الامراء إلى ان يسيطر على الإدارة المالية أيضاً ، كما تم لاحمد بن طولون في مصر ، فعندئذ يكون سلطانه قد أوفى على الغاية . ومع الايام اضطر الخلفاء ، بسبب من حاجتهم الى المال ، الى تقليد القواد الاتراك جباية الخراج في مناطق واسعة في العراق لكي يجمعوا منها ارزاق جنودهم ، ولذلك فقدت خزانة الدولة موارد تلك المقاطعات . حتى إذا ذهب الخلفاء الى أبعد من ذلك فصاروا يعمدون الى دفع أعطية القواد الصغار والجند بالطريقة ذاتها ، منيت الخزانة العامة باضرار تجل عن الوصف . ذلك بأن الاقطاعيين الكبار كانوا يصونون ، لمصلحتهم الشخصية على الأقل ، منشآت الري التي لابد منها لاحياء التربة واستثمارها احسن الاستثمار منفقين في سبيل ذلك نفقة ما تنقطع . اما الصغار منهم فكانوا يسومون فلاحيهم سوء العذاب ، حتى إذا استنزفوا آخر نقطة من مواردهم اعادوا الارض الى الحكومة وطالبوا باقطاع اغنى وأعود [٢٣] . ومهما يكن من أمر فقد كانت الحياة محفوفة بالمخاطر ، يعوزها الامن والطمأنينة ، لا في الارياف

(٢٣) راجع فون كريمر A. von Kremer, *Über das Einnahmebudget des Abbasiden - Reiches vom Jahre 306 H* (918-919), *Abhandlungen der Wiener Akademie*, 1887,

وراجع ايضاً بيكر C. H. Becker, *Steuerpacht und Lehnswesen*, *Islam* V, 81 - 92.

وحسب ، بل في حواضر العراق ايضاً. والواقع ان حرب الزنج وغارات القرامطة عملت على شل حركة التجارة والمواصلات سنوات متطاولة. أما ترف الطبقات العليا فلم يكن يعدله من حيث التطرف والتناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع ، على الرغم من الاقتصاد الذي اشتهر به الشرقيون ، وعلى الرغم من ان قوة النقد الشرائية كانت لا تزال على شيء من الارتفاع ، في ذلك العهد.

الصوفية والصوفيون

وكان مما يزيد في عنف الصراع الحزبي القائم بين الحكام ذلك التوتر الذي ساد علاقات الفرق الدينية والذي كان الدعاة يذكون ثاره ، على غير انقطاع. ولم يقتصر ذلك على مجرد الشقاق بين الشيعة والسنة. فقد كان الحنابلة المتحرجون ما ينفكون يثيرون الخلاف بين جماعات السنة انفسهم. ومن هنا حاول اصحاب النفوس الأكثر صفاء وعمقاً الفرار بانفسهم من صخب المنازعات حول المسائل السياسية الدينية والقضايا المذهبية ، الى « طمأنينة المشاهدة » . والحق أن هذه النزعة إنما ترقى الى عهد الامويين في العراق ، حيث عمل في هذا الاتجاه كل من الحسن البصري (ت ٧٢٨) في البصرة ، وجابر بن حيان الكيميائي الشيعي ، وأبي العتاهية الشاعر ، في الكوفة. حتى إذا أصبحت بغداد عاصمة الامبراطورية جمع المنصرفون الى حياة التأمل شملهم حلقات حلقات ، فهم يلقون الدروس العامة في مساجدها وفي الأوساط المختلفة الخاصة بهم ، وهم يحاولون ان يحركوا [في نفوسهم] الشعور الصوفي

ويصقلوه بواسطة السماع (الموسيقى). ليس هذا فحسب، بل لقد استعاروا من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء، التي عرفوا بسببها بالصوفية. كذلك يبدو الأثر النصراني واضحاً في شكل رياضات المشاهدة عندهم، ولكن اصول الحركة كانت عربيـة واسلامية خالصة. وانما تظهر اهدافهم الاساسية اوضح مايكون الظهور، في خطب الحسن البصري" اولاً، ثم في اعترافات [وصايا] المحاسبي الذي ولد في البصرة سنة ٧٨١، ونزل بغداد في سن مبكرة ليموت فيها سنة ٨٣٧. واذ قد الفى ان الاسلام في عصره يتشعب إلى فرق واحزاب متعددة فقد حاول بادىء الامر أن يلتمس لهذه الامة زعيماً دينياً فلم يفلح. ثم انه ادرك -كما أدرك صاحب الشريعة الاسلامية- أن ليس في ميسور المرء أن يحظى بخلاصه الروحي إلا خارج نطاق المجتمع المحيط به، وان الدراسة العميقة للقرآن خليقة بأن تكشف له عن الطريق القويم الذي يقوده إلى الله، إذا ما أخذ نفسه أخذاً شديداً بتعاليم الكتاب [القرآن] وتأسى بالنبي في كثير من الدقة والصرامة. ذلك أن شعور المرء بأنه قد حاز رضا الخالق من طريق اتباع أوامره اتباعاً دقيقاً يغمر روحه بالشكران ويبعث في ذات نفسه حب الله. وانما يجوز الصوفي في طريقه هذا أحوالاً ومقامات تقوده بالتوبة، والصبر، إلى الانس بالله، وأخيراً إلى مشاهدة الحق. ومثل هذه المحاولات لاتصال النفس بالله عن طريق غير منصوص عليها في السنة ما كان ممكناً أن تنجو من النقـد والاعتراض. وعلى الرغم من ان ما ذهب اليه المحاسبي لم يكن قد اعتُبر كفراً، بصورة علنية، فقد قال احمد بن حنبل بأن صلة هذه

الآراء وثيقة جداً بالطرائق العقلية التي يتبعها المعتزلة. ثم ان الصوفية تطورت تطوراً جديداً على يد الجُنَيد الذي تتلمذ، أول الامر، على خاله السريّ السقَطي وتعرف بواسطته إلى تعاليم معروف الكرخي الزاهد. ولكن هذه التعاليم البسيطة لم تستطع ان تحمل إلى نفس الجنيد ارتياحاً باقي الاثر. ليس هذا فحسب، بل لقد شجب نزعة استاذه الجديدة إلى أن يفرغ تعاليمه في ألفاظ الفقهاء. والواقع ان نقطة الدائرة في عالمه الفكري كانت محبة الله محبةً تستولي على المرء استيلاءً كاملاً تتلاشى معه النفس كلها بالذات العليا. ثم جاء تلميذ الجنيد، الحسين ابن منصور الحلاج، فطور هذه الفكرة التي كانت بمثابة النواة لكل حركة صوفية في ما بعد، من طريق التطبيق الصارم. وإنما ولد الحلاج في فارس، سنة ٨٥٨، من أبٍ زَرادُشتي. وفي تُستَر بخوزستان، دخل حلقة سهل التستري، وهو مفكر حر خلع على نظرية المحاسبي القائلة بضرورة الرجعة الى الله ثوباً من التقشف المستمر أمسى منذ ذلك الحين تقليدياً، وتحدث عن هالة النور التي تحيط (بطريقة سرية سابقة الوجود) بأرواح جميع المؤمنين وتمنحهم الحق في أن يشعروا أنهم في اتحاد بالله، وهي صورة مستمدة من بعض المعتقدات الشيعية. ولم تلبث العاصمة، بغداد، ان اجتذبت الحلاج بزهوها ورونقها، فقصد اليها ملتحقاً بالجنيد. حتى اذا صحبه نحواً من ست سنوات أغراه سهلٌ بالانفصال عنه بما أدخله في رُوْعه من انه قد انتهى الى حال الاتحاد بالله، تلك الحال التي كانت لاتزال هدفاً يتطلع اليه شيخه الجنيد. وهكذا انقلب داعياً يضرب في البلاد، وتقوده رحلاته حتى

الهند . ولقد اتصل خلال رحلاته هذه بالرازي ، أشهر اطباء العصر، فتخرج عليه في الفلسفة اليونانية . وتذهب بعض الروايات الى انه اتصل كذلك بزعماء القرامطة . وبعد أن أدى فريضة الحج للمرة الثانية قفل الى العاصمة سنة ٩٠٨ . وسرعان ما ازداد عدد تلامذته بسبب من عقائده الشطحية التي انتهت الى قوله بالاتحاد بالارادة الالهية من طريق الاقبال على الألم والوصول الى الروح الالهي بواسطة التقشف والزهد ؛ وهي حالٌ تسمح لصاحبها ، وهو الشاهد الالهي ، بان يساوي نفسه بالحق ، ومن ثم يرتفع عنه التكليف ويزول . والواقع ان نشاط الحلاج هذا بدا خطراً جديداً على النظام الاجتماعي المتهافت ، ومن هنا لم يكن عسيراً على الفقهاء ان يوغروا صدر الحكام عليه . فألقي في غياهب السجن حيث قضى ثماني سنوات ذوى خلالها عوده وذهبت نضرته . والحق ان ام المقتدر وحاجبه نصرا سعيا في إنقاذه ، ولكن هذا الاهتمام نفسه جلب عليه نقمة الوزير ، حامد [بن العباس] . وبعد محاكمة دامت سبعة اشهر اصدر قضاة المذاهب كلها قراراً اجماعياً بقتله ، فأعدم صلباً ، يوم ٢٦ آذار سنة ٩٢٢ ، في الباحة المنبسطة امام سجن بغداد الجديد ، ثم حُزّ رأسه واحرقت جثته . وليس من ريب في ان استشهاده هذا هو السبب الأول في ما تم لآرائه بعد من ذيوع وخطر . اما مريدوه فقد فروا بأنفسهم الى خراسان حيث مهدوا الارض لنشوء ثمرة من اطيب ثمرات الثقافة الاسلامية ، أعني الشعر الصوفي عند الفرس والاتراك .

كان الخليفة المقتدر عاجزاً عن تثبيت سلطته التي ما انفك القرامطة يتهددونها بخطر شديد ، حتى بعد ان تخلص من وزيره ابن الفرات . والواقع انه التمس العون من يوسف بن ابي الساج امير آذربيجان ، فلم يغن ذلك عنه شيئاً . وفي شباط سنة ٩٢٩ اضطره هياج الجيش الى التنازل عن العرش لاخيه محمد القاهر . حتى اذا استشعر القاهر –او على الاصح ، صاحب الشرطة الذي رفعه الى العرش – عجزه عن اشباع رغبات الجند المطالبين بأرزاقهم ،استدعي المقتدر كرّة اخرى ، وكان قد لاذ بالفرار مع وليّه مؤنس . ولكن الوحشة لم تلبث ان وقعت بينهما لان المقتدر استشعر انه لا يستطيع ان يثق بمؤنس الثقة كلها ، فاستعدى عليه صاحب شرطته الجديد محمد بن ياقوت . وعلى الرغم من ان هذا الاخير قد وُفق الى اخضاع الرجالة ، حامية بغداد المتمردة ، فقد اضطر الخليفة الى ان يبعده الى سجستان ، في تموز سنة ٩٣١ ، نزولاً عند رغبة مؤنس والحاحه. فلما كان شباط سنة ٩٣٢ استدعاه الخليفة وسيّره على رأس جيش لمقاتلة مؤنس ، الذي كان ينحدر الى بغداد من الموصل . ولكن محمداً لم يجرؤ على ملاقاة مؤنس ، فانقلب الى العاصمة من جديد . وهنا لم يجد الخليفة بداً من ان يتقدم بنفسه على رأس الجند لقتال قائد جيوشه الأعلى ، الشاقّ عصا الطاعة . وكان المقتدر يُدرك جيداً انه سيقضي في الميدان ، ومن ثم وضع السواد فوق قفطانه الفضي وارتدى فوقه البردة النبوية وشد على حقوية منطقة النبي الحمراء وسيفه ، وجال جولة قصيرة سقط على اثرها صريعاً

في ٣١ تشرين الاول سنة ٩٣٢ . ومع ان مؤنساً كان يرغب في استخلاف احمد بن المقتدر ، الذي حارب الى جانب ابيه ، فقد نجح محمد القاهر، عم احمد هذا ، في الاستيلاء على ازمة الحكم التي أُقصي عنها من قبل. والواقع ان الوحشية والشحّ كانا ابرز خصاله. ولقد تنافس في السيطرة عليه كلٌّ من الوزير ابن مقلة، وصاحب الشرطة محمد بن ياقوت، والأمير مؤنس . حتى اذا حاول القاهر التخلّص من وزيره دبّر هذا الاخير مؤامرةً لخلعه وتنصيب ابن المكتفي خليفةً على المسلمين. ولكنّ المؤامرة لم تلبث ان افتضحت فخلع الخليفة مؤنساً وأمر بقتله. اما ابن مقلة فلاذ بالفرار، وطفق يجوب البلاد، في زي المكدّين، ليغري الناس بالثورة على الخليفة. وكان من نتائج ذلك ان هوجم القاهر في قصره، نيسان سنة ٩٣٤ فسملت عيناه والقي في غياهب السجن بعد ان ابى التنازل عن العرش. ثم ان احمد بن المقتدر رقي العرش متخذا لقب الراضي. ولكنه اضطر الى التخلي عن السلطة لمحمد بن ياقوت، ثم لابن مقلة بعد ان زالت دولة محمد ، في نيسان سنة ٩٣٥ ، حتى اذا انقضى على ذلك عام (نيسان سنة ٩٣٦) واستطاع المظفر ، أخو محمد، ان يلقي القبض على الوزير، التمس الخليفة ظهيراً جديداً يستند اليه [فوقع اختياره] على محمد بن رائق وقلده لقب «أمير الأمراء» بعد ان عهد اليه بقيادة الجيوش العليا. ليس هذا فحسب بل لقد عينه رئيساً للحكومة وأمر بأن يُخطب له على المنابر ، وهو تشريف خاص بالخلفاء واولياء العهد. وهكذا لم يعد للخليفة، بادىء الرأي، أية سلطة خلا الزعامة الدينية العليا، وهي كل ما تبقّى لخلفائه ايضاً.

ولكن ابن رائق اخفق في فرض سلطة الحكومة المركزية على شرق الامبراطورية، في حين لم يوفق الى صد القرامطة عن بغداد الا لقاء جزية تعهد بادائها اليهم . وما هي الا سنتان حتى اضطر ابن رائق الى ان يخلي مكانه لـ « بَجْكَمْ » الديلمي الذي استطاع ان يكبح عنان الحمدانيين والبويهيين فترة من الزمان .

بنو حمدان في الموصل وحلب

في القرن العاشر للميلاد وقع عبء الحرب ضد الروم البيزنطيين على عاتق اسرة عربية النجار هي الامرة الحمدانية . وتفصيل ذلك ان حمدان مؤسس هذه الاسرة، ورأس بني تغلب ، استطاع ان يستولي سنة ٨٩٠ على قلعة ماردين في الجزيرة العليا ، من طريق التحالف مع الخوارج . وعلى الرغم من انه وقع آنذاك اسيراً في يد الخليفة ، فقد حظي بعفو هذا الاخير عنه بعد ان هزم ابنه الحسين الخوارج . وفي سنة ٩٠٥ عين ابو الهيجاء ، اخو الحسين، اميراً على الموصل من قبل المقتدر ، فظل يحكمها بقية حياته حتى توفي سنة ٩٢٩ يساعده في ذلك ابنه الحسن ابتداء من سنة ٩٢٠ . والواقع ان الحسن لم يلبث ان بسط سلطانه على الجزيرة كلها وشمالي سورية. فلما كانت سنة ٩٤١، واضطر الخليفة المتقي الى ان يفرّ الى الموصل مع امير الامراء ابن رائق [٢٤] ، بعد ان تعددت هجمات البريدي واخوته من خوزستان، على العراق ، قتل الحسنُ [بن حمدان] ابن رائق واكره الخليفة على ان يقلده إمرة الامراء ويخلع عليه لقب ناصر الدولة . ثم ان ناصر الدولة واخاه علیـــاً الذي لقب

(٢٤) وكان قد وفق الى استعادة هذا المنصب بعد ان فقده .

في الوقت نفسه سيف الدولة ، أعاد الخليفة الى عاصمته ، بغداد.
وأياً ما كان، فلم يكد معز الدولة البويهي يحتل بغداد سنة ٩٤٥
حتى شن على الحمدانيين حرباً انتهت بسقوط دولتهم . وبقي ناصر
الدولة [في امارته على الموصل وديار الجزيرة كلها والشام على ان
يؤدي عنها جزية لمعز الدولة ويخطب فيهـــا للبويهيين] . وعلى
الرغم من محاولاته المستمرة للتهرب من القيام بتعهداته هذه فقد
حافظ على مركزه إلى ان قبض عليه [ابنه ابو تغلب]وحجر
عليه بحجة عدم الكفاية ، وسجنه . وكان ذلك لسنة قبل وفاته
في عام ٩٦٨ . والحق انعهده كان أسوأ مثل للاستبدادالشرقي.
ذلك بأن الضرائب الباهظة التي أنقضت ظهور أفراد رعيته عجزت
عن اشباع مطامعه، فوجه همته نحو ضم الكثرة العظمى من اراضي
البلاد الى ممتلكاته الخاصة. ولقدكان في وسع ابنه الاحتفاظ باستقلاله
فترة قصيرة في الموصل، حتى اذا توفي سنة ٩٧٩ فقد اخوته وذريته
هذا الاستقلال، بعدان اخضعهم البويهيون والفاطميون لسلطانهم.
بيد ان الشهرة التي حظي بها سيف الدولة، اخو ناصر الدولة،
كانت أوسع وأبقى. لقد أدرك ان من المتعذر عليه التمكين لنفسه
في العراق ، بوصفه عامل الخليفة المقدّم، ضد الاتراك والبويهيين،
فولى وجهه شطر سورية. فانتزع حلب سنة ٩٤٥ من ايدي الاخشيدية،
المتغلبين على مصر . ثم انه حاول ان يبسط سلطانه على دمشق
أيضاً ، ولكنه أخفق ، ليفرغ من ذلك الحين للمهمة التي وقف
شبابه لها ، أعني النضال ضد البيزنطيين. وعلى الرغم من ان سيف
الدولة أعلن الطاعة للفاطميين عندما نشروا سلطانهم على مصر،

وبالتالي اتبع المذهب الشيعي، فقد احتفظ بسيادته التامة في جميع أرجاء ملكه . وكان قوام الحرب ضد البيزنطيين ، في القرون السابقة ، غزوات صيفية ومناوشات حول الحصون والقلاع يُكتب فيها النصر للعرب حيناً وللبيزنطيين حيناً . والواقع أن أولى حملات سيف الدولة على البيزنطيين ، سنة ٩٤٩ ، انتهت الى الإخفاق . حتى اذا حال الحول أعاد سيف الدولة الكرة على الاعداء ، فكان له النصر ، وغنم مغانم عظيمة . فلما أراد العودة أوقع به الروم في مضيق صعب من جبال طورس فاستردوا الغنائم جميعاً ونجا سيف الدولة في عدد يسير ، وما كاد . ونشأت على جانبي الحدود طبقة من الجنود المحترفين أقطعهم قوادهم الاراضي فاستقروا فيها وتبادلوا في فترات السلم — وكانت هذه أطول من فترات الحرب — أسباب الثقافة والحضارة . والظاهر ان عامل الامبراطور البيزنطي المقدّم ، برزوس فوكاس* استشعر اشتداد الخطر على الامبراطورية سنة ٩٥٣ فقذف الى الميدان بجيش عظيم شارك فيه الروسُ والبلغار والخزر ، ولكن سيف الدولة ظهر عليه بجنده وهزمه هزيمة شنعاء قرب مَرْعَش . ثم ان يوحنا تسيمِتْسِس (الدمسْتق) ثأر لقومه ، بعد خمس سنوات ، فانتصر على العرب في بلادهم بالذات ، غير بعيد من حلب . كذلك مني سيف الدولة بهزيمة قاسية سنة ٩٦٢ على يديْ العامل البيزنطي نقفور . وسقطت حلب هي وقلعتها في ايدي الروم الذين كانوا يعيثون فساداً في الديار المحيطة بها ، ومع ذلك فقد كان في ميسور سيف

* وتسميه المصادر العربية خطأ بالدمستق . (المعربان)

الدولة ان يصد هجوماً قام به الروم ، بعد عامين ، على الرغم من فالج نصفي كان قد لحقــه . وفي سنة ٩٦٧ توفي سيف الدولة في حلب ، فخلفه ابنه سعد الدولة ثم حفيده سعيد الدولة اللذان احتفظا بحلب حتى سنة ١٠٠٢ ، من طريق تحالف عقداه مــع الروم البيزنطيين - وهم اعداء الحمدانيين القدماء - دفعاً لخطر الفاطميين المشترك على الفريقين المتحالفين .

الحياة الفكرية في ظل سيف الدولة

ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم ، في المحل الاول ، فليس من شك في انه مدين بذلك ، في المحل الثاني ، لعطفه على الفنون والعلوم ورعايته لها. وكان ابن عمه ابو فراس - الذي تولى اعمال منبج من قبله فحارب الروم دونها ، والذي اسره هؤلاء مرة فقضى في القسطنطينية سنتين - شاعراً بارعاً في وسعه ان يتلاعب بالعواطف، وخصوصاً في قصائده الحزينة التي قالها وهو اسير [الروميات].وله قصيدة في مـــدح العلويين حظيت بمقام عظيم عند الشيعة وهي تدرس وتشرح في اوساطهم حتى يومنا هذا .وفي سنة ٩٤٨ وفد على بلاط سيف الدولة الشاعر المتنبي ، احد الكواكب اللامعة التي كانت آخر ما ازدانت به سماء الأدب العربي.وانما يدين المتنبي بلقبه هذا الذي عرف به ، لهوس الشباب وطيشه اذ حاول ،بوصفه محرضاً قرمطياً ، ان يضرم نار الثورة بين الاعراب في بادية الشام ، بين الكوفة وتدمر . والواقع ان ما قاله من شعر حتى بعد تلك المحاولة ظل مشرباً بالصور القرمطية ، على الرغم من شدة عنايته بتهذيب

ألفاظه الاعرابية التي اكتسبها من البادية. وقضى المتنبي تسع سنوات في حلب غنى فيها مآتي الامير الحمداني، ثم فارقها بعد وحشة وقعت بينه وبين ممدوحه، ليفزع بآماله اول الأمر الى امير مصر التركي، كافور الاخشيدي، ومن ثم الى عضد الدولة البويهي في فارس. وفيما هو عائد من تلك الديار لقي حتفه في هجوم شنه عليه نفر من اللصوص قرب بغداد. والواقع ان المتنبي التزم في شعره بشكل القصيدة القديمة في كثير من البراعة، ولكنه على تعلقه بالاساليب الكلاسيكية والتزامه اياها بشدة فائقة، بارى القدماء في غنى مفرداته، وبزهم باستعاراته الجريئة، في كثير من الاحيان. وعلى الرغم من ان شعره كثيراً ما انتقد أعنف النقد من معاصريه ـ وبخاصة من المتعصبين لصفاء اللغة القديم ـ فقد نعمت قصائده المنبثقة عن روح عربية خالصة باعجاب العرب الاجماعي في جميع العصور، بل انها ما تزال الى اليوم في ايدي المثقفين جميعاً، حتى في عُمان الواقعة في اقصى جزيرة العرب، يتدارسونها، ويحفظونها، ولا يقدمون عليها اثراً ادبياً غير مقامات الحريري. وفي دمشق، اشترك العالم العربي كله، سنة ١٩٣١، في الاحتفال بذكرى انقضاء الف عام على وفاته.

ولم تقتصر الحركة الفكرية في بلاط سيف الدولة على الشعر والأدب بل عدتها الى العلم ايضاً، بروح ملؤها التفهم والادراك. فلمع في سمائه احد تلامذة ارسطو الكبار [ابو نصر] الفارابي التركي الأصل، الذي أتم دروسه في بغداد. ومع ان مؤلفات ابن سينا استطاعت بعدُ ان تخرج كتابات الفارابي من دائرة التداول الأدبي، ومع ان النظام الفكري الذي قال به الفارابي لم يستطع

ان يحظى بسلطان دائم في العالم الاسلامي، فالواقع ان هذا الرجل ليمثل، بوصفه احد تلامذة الفلسفة اليونانية الأكثر استقلالاً، ظاهرة بارزة جداً في تاريخ الحضارة الاسلامية .

البويهيون في فارس والعراق

في هذه الاثناء نشأت في شرق الامبراطورية، وبين جمهرة من الحكام الصغار، أُسرة جديدة كتب لها ان تمثل دوراً رئيسياً في السياسة الاسلامية . وتفصيل ذلك ان رجـــلاً من الديلم اسمه مَرْداوِيج [بن زيار] استطاع ان يقضي على الزّيدية المتغلبين في طبرستان ليستقل بحكم تلك البــلاد من دونهم . وكان يعمل في خدمته رجل من مواطنيه يدعى بُوَيه . وكان علي بن بويه حاكماً على بلاد الكرَج، جنوب شرقي همذان . وهناك ثار على سيده سنة ٩٣٢، فاحتل إصفهان بعد ان أخرج منها حامية الخليفة القاهر . ومع ان مرداويج كان لا يزال قادراً على الاقتصاص من الثائرين بطردهم من المدينة واعادتها الى الخليفة، فقد وفق عليٌّ بالتحالف مع اخوته الى بسط سلطانه في مناطق جديدة من فارس، حتى اذا كانت سنة ٩٣٤ استولى على شيراز، وجعل منها مقره . وفي سنة ٩٣٥، عندما تمرد جند مرداويج الاتراك عليـــه فقتلوه، استولى (الحسن) اخو علي على بلاد الجبال، في حين كان أخ له آخر اسمه احمد قد فتح كِرمان .

وكانت الاحوال في بغداد قد انتهت، في الوقت نفسه، الى غايةٍ من الفوضى يسرت عليه التدخل . ذلك ان المتقي (٩٤٠ — ٩٤٤) الذي تولى الخلافة بعد الراضي، كان مجرد العوبة في

ايدي القواد المتنافسين على السلطة ،من جهة ، وفي أيدي البريدي والي خوزستان ، وابن رائق ، والحمدانيين من جهة ثانية . حتى اذا حاول الدخول في مفاوضات مع إخشيد مصر اعتقله توزون ، الامير التركي وسمل عينيه . ولم يكن ابنه المستكفي احسن منه حالاً ، واكثر سلطاناً . فلما عجز الامراء المسيطرون عليه عن ارضاء الجند المطالبين بدفع ارزاقهم ، وعجزوا عن القضاء على شبح المجاعة التي كانت تهدد العراق بالخطر رأى من الخير ان يرحب بأحمد بن بويه منقذاً ومخلصاً ، وكان يزحف بجيوشه من كرمان ، في اتجاه الغرب . واستولى احمد على واسط بعد معركة نشبت بينه وبين البريدي والامير توزون . وفي كانون الاول سنة ٩٤٥ دخل بغداد ، ظافراً فقلده الخليفة إمرة الامراء وشرّفه بلقب « معز الدولة » . ومهما يكن من شيء ، فلم تكد تنقضي فترة وجيزة حتى أورد المستكفي موارد اسلافه ، بسبب من اتصاله في ما يقال ، بأعداء البويهيين . ثم جاء من بعده خلفاؤه المطيع (٩٤٦ - ٩٧٤) والطائع (٩٧٤ - ٩٩١) ، والقادر (٩٩١ - ١٠٠٣) فما زادوا على ان كانوا مجرد صنائع للبويهيين يجرون عليهم الرواتب . والواقع انه لم يبق لهم من السلطة الا مظاهرها كالسكّة والخطبة . اما [البويهيون] الذين تسلطوا على الخلفاء واستبدوا بهم فاقاموا في بغداد [حيث انشأوا « دار المملكة »] فترة ، وفي شيراز [عاصمتهم] فترة اخرى . ولم يستطيعوا ان يحتفظوا بسلطانهم الا بمنازعات دائمة مع سكان الجبال الايرانية ، أمثال الديلم ، الذين ما فتئوا يظهرون نزعات متزايدة الى الثورة ،

ومع القبائل العربية في الجزيرة حيث قامت بين ظهرانيهم ، بعد سقوط الحمدانيين، دويلات سرعان ما اصبحت اثراً بعد عين. وما لبثت ذرية هؤلاء الأخوة الثلاثـــة الذين انشأوا الدولة البويهية أن تنازعت غير مرة على الارث . فمنذ سنة ٩٧٦ أخذ عضد الدولة، ابن الحسن بن بويه، ينتزع من ابناء عمومته واخوته جميع ما كان في حوزتهم من البلاد ليضم العراق وفارس من جديد في ظـلّ دولة موحدة . ولكن هذه الدولة لم تلبث ان انحلت سنة ٩٨٣ بسبب المنازعات التي نشبت بين ابنائه . وفي سنة ١٠٢٩ ظهر محمود بن سُبُكتِكين التركي على [مجد الدولة بن فخر الدولة البويهي] المتغلب على الولايات الشرقية، في حين قبض طُغرلبك السلجوقي سنة ١٠٥٥ على [الملك الرحيم] الذي كان اليه حكم العراق. ولقد قضى كلٌّ من مجد الدولة والملك الرحيم آخر ايامه في السجن.

الاغالبة في افريقية وصقلية

كان المغرب قد تحرر منذ طويل من سلطان الخليفـــة العباسي . والواقع ان إفريقية استقلت استقلالاً مطلقاً ، في ظل الاغالبة ، ابتداءً من سنة ٨٠٠ م . على الرغم من ان هؤلاء لم ينقطعوا عن تذكير الخليفة بفتوحاتهم وانتشار سلطانهم بما كانوا يرسلونه اليه من غنيمة . ففي الغرب امتدت دولتهم حتى بُونة ، وفي الجنوب الغربي امتدت حتى الزاب الذي كانت تحده ممتلكات دولة الرُستميين اصحاب تاهَرْت ، وكان قد أسسها الاباضيون وهم فرقة من فرق الخوارج . اما في الشرق فقد بسطوا سلطانهم على طرابلس الغرب التي كانت ، على كل حال ، مهددةً ابداً من قبل

البربر في جبـــل نفوسة ، وكانوا من الخوارج ايضاً . وكانت القيروان ، عاصمة دولتهم ، آهلة ، بكليتها ، بالمهاجرين العرب الذين لم يكونوا على صلات حسنة مع البربر . ولقد حاول البربر ان يلتمسوا سناداً لهم يتقون به دعاوى العرب وصلفهم ، فلم يجدوا خيراً من الاخذ بعقائد الخوارج .

والحق أن الغنى والقوة اللذين تمّا للأغالبة [٢٥] ، بسبب من الموقع الممتاز الذي تتمتع به اراضيهم ، ببقاعها الداخلية الخصبة ومرافئها المسيطرة على تجارة البحر الابيض المتوسط ، لا يزالان حتى اليوم ، يتجليان في جامع عاصمتهم ، القيروان ، الذي يعتبر من افخم المنشآت الدينية في الاسلام ، وان يكن دون مساجد سامراء ومصر ضخامة واتساعاً . وعلى الرغم من انه يُدعى « سيدي عُقبة » ، نسبة الى الفاتح الاول ، فالواقع ان ما بناه عقبة لم يبق منــه غير المحراب القائم اليوم وراء المحراب الحالي الذي يرقى ، هو والبناء جملةً ، الى عهد زيادة الله الاول . ويشتمل الصحن الرئيسي على سبعة عشر رواقاً يمتاز أوسطها – وهو أوسعها جميعاً – بصفين مزدوجين من الاساطين وتواكبه من جانبيه بلاطة معارضة تمتد بين حائط المحراب وصفٌ مزدوج من الاساطين . ولقـــد زخرف [ابو ابراهيم] احمد الاغلبي (٨٥٦ – ٨٦٣) هذا الجدار بالآجر القاشاني وتوج المحراب بقبة ؛ وفي عهده اقيم المنبر الشهير المصنوع من خشب الدُلب البغدادي . ويفصل الرواق الرئيسي عن

---

(٢٥) انظر فوندرهـايدن **M. Vonderheyden,** ***La Bérbérie orientale sous la dynastie des Benou Aglab, Paris, 1927.***

الصحن ابواب خشبية رائعة، وجميع اروقة الصحن تقوم على دعائم مرتكزة على اعمدة مزدوجة تزيد في جمال البناء . وفي سنة ٨٧٦ عندما تعاظم نفوذ الفقهاء المالكية المعروفين بتحرجهم الشديد، في القيروان، انشأ سابعُ امرائهم ابراهيم الثاني حاضرةً جديدة في رَقّادة، على بُعد تسعة كيلومترات من الساحل، فعل العباسيين من قبـــله .

وفي عهد زيادة الله ، ثالث الاغالبة ، (٨١٧ — ٨٣٨) بدأ فتح صِقِلّية ، فوُفق العرب بعد معارك متعدّدة تراوحت فيها حظوظهم بين الفوز والاخفـاق الى تثبيت أقدامهم في الجزيرة بالاستيلاء عـــلى بَلَرْم في ايـــلول سنة ٨٣١ ، حـــتى اذا دخلت سنة ٨٤٠ كان العرب قـد فتحوا ثلث صقلية تقريباً . ومهما يكن من أمر ، فجيوش الاغالبة لم تحرز هذه الانتصارات منفردةً ، إذ كان يساعدها على ذلك جماعـة من أهل الاندلس المغـــامرين الذين نزلوا أرض الجزيرة سنة ٨٣٠ ثم توالت عليهم الأمداد من الوطن . وفي سنة ٨٧٥ سقطت سَرَقُوسة أيضاً في ايدي الاغالبة . ولكن الشقاق بين مختلف القبائل العربية كان هنا عظيماً بالغ الاثر كما كان في الاندلس، حتى لقد اضطر ابراهيم الثاني الى ان يقصد بنفسه الى صقلية إقراراً لسلطة دولته وهيبتها هناك . ولكن وفاته لم تلبث أن تهددت هذا النصر المؤقت بالخطر، فاضطرّ العرب المتنازعون في ما بينهم الى ان يعقدوا معاهدة مع الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع . وايّاً ما كان ، فان طَبَرْمِين التي تنازلوا عنها بموجب هـذه المعاهدة ما عتمت ان

سقطت في ايديهم كرة اخرى سنه ٩٦٥ . وفي الحق ان سنوات السلام الثلاث والسبعين التي قدّر للعرب ان ينعموا بها في صقلية منذ ذلك الحين كانت كافية لنشر حضارتهم والتمكين لها في ربوع الجزيرة الى درجة بعيـدة ، حملت النورمانديين الذين قضوا على الحكم العربي سنة ١٠٦٠ في عهد الكونت رُجار على أن يأخذوا عن العرب نظامهم الاداري ويقتبسوا العناصر الاساسية للثقافة الاسلامية في حياتهم الفكرية وفي فنهم ايضاً . وفي سنه ١١٥٤ الف الأدريسي ،(العالم العربي) لرجار الثاني ، كتابه الشهير في صفة الارض[نزهة المشتاق في اختراق الآفاق]. ليس هذا فحسب بل ان فريدريك الثـاني (١١٩٧ - ١٢٥٠) الذي خلف النورمانديين في حكم صقلية عني بتنمية هـذا التراث اعجاباً منه بعلوم العرب وباساتذتهم اليونان .

الأدارسة في مراكش

ولم تستطع هذه المستعمرة الغنية [صقلية] ، بسبب من تقلب احوال العرب فيها بين قوة وضعف ، ان تساعد على التمكين لسلطان الاغالبة بأفريقية والقضاء على الاضطرابات الدينية السياسية الناشبة في الداخل . فبالاضافة الى الخوارج الذين لم ينقطعوا يوماً عن تأليب البربر على العرب ، برزت الى الميدان السياسي ابتداءً من سنة ٧٨٠ قوة جديـدة ، هي الشيعة ، وطفقت تعمل في سبيل الاستيلاء على السلطة . وتفصيل ذلك ان ادريس بن عبد الله بن الحسن كان قد فر الى مصر ومنها الى شمـالي مَرّاكش بعد ثورة مخفقة قام بها في المدينة . وهناك في مستقره الجديد بين قبائـل

البربر ، اعترف به إماماً وتمكن من نشر سلطانه ، في نزاعه ضد الاغالبة ، حتى تِلِمْسان . ومات ادريس مسموماً ، وليس له من عقب غير ولدٍ كانت امه لا تزال حاملاً به ، فلما وضعته سمي ادريس على اسم ابيه . ولقد قدّر لادريس الثاني هذا ان يؤسس عاصمة جديدة للدولة في فاس سنة ٨٠٨ . ولكن هذه الدولة ما لبثت ان أصابها الانحلال بعد ان توزّع ابناؤه إرث أبيهم فاستقل كلٌ بجزء من البلاد . حتى اذا كانت سنة ٩٣٠ بدأ خلفاؤه يفقدون ما في حوزتهم من البلاد ، شيئاً بعد شيء ، ليستولي على بعضه الامويون في الاندلس ، ولينتزع الفاطميون بعضه الآخر .

الفاطميون في شمالي افريقية ومصر

وعلى الرغم من أن الادارسة قد انشأوا دولتهم بقوة السلاح من غير ان يمكّنوا للعقائد الخاصة التي كان يقول بها مؤيدو اسرتهم ، فقد مهدوا السبيل ، بما كانوا يمثلونه من مبدأ الشرعية [النص والتعيين] ، لسلالة جديدة خلفتهم في افريقية فكانت اسعد منهم حظاً . ذلك انه ظهر في سَلَمْيَة قرب حماة ، حوالى سنة ٨٩٠ رجل اسمه محمد الحبيب * فادعى انه من اعقاب علي وفاطمة ، وبث الدعاة للمهدي المنتظر ظهوره من هذه الاسرة . والواقع ان صحة نسبه موضع خلاف شديد . وأياً ما كان ، فقد اعلن ولاءه للشيعة الاسماعيلية الذين سخروا العقائد الاسلامية لخدمة اغراضهم السياسية – فِعل القرامطة غير الغرباء عنهم – من طريق تفسير القرآن تفسيراً مجازياً باطنياً (ومن هنا عُرفوا كذلك بالباطنية) .

* يقابل عند الذين ينكرون نسب الفاطميين «ميمون القداح» (المعربان) .

وكان في جملة من اجتذبتهم هذه العقائد في جنوبي بلاد العرب رجل يدعى ابا عبد الله استطـــاع في احد مواسم الحج بمكة ان يحظى بمبايعة جماعة من قبيـــلة كتامة البربرية ، فأمّروه على انفسهم وسار معهم الى بلادهم. وهناك جمع من حوله جيشاً حارب به بني الاغلب ، فهزم سنة ٩٠٩ آخرَهم ، زيادةَ الله الثاني، هزيمة منكرة اكرهته على الفرار الى بلاد الجزيرة الفراتيــــة . وهنا طلب المقتدرُ الى امير مصر أن يساعد زيادة الله على استعادة ملكه فتقاعس عن نجدته . وهكذا استقرت الامور لابي عبد الله في رقّادة ، عاصمة بني الاغلب ، وتولى زمام الحكم فيها فترة من الزمان . وبعد برهة ، توفي الفاطمي محمد ، ونجا ابنه عُبيد الله من حبائل الخليفة بالفرار الى افريقية ؛ وهناك ظهر . وعلى الرغم من ان امير سجِلْماسَة اعتقله مدة من الزمان فقد وفق داعية والده ، أبو عبدالله ، الى انقاذه سنة ٩١٠ ورفعه الى عرش الخلافة ، في رَقّادة . ثم انه ابتنى عاصمة جديدة دعاها المهدية ، وتقع على الساحل القريب . وفيما كان جميع من سبق من الامراء المسلمين ، والامراء الامويون في الاندلس انفسهم ، يحكمون البلاد الواقعة في حوزتهم باسم خليفة بغداد نجد الخليفة الفاطمي يدّعي انه صاحب الحق الاوحد في الخلافة . وعلى الرغم من ان عبيد الله اضطر الى ان يقمع ثورة قام بها ابو عبد الله بعد ان أصيب في آماله العراض فقد نجح خلال سنوات قليلة في التمكين لسلطته وتثبيتها الى درجة مكنته من ان يوجه همته نحو الفتوح . والواقـــع ان عساكره اخضعت المغرب حتى مَرّاكُش ، التي لم تلبث ان سقطت ، بعد

وفاته سنة ٩٢٤ ، في يد خَلَفِهِ ، وإن يكن الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث قد اكرهه على ان يتوقف في الفتح عند سبتة. ولكن ثورة اخرى ما لبثت ان شبّت في وجه الفاطميين فتهددت دولتهم بخطر عظيم ، وذلك عندما قام في قبيلة زناتة ، وهي من البربر الخوارج، رجل متعصب يدعى ابا يزيد فناضل الفاطميين، في جبل أوراس، نضالاً ضارياً. وكان أبو يزيد يهدف الى التخلص من الحكم الفاطمي ، ويظهر في الناس راكباً حماراً على طريقة الأنبياء القدماء . والواقع ان هذا الخارجي قد وفق الى ان يبسط سلطانه على البلاد كلها ويطوّق «القائم» الخليفة الفاطمي، في عاصمته، المهدية ، عاماً كاملاً. ولكن هذا الحصار استنفدقواه، فاضطر الى رفعه. ثم ان الهزائم توالت عليه ، وسقط هو في يد الخليفة الجديد [المنصور ابي طاهر] اسماعيل ، في ١٩ آب سنة ٩٤٧ ، بعد ان اجتاح الفاطميون آخر معاقله .

وكان عُبيدالله نفسه يطمح الى فتح مصر ، فشنّ عليها هجوماً مبدئياً لم يلبث ان أخفق. ففي سنة ٩١٤ احتل جيشه الاسكندرية ومنطقة الفيّوم ولكنه ما عتم ان ارتد على اعقابه . وفي عهد ابنه [القائم] ابي القاسم [محمد] اندفع الفاطميون سنة ٩٢١ حتى مصر العليا، ولكن مؤنساً ، قائد جيوش المقتدر ، انزل بهم كذلك هزيمة حاسمة. فلما كانت سنة ٩٣٥ وما بعدها ظهرت في مصر دولة جديدة استطاعت ان تصدّ الفاطميين عن حدودها جيلاً بكامله. ففي ذلك الحين وفد الى مصر ، محمد بن طُغج، بوصفه اميراً عليها، وهو تركيّ سبق لجدّه وأبيه ان عملا في خدمة خليفة بغداد. وما

انقضت سنتان حتى استطاع ان يثبّت دعائم سلطته الى حدّ ساعده على ان يلتمس من الخليفة الراضي تمييزه من سائر الامراء بأن يخلع عليه لقب الاخشيد الذي كان الامراء من أسرته يحملونه في موطنهم ، فرغانة ، قبل خضوعهم لسلطان الاسلام ، (كما فعل سنة ١٨٦٧ السلطان العثماني عبد العزيز عندما ميّز عامله اسماعيل باشا من سائر أقرانه بلقب الخديوي). ولقد كان عليـه بادىء ذي بدء ان يقي مركزه هذا في مصر من مطـامع أمير الامراء، [محمد] ابن رائق الذي اضطر بعدُ ، على كل حال، إلى ان يتخلى له عن شبه جزيرة سينا – وليس عنهما من غنىً للدفاع عن البلاد – وفلسطين الجنوبية حتى الرملة، لقاء جزية يعطيها. فلما توفي ابن رائق طمع ابن طغج نفسه في إمرة الامراء وشرع يفاوض في ذلك الخليفةَ المتقي ، وكان في الرقة على الفرات. بيد انه ما لبث ان تحقق ان الامرة الراسخة على قطر غني كمصر، خيرٌ له وأبقى من منافسة القواد الاتراك ومنازعتهم على السلطان في عاصمة الامبراطورية المعدمة. وهكذا انصرف الى توطيد مركزه في مصر من طريق تعزيز الثغور السورية. وكان لا بدّ له ، هنا، من أن يصطدم بسيف الدولة بن حمدان الذي اضطر آخر الأمر، الى ان يتخلى له عن دمشق . وفي سنة ٩٤٦ توفي ابن طغج فنهض بأعباء الدولة نيابة عن ولديه [انوجور، وعـلـيّ] خصيّ له حبشي يدعى كافوراً. حتى اذا مات علي استولى كافور على الملك وأقطعه الخليفة مصر سنة ٩٦٦، فوفق الى أن يدفع عن مصر وسورية هجمات الفاطميين والحمدانيين. وفي سنة ٩٦٨ توفي كافور فخلفه أبو الفوارس أحمد ، حفيد ابن طغـج ، وهو بعد في أول

الصبا . وفي عهد أبي الفوارس هذا استأنف المعز [لدين الله] رابع الخلفاء الفاطميين، خطة أسلافه الرامية الى فتح مصر . وكان للمعز قائد عظيم اسمه جوهر – وهو مولى رومي – استطاع سنة ٩٥٨ ان يوطد سلطان الفاطميين في الغرب حتى سبتة وطنجة . وفي ٥ شباط سنة ٩٦٩ خرج جوهر بجيشه من رقادة ، ووجهته مصر ، حتى إذا شارف أبواب الاسكندرية أقبل عليه وفد مصري يعلنه امتسلام البلاد . ولكنّ الجيش المصري لم يلبث ان استجمع شتاته ليستأنف النضال في حزيران ، فهزمه جوهر ، من غير ما عناء ، في معركة نشبت بين الفريقين ، قرب أهرام الجيزة . وفي مطلع شهر تموز دخل جوهر العاصمة المصرية ظافراً . وكما انشأ الطولونيّون من قبله قاعدة جديدة لحكومتهم في القطائع ، على أبواب العاصمة ، فقد شرع بدوره ، في ٩ تموز ، في بناء العاصمة الفاطمية المقبلة بين القناة القديمة التي كانت في يوم من الأيام تصل النيل بالسويس والتي طُمرت بعد ذلك ، وبين جبل المقطّم . وكما كانت المدن الاسلامية القديمة تنقسم الى أحياء مستقلة تنزل فيها القبائل العربية ، كلاً على حدة ، فكذلك قسم جوهر المدينة الجديدة إلى حارات [خطط] لكلّ من الروم ، والارمن ، والبربر ، والاكراد ، والاتراك ، والزنج . ثم انه دعاها المنصورية . حتى إذا دخل المعزّ لدين الله البلاد بعد أربع سنوات خلع عليها اسم القاهرة المعزّية ، أي مدينة المعزّ التي تقهر المدن .

الحاكم بأمر الله – الدروز

وفي ظل الفاطميين الذين دام حكمهم نحواً من مائتين وخمس

سنوات نعمت مصر بدرجة صالحة من الهدوء ، على الرغم من إرهاق البلاد الدائم بواسطة الضرائب . والواقع ان المعزّ وخليفتــــه العزيز وضعا الأساس ، بمساعدة الموظفــين اليهود والنصارى ، لادارة سليمة ٍ كان يرئسها الوزير ، ههنا أيضــاً . فلما وليَ الأمر ثالث خلفاء مصر الفاطميين الحاكم أبو علي المنصــور خلد لنفسه ذكراً يعود إلى صفات مختلفة ، أساسها شذود نفساني ، أكثر مما يعود إلى خدماته للبلاد . وليس من شك أنــه كان في السنوات الأولى من حكمه شديد العناية في أداء واجباته كرئيس للدولة ، متفانياً في خدمة البلاد والعمل على إسعادها وازدهارها . فاستقدم من البصرة الحسنَ بن الهَيثم ، العالم الطبيعي والرياضي الشهير [26] الذي نقضَ في كتابه الرئيسي «كتاب المناظر» نظرية اوقليدس القديمة القائلة إن الأبصار يكون بخروج شيء من البصر إلى المبصَرات ، والذي انتهت اليه زعامة هذا العلم في أوروبا أيضاً ، حتى ظهور كبلر . والحق أن الحسن تعهد للحاكم بأن يعدّل فيضان النيل الذي كان أساس خصب البلاد المصرية ، حتى إذا أخفق في إخراج حساباته النظرية مُخرَج العمل اضطرّ إلى الاستخفــاء ، فراراً من غضب الحاكم ، بقيةَ عُمر هذا الأخير . وليس من شك في أن السلطات المطلقة التي تمتع بها الحاكم ، والتي كانت لاتزال مُعزّزةً بالهالة الدينية ، أفسدت آخر الأمر عقله . فقد كان ينزع إلى إحياء قوانين الاسلام التي أفقدتها الحضارة فعاليتها من مثل تحريم الخمرة الذي انتهى منذ زمن طويل الى ان يكون حرفــاً

---

٢٦ – المعروف في الغرب بـ Albazen

تماماً ؛ فلم يجد ما يتوسل به الى ذلك خيراً من استئصال الكرمة، وهي التي لم يكن ممكناً أن تكثر زراعتها في مصر نفسها، وتحريم استيراد جميع الأشربة المسكرة. ليس هذا فحسب، بل لقد تغلغل في الحياة اليومية ، إلى حدّ أبعد ، من طريق القوانين التي قصد بها الى أن يحد من طلب رعاياه للذة . فحرّم الموائد والموسيقى ، بل حرّم الشطرنج ومجرّد النزهة على ضفاف النيل . وشنّ الحاكم حرباً لا هوادة فيها على فسوق النساء ، اللواتي كان لا يزال في ميسورهن أن يجدن في المدن الكبرى فرصاً سوانح لاستراق لحظات الحب وانتهاب لذاته ، بالرغم من حياة الحريم . وانما اصطنع في هذه الحرب سلاحاً يقوم على نظام من المنع والردع على أيدي عيون من العجائز . حتى إذا بدا له أن هذا السلاح غير حاسم ، أصدر أمره إلى جميع النساء بالتزام بيوتهن ، وانزل العقاب بكل من يصنع الأحذية النسائية ليكون في ذلك ما يساعد على انفاذ أمره إنفاذاً محكماً . كذلك أحيا الأنظمة القديمة التي تكره أهل الذمة على ارتداء ملابس تميزهم من المسلمين، بل زاد هذه الأنظمة عسراً بأن أجبر اليهود على أن يضعوا الأجراس في أعناقهم ، كما الزم [رجال] النصارى أن يتقلدوا في أعناقهم صلباناً خشبية زنة كل صليب منها خمسة أرطال . وكان طبيعياً أن يأخذ ، في بلاطه ، بأشد النزعات الشيعية تطرفاً وهي التي تعتبر الأمير الشرعيّ النسب تجسداً للذات الالهية ، وفقاً للتقليد الفارسي القديم . والراجح انه هو نفسه كان قد أخذ في ادعاء الالوهية ، حتى اذا وافته المنية قام محمد بن اسماعيل الدَرَزي

وخليفته حمزة ابن أحمد الهادي في سورية يدعو الى مذهب جديد عرف أتباعه بالدروز ، عل اسم مؤسسه ، وطغت فيه فكرة الحلول وبعض العقائد الوثنية القديمة ، بالاضافة إلى ألوهية الحاكم ، على الاسلام وغمرته بالكلية . وفي لبنان بين سكان الجبال الشجعان المحبين للحرية ، وجدت هذه الفرقة اتباعاً متحمسين حملوا معتقداتهم خلال الأجيال ، ولا يزالون ، واثروا في مجرى التاريخ السوري ، في كثير من الأحيان . وليس من شك في ان نهاية الحاكم لا تزال لغزاً غامضاً ، لا لأسباب دينية فحسب ، بل لأسباب سياسية أيضاً . والمفروض انه ذهب ضحية لمؤامرة حاكتها سياسة عهده المتقلبة . ويقال انه قتل بتحريض من أعيان حاشيته في اوائل سنة ١٠٢١ فيما كان راكباً أمام ابواب القاهرة .

نهاية الفاطميين

أما خلفاؤه فاستغرقوا ، على الجملة ، في مشارف البلاط ، مثبتين عجزهم عن إخماد فتن المرتزقة وتقويم مساوىء البلاد الاقتصادية ، بعد أن انتابها في هذا الوقت بالذات انخفاض هائل في مستوى مياه النيل . ولم يتم إقرار النظام في ارجاء البلاد إلا في النصف الثاني من عهد المستنصر (١٠٣٦ – ١٠٩٤) ، حفيد الحاكم ، عندما استطاع بدر الجمالي – وهو أرمني برز أول الأمر كقائد عسكري في سورية ثم خُوّل سلطات واسعة سنة ١٠٧٣ – القضاء على استبداد القواد الأتراك وطغيان الامراء ، ولكنه لم يوفق إلى تثبيت سلطان الفاطميين في سورية (حيث كان امراء الدويلات يتهددونه بالخطر الدائم) والمحافظة عليه من هجمات

السلاجقة الذين نهضوا في تلك الاثناء ، في الشرق . فما دخلت سنة ١٠٦٠ حتى سقطت حلب في ايدي المرداسية الذين ظهروا بين اعراب سورية. وفي سنة ١٠٧١ سقطت القدس في ايدي السلاجقة، وتلتها دمشق سنة ١٠٧٦ . حتى اذا توفي كل من الخليفة وبدر الجمالي سنة ١٠٩٤ لم يكن من الملك الافضل ، ابن الجمالي وخلفه، إلا ان نصب المستَعلي ابن المستنصر ، خليفةً ، وسيطر عليه سيطرة كاملة. والواقع ان الملك الافضل استطاع بادىء الامر أن يمكّن للحكم الفاطمي في سورية باستخلاص المدينة المقدسة من ايدي الدولة الارتُقيّة ، الخاضعة لسلطان السلاجقة ، وكانت قاعدتها في بيت المقدس. بيد انه تعين على الاسلام ان يجابه آنئذ خصماً جديداً عظيم الخطر ، اعني الصليبيين. ولم يظهر خطر هؤلاء واضحاً في بادىء الامر بل استُخفّ به ولم يقدّر حق قدره ، وسط الفوضى التي عمت البلاد من جراء النزاع الدائم على الرئاسة بين الدويلات . ففي سنة ١٠٩٩ سقطت بيت المقدس في ايدي الصليبيين الذين استطاعوا في العقدين التاليين ان يقصروا حكم الفاطميين على منطقة صور وعسقلان الساحلية ، بعد سلسلة من المعارك كان النصر فيها حليف الفاطميين حيناً ، وحليف الصليبيين حيناً . وفي سنة ١١٢١ قتل الملك الافضل اغتيالاً . فقد كان الخليفة « الآمر » كارهاً لوصايته واستبداده في الامر من دونه . عندئذ أدرك الدولة الاجل المحتوم . ففي غمرة النزاع بين الأمراء الصليبيين والاتراك في سورية والقواد المستبدين في العاصمة نفسها لم تهنأ البلاد بفترة من السلام الا على يد امير كفؤ مقتدر [كالملك الصالح] طلائع ابن رُزّيك الذي استدعته الى الحكم نساء الخليفة

«الظافر» المقتول في سنة ١١٥٤. ولكنَّ احدهم طعنه، بعد ست سنوات، بخنجره طعنة أردته قتيلاً. ولم يعد في طاقة العاضد، آخر الفاطميين، أن يدفع القوى المتفوقة، التي كانت لقواد السلاجقة المتغلبين في دمشق. فاضطر الى أن يعين أحدهم، شيركوه، وزيراً. وكان شيركوه هذا كردياً. وقد خلفه في الوزارة صلاح الدين الذي أزال، كما سوف نرى، آخر أثر من آثار سلطة الفاطميين الاسمية، بصورة رسمية.

وعلى الرغم من ضعف الفاطميين الذي أطلع رأسه، في سرعة، فقد استطاعوا أن يضمنوا لمصر عهوداً متطاولة من الرخاء العظيم، بفضل الادارة التي وضع أساسها الخليفتان الأوّلان. والواقع ان ابهة بلاطهم، المشفوعة بنظام للتشريفات دقيق إلى ابعد الحدود، لم يكن لها نظير عند أي من منافسيهم. وإن آثارهم العمرانية العظيمة، من مثل جامع الحاكم والجامع الازهر الذي لا يزال مزدهراً الى يومنا هذا كاعظم المؤسسات المدرسية في الاسلام، لتشهد للهمم العالية التي ابدعتها.

وأفلتت إفريقية، وهي الولاية التي ظهرت فيها الدولة الفاطمية، اول ما ظهرت، من قبضة الفاطميين بعد استقرارهم بمصر مباشرة. فقد أعلن يوسف بُلُكّين ابن زيري، أول ولاتهم على افريقية، استقلاله في سنة ٩٧٢، فلما كان عهد حفيده باديس اسس حمّاد، عم باديس، دولة جديدة في الجزائر. وفي غمرة من هذا الصراع المميت الذي استنفد المسلمون خلاله قوتهم، استولى النورمانديون على صقلية، عهدَ رُجار، واستولى الجنويون والبيزيون على كورسيكا وسَردانية، وكانت هذه الجزر كلها إلى المسلمين.

الفرس والأتراك

•

بين سكان التُبَّت والصين في الشرق ، والجنس الآسيوي القديم (السيبيري) في الشمال ، والشعوب الفنلاندية الاوغرية في الغرب نشأ الشعب التركي ، فوق سهول سيبيريا الشمالية الواسعة والبوادي القائمة بين بحر الخزر [قزوين] وجبال آلتاي ، من جماعة عرقية ولغوية لعلهـا كانت تنتظـم في العصور الاولية المغولَ والتُنْكُت ايضاً . وكان يتولى زعامة هذا الشعب، في العادة ، شخصيات حاكمـة كبيرة من مثل تلك التي نشأت بين ظهراني الشعوب ذات الوضع القبلي الابوي والتي كثيراً ما نلتقي بها حيناً بعد حين في تاريخ تلك المناطق. حتى اذا دخل الاتراك في طور التاريخ ، بعـد ان شرعوا في الاندفاع من سفوح تيان شان الى بوادي آسية الوسطى، كانت قدمت لهم خصائص عرقية متميزة يدعوها علماء الاجناس البشرية بالخصائص الطورانية. وبينا ظهرت الملامح المغولية بين اتراك الشمال احتفظت الفروع الجنوبية بشكل جسدي متناسب الاعضاء يميل الى الكبر بعض الشيء، ووجه متوسط الطول ، يتميز بانف مستقيم بارز ، وجبهة عالية شديدة

الانحدار ، وشعر كثيف .

اقدم الممالك التركية في آسية الوسطى وآسية الشرقية

وفي القرن السادس للميلاد اصبح للاتراك دولتان قويتان امتدتا من منغوليا وتخوم الصين الشمالية حتى البحر الاسود. فاما مؤسس الدولة الشرقية «بُومين» فتوفي سنة ٥٥٢، واما اخوه «إستمي» الذي دانت له الاصقاع الغربية فعاش منْ بعده نحواً من ربع قرن. ثم ان اسرة تانغ المالكة في الصين قضت على الدولة الشرقية حوالى سنة ٦٣٠، وعلى الدولة الغربية حوالى سنة ٦٥٩ . بيد ان اتراك الشمال ما لبثوا ان خلعوا نِير الاجنبي سنة ٦٨٢ ليحتفظوا باستقلالهم حتى سنة ٧٤٥ . والواقع أن أقدم اثر حفظته الايام من آثار اللغة التركية تلك النقوش الطويلة التي اكتشفت على ضفاف نهر أورخون في منغوليا ، على الضريح المشترك لاثنين من امراء هذه الدولة ، بِلْكا قاغان واخيه الاصغر كُلْتِكين، والتي ترقى الى سنة ٧٣١ وسنة ٧٣٤ ؛ وقد كُتبت بخط شبيه بالخط «الرُّوني» [الذي استعملته الشعوب الجرمانية حوالى القرن الثاني للميلاد] اقتبسوه عن الفرس واستنبطوه من الخط الآرامي. ولقد كانت كلٌّ من هاتين الدولتين البدويتين تنتظم بمجموعاتٍ قبلية غير مُحكمة التنظيم ، على رأسها خانات [امراء] يخضعون جميعاً لسلطة امير الحرب الاعلى ، ويدعى « قاغان » (خاقان) . وإنما ظهر « الخانات » من بين « باكوات » الاشراف الذين لا تزال عامة الشعب تخضع لهم طوعاً . ويُستدل من تنظيم الاعمال في هاتين الدولتين – هذا التنظيم الذي يمتاز بأوضاع والقاب ثابتة،

والذي ظلّ يُعمل بجزء منه في الدول التركية الاسلامية – أن الاتراك القدماء خطوا خطوات أولية في سبيل وضع مجموعة من القوانين العامة استعارها بعدُ خلفاؤهم في الحكم . كذلك نقل الصقالبة * هذا القانون التركي القديم عن الآواريين . وكانت الحياة القومية تتجلّى عندهم، أقوى ما يكون ، في الاعياد وما كان يرافقها من طَرَدٍ ، ومن غزو وسلب . وكان من أهمّ واجبات الامير أن يهيء لها بسخاء .

أما حياتهم الدينية فكان يهيمن عليها «الشامان» [الفقير أو الكاهن] الذي كان في ميسوره، من طريق غيبوبة كثيراً ما تكون مصطنعة ، ان يطرد الأرواح الشريرة المقيمة تحت الأرض، وان يستنزل البركة من روحي الارض والماء الخيرتين، وأرواح الاسلاف الطائفة في الجنة . ولم يكن أحد ليجرؤ على ان يتصل – من غير طريق «الشامان» – بالذات العليا ، السماء ، وهي الاله الذي برأ العالم ، والذي تخضع لحكمه الطباق السبع عشرة العليا الآهلة بالكائنات الصالحة . ولقد انتشر بين الاتراك قبل أن يفجأهم الاسلام [بقواه وتعاليمه] ايمان بقوة القضاء والقدر المتجسدة في العالم والزمان ، والتي كان يُعتقد ، بصورة شخصية خالصة ، انها تنضح بالحسد وبشهوة الانتقام من عظمة الانسان .

والواقع ان دولة من هذا الطراز لا يمكن أن تعيش إلا إذا قدّر لها زعيم حازم يجمع شتاتها ويستغلّ جيرانه من طريق الغزو وفرض الجزية . وحوالى سنة ٧٠٠ كان قد تمت للعرب ، عهد

* وهذا هو الاسم الذي اطلقه العرب على الـ Slavs (المعربان)

الامويين ، السيطرة على مراكز هذه الدولة الامامية المتطرفة في الغرب. وفي سنة ٧٤٥ سقطت المملكة الشمالية ايضاً في يد قوة تركية اخرى، هي قبيلة أويغور ، وكانت تـــنزل ، أصلاً ، الى الشمال على ضفاف نهر سَلِنْغَة. والحق ان هذه القوة التركية الجديدة سمحت للنصارى السوريـين من النساطرة والمُرْسلين المانويين الذين وجههم الصُغْد الى تلك الديار ، بالتبشير في البلاد الواقعة في حوزتها . ولقد استعاضوا عن الاحرف القديمة بشكل مستحدث من الأحرف الآرامية التي سادت من بعـــد في الدولة المغولية ايضاً . وفي سنـــة ٨٤٠ ، عندما قضى القيرغـــيز على امبراطورية الأويغوريين في الشمال هـاجر الاويغوريون الى المنطقة التي تؤلف اليوم تركستان الصينية ، والتي سبق للاتراك ان استقروا فيها من قبلهم. وهنا ظهرت بعثات التبشير البوذية أيضاً ، فتنافست والمبشرين النصارى والمانويين في إنشاء لغة قوية ومرنة لهؤلاء الأتراك ، على الرغم من ان هذه اللغة لم تُصطنع بادىء ذي بدء إلا في الكتب المترجمة . وفي سنة ١٠٢٨ قضى التَنْكـتيون على إحدى أمارتي الاويغوريين ، تلك التي كانت قائمة في كانشو ؛ في حين استطاعت الاخرى الاستمرار الى أيام المغول . وكان القيرغيز الذين سبق لهم ان اخرجوهم من ممتلكات أسلافهم قـد خضعوا قبل ذلك لسلطة قبيلة خِتاي[٢٧] المغولية. وتذهب الروايات الى ان سيّد [هذه القبيلة] قد طلب الى الاويغوريين – ذوي

(٢٧) وهو الاسم الذي لا يزال يطلق على الصين ، في اللغة الروسية ، الى اليوم .

المكانة إذ كانت لهم حضارة أكثر تقدماً –ان يعودوا الى منازلهم الأولى ، فلم يفعلوا . وبينا كان صنائع المملكة التركية الغربية لا يزالون في أوائل القرن الثامن يسيطرون على تخوم ايران ،كانت هذه البلاد قد خضعت قبل ذلك لحكم الامويين ، وقدمت لاسواق الرقيق عدداً من ابنائها لا يقع تحت حصر .ولقد أظهرنا في موطن سابق كيف تم لهؤلاء الاستيلاء على الأمر في بغداد ، أيام العباسيين ، وكيف استطاع أفراد منهم ، ان يبسطوا سلطانهم فترة من الزمان على أمصار اخرى ، أيضاً .

السامانية في خراسان

وكانت مراكز السامانيين السابقة – ما وراء النهر ، وبخارى وسمرقند – تتمتع بهدوء نسبي في ظل حكومتهم المستنيرة في القرن التاسع .وكان مؤسس هذه الدولة سامان خوداه (اي سيد قرية سامان في منطقة بَلخ) فارسياً اعتنق الاسلام في خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ – ٧٤٣) . وحوالى سنة ٨١٩ عيّن المأمون حفدة سامان الاربعة ولاة على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة ؛ وكانت ولايتهم أول الأمر من جهة آل طاهر . ثم إن أحمد،أمير فرغانة ،سعى الى ان يبسط سلطته على سمرقند أيضاً . حتى اذا كانت سنة ٨٧٥ أقطع الخليفة نفسه نصرَ بن أحمد ،إقليم ما وراء النهر ، فولى أخاه اسماعيل بخارى حيث وضع حداً للاضطراب السائد فيها منذ نشبت الحروب مع الصفارية ، وأكره أشرافها على الاستسلام . وفي سنة ٩٠٣ وُفق اسماعيل – بعد أن جرّد أخاه نصراً من كل سلطة فعلية – الى ان ينتزع

خراسان من عمرو [بن الليث] الصفّاري ، ويستولي على طبرستان إثر انتصاره على محمد بن زيد العلوي . حتى إذا جاء خلفاؤه من بعده فتحوا سجستان وجُرجان أيضاً ، ولكنهم خسروا طبرستان بعد ان استولى عليها آل بويه ، وتقلصت رقعة نفوذهم شيئاً بعد شيء في بلاد آبائهم وأجدادهم على يد الدولة التركية القومية التي أنشأها الإيلِك خانيّة * في تركستان ؛ وكان هؤلاء قد ظهروا بادىء الامر في المناطق الواقعة شمالي تيان شان وجنوبيها ، ثم اندفعوا من هناك في اتجاه الغرب .

الشعر الفارسي

وأياً ما كان ، ففي النصف الاول من القرن العاشر ، عهد نصر الثـاني (٩١٣ – ٩٤٢) ونوح الاول (٩٤٢ – ٩٥٤) ، كانت البلاد الواقعة في حوزة السامانية مركزاً لحضارة زاهرة . فقد كانت أراضي ما وراء النهر المنخفضة [الأغوار] ومياهها الغزيرة تُستغل من أمد بعيد وتدر محاصيل وافرة بفضل العناية المنظمة الحاذقة . وههنا تفتّح الوعي القومي عند الفرس من جديد بعد أن استعبدتهم سيادة العرب السياسية والدينية زمناً طويلاً . ومع ان الفرس تفوقوا على العرب في إدارة الدولة وفي النواحي الثقافية تفوقاً كبيراً ، منذ ابتداء الخلافة العباسية ، فقد كانت خدماتهم ومآتيهم ذات فائدة للعرب فيما بعد ، إذ لم يعد من الممكن إقصاء لغة التنزيل عن الشؤون العامة وعن الأدب جميعاً . بيد ان الفرس تذكروا ، هنا في الشرق ، لأول مرة ، شرف

* ويقال أيضاً « الايلاق خانية » و « الأفراسيابيون » . (المعربان)

لسانهم القومي وعظمته . وعلى الرغم من أن اشراف الفــرس من أصحاب الأراضي لم ينقطعوا يوماً عن العناية بمفاخرهم القومية في سيَر ملوكهم وأبطالهم ، وعلى الرغم من أن الشعب لم ينس، غير شكّ ، فن إنشاد الشعر، فالحق ان تلقيح هذا الارث الروحي، من جديد ، لم يتم الا في بلاط السامانيين وعلى ايديهم . ففي ظل نصر الثاني لمعَ الرُّودكي* اول شاعر غنائي فارسي وصلتنا عنه اخبار على شيء من التفصيـــل . وعلى الرغم من ان شعره لم يخْلُ من الكلمات العربية ، وعلى الرغم من ان الاوزان التي اصطنعها كانت كاوزان جميع شعراء الفرس من بعده ، مفرغـــةً في القوالب العربية ، فقد دعا في منظومه الى فلسفة في الحياة بعيدة عن الهمّ والغم ، ناضحة بالحبور، مستوحاةٍ ، على الرغم من وصايا الاسلام لا من حب النساء والغناء فحسب، بل من حب الخمر ايضاً. وكان الرودكي ، الى ذلــك ، مؤسس « الملحمة التعليمية » ** ، وهي أخصب فروع الادب الفارسي على الاطلاق . فقد سلك في نظام من الشعر الفارسي كتاب كليلة ودمنة الهندي القديم الذي سبق للامبراطور الساساني كسرى انو شروان (٥٣١ – ٥٧٩) أن أمر بَرْزَويه ، طبيبه الخاص ، بترجمته الى الفهلوية ، والذي نقله الى العربية ، في صــدر الدولة العباسية ، عبدالله بن المقفع ، الفارسي . كذلك نظم الرّودكي قصة السندباد والوزراء السبعة شعراً فارسياً. وفي عهد منصور بن نوح (٩٦١– ٩٧٦) ترجم الوزير

* ويقال ايضاً الروذكي (المعربان)

** epic - didactic.

البلعمي الى الفارسية كتاب الطبري الكبير في تاريخ العالم *
واضعاً بذلك حجر الاساس في علم التاريخ عند الفرس، هذا العلم الذي
قدر له بعدُ ان ينتهي الى غايات بعيدة من النمو والازدهار . اما
في حقول المعرفة العلمية الخالصة فالذي لا شك فيه ان العربية
احتفظت ، هنا في الشرق ايضاً ، بمقام الصدارة . وهكذا نجد
ابن سينا الفيلسوف والطبيب الشهير الذي بدأ انتاجه في عهد نوح
ابن منصور (٩٧٦-٩٩٧) ثامن الامراء السامانيين، يضع بالعربية
مؤلفاته الفلسفية وكتابه «القانون» الذي كان المرجع الاساسي
في علم الطب بأوروبة ، خلال القرون الوسطى ، والذي ساد فن
الشفاء برمّته ، في فارس حتى وقت قريب .

نشأة علم الجغرافية

وفي بلاط السامانيين بلغت الجغرافية العربية أوجها العلمي
ايضاً على الرغم من ان العرب قد تكشفوا قبل ذلك بزمن طويل
عن عناية خاصة بوصف البلدان يذكيها في جنوبي بلاد العرب
بخاصة اعتزاز بالحضارة التي تمت لتلك الديار قبل الاسلام، على
ما نرى في «صفة جزيرة العرب» الذي وضعه الهمْداني المتوفى في
سجن صنعاء ، سنة ٩٤٥ والواقع ان نظام البريد والاستعلامات
الذي اقتبسه الامويون عن ملوك الفرس الكبار وتعهده العباسيون
الأولون بالتجويد والتوسيع، كان قد قدّم للدولة منذ القرن التاسع
شبكة من المواصلات أفاد منها أصحاب الوظائف في الامبراطورية.
كذلك عنيت الكتب المؤلفة في الخراج بالتنظيم الامبراطوري .

---

* تاريخ الرسل والملوك (المعربان)

وفي بغداد، مركز التجارة العالمية في ذلك الحين، نشأ اهتمام كبير بشؤون البلدان والامبراطوريات والشعوب الاجنبية، برز بصورة خاصة في مؤلفات الجاحظ الجغرافية المفقودة. وفي بلاط اسماعيل الساماني (٨٩٢-٩٠٧) ألف الوزير الجيهاني كتاباً لم يصلنا ايضاً، استطرد فيه من بحث الضرائب الى وصف البلدان المجاورة. ثم إن أبا زيد البلخي، وكان في خدمة اسماعيل ببلخ، وضع مصوراً جغرافياً وجعله ذيلاً لأطلس إسلامي قديم موضوع على اساس كتاب اقتبسه الخوارزمي، قبل عام ٨٤٦، عن جغرافية بطليموس. والواقع ان كتاب أبي زيد هذا عُدّل فيما بعد ليطابق الأحوال في الامبراطورية الفاطمية، كما أضاف عليه أحد الأندلسيين إضافات جديدة تلائم بلاده. كذلك كان هـــذا الكتاب أساساً للأثر الكلاسيكي الذي وضعه المقدّسي، الفلسطيني، الذي أشاع الحياة، سنة ٩٧٨، في هذا المصور الجغرافي، بما وضعه عليه من دراسة بارعة، من الوجهة الادبية، ومواد جمعها من رحلاته الشخصية، حول البلاد الواقعة في حوزة كل من السامانيين والفاطميين. بيد أن المسعودي المتوفى في مصر سنة ٩٤٦ كان أوسع منـه أفقاً، فقادته شهوة الترحال، بطريق الهند، الى سيلان والبحر الصيني. ومع ذلك فلم يكن يعتبر نشاطه في ميدان الجغرافية إلا أساساً يقيم عليه مؤلفاتـه التاريخيـة المسهبة التي لم يصلنا منها غير نتف يسيرة، مع الاسف.

انهيار الدولة السامانية

وأخيراً انتهى أمر السامانية نتيجةً للآفة نفسها التي قضت على

العباسيين . ذلك انهم انتهوا الى ما انتهى اليـه العباسيون من الاعتماد على الاتراك ، كمصدر لا يزال بعيـداً عن النضوب ، في إمداد جيوشهم بالعناصر الجديدة ، بل لقد ذهب السامانيون من هذه الناحية إلى ابعد ، لما كان في حوزتهم من البقاع الشاسعة الآهلة بالأتراك . والواقع ان الاتراك مـا لبثوا ان نفذوا ، تدريجياً ، شأنهم في بغداد ، الى الرتب العليا في الجيش الساماني ، ومن ثمّ انتقلوا الى الادارة المدنية حيث أمسوا بعد برهة وجيزة خطراً على الدولة بسبب من السلطات الواسعة التي آلت اليهم . وكان عبد الملك الاول الساماني (٩٥٤-٩٦١) قـد عين المملوك التركي ، ألـبتـكين ، قائداً عاماً في خراسان ابتغاء اقصائه ، في الدرجة الاولى ، عن العاصمة ، بعد ان تعاظم فيها سلطانه الى حد بعيد. حتى اذا توفي عبد الملك انسحب ألبتكين الى غَزْنة ، في جبال سليمان بافغانستان ، وكان ابوه حاكماً عليها من قبل . بيد ان المنية عاجلت ألبتكين هذا قبل ان يمسي خطراً على السامانيين . ولكن مملوكه سُبكتكين ، الذي صار صهره فيما بعد ، لم يلبث ان طرد سائر ورثتـه وانشأ ينشر سلطانه من طريق الفتوح في الهند . ولقد وفق بادىء الأمر الى الاستيلاء على مدينة بُسْت في سجستان . وكان اميرها قد استعداه على رجل اغتصب عرشه ، فأعداه سبكتكين وقام بنصره . حتى اذا تخلف هذا الأمير عن اعطاء الجزية التي وعدَ بها لقاء تلك الخدمة خسر عرشه بالكلية . وكانت حمـلات سبكتكين أكثر نجاحاً في الهند ، حيث مهدت منازعات الامراء السبيل امام قواته فانتقل فيها من نصر الى نصر ،

ورجع بالغنائم الوافرة . والواقع انه شنّ حملتين مظفرتـين على ملك البنجاب ، جيبال ، فأكرهه على أن يتخلى له عن اقلـيم كابل الهامّ الواقع على الحدود والذي يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندي الخصيب . وهكذا اشتهر ببطـل الاسلام وهازم الكافرين .

محمود الغزنوي

وكان ابنه محمود ، الذي ولاه السامانيون خراسان سنة ٩٩٤ هو ساعده الأيمن في هذه الحملات كلها . وفي سنة ٩٩٧ توفي سبكتكين فخلفه ابنه الأكبر اسماعيل ، وكان مبذراً قليل الكفـاية . فلم يكن من أخيه محمود الا أن طلب اليه التنازل عن الملك ، فأبى . فلما كانت السنة التالية حمله على ذلك بقوة السلاح ، ورقيَ العرش متخذاً لقب السلطان بعد سبعة اشهر من وفاة أبيه . وفي السنة نفسها مات نوح الساماني أيضاً ، وخلفه ابنه منصور . فـأصدر محمود أمره اليه بوجوب التخلي له عن خراسان ، ولايته القديمـة ، ولكن منصوراً خُلع قبل أن يتم ذلك ، بعد ان سمل احد القواد الاتراك عينيه ، ورُفع أخوه عبد الملك الى عرش السامانية . وهنا صار في استطاعة محمود أن ينتحل صفة المدافع عن مبدأ « الشرعية » فطرد الثائر وسيده الجديد من بلخ واتخذها دار ملك له . والحق ان عبد الملك فرّ الى بخارى حيث ظفر به أيلك خان المتغلب على تركستان واقتاده الى الجرجانية (كُرْكانج) . وحوالى سنـة ١٠٠٤ قُتل المستنصر ، آخر السامانيين ، بعد عدة مغامرات مخفقة قام بها . ومهما يكن من أمر فقد نال محمودٌ اعتراف الخليفة الرسمي

بدولته ، وكانت لا تزال مفتقرة اليه ، ولقّب كذلك بيمين الدولة.

الفتوح في الهند

كانت حياة محمود الغزنويّ حافلةً بالمغازي المتواصلة . ولقد سار بجيوشه إلى الهند مرة بعد مرة ؛ ففي سنة ١٠٠١ تمّ له فتح كابلستان ، وبعد ذلك بقليل فتح ملتـان وقشمير وسعى إلى أن ينشر لواء الاسلام ويحله محلّ البرهمية في كل مكان . ثم انـه اضطرّ سنة ١٠٠٦ الى أن يدفع عن ممتلكاته الشمالية هجوماً شنه عليها ايلك خان ، فهزمه محمود هزيمةً منكرة في سهل بلخ. وعلى الاثر انقلب الى الهند يواصل فيها أعمال الفتح ، فأخضع البنجاب حيث استطاع اعقابه من بعده أن يثبتوا سلطانهم ، في عاصمتهم لاهور ، طوال مائة وخمسين سنة . ومهما يكن ، فقد اندفـع محمود في فتوحاته هذه بعيداً إلى ماوراء نهر الكنج ، ليختتم فتوحه في الهند سنة ١٠٢٥ باحتلال كُجَرات . وكان في الوقت نفسه قد بسط سلطانـه في الشمال واستولى على خوارزم في الشرق والكرج [جورجيا] في الغرب . وفي سنة ١٠٢٦ انتزع الريّ من مجد الدولة البويهي واقتاده إلى عاصمته ، غزنة .

البيروني

ولكنّ ذلك الجندي الجافي كان أبعد ما يكون عن العداوة لفنون السلم . فقد زين عاصمته بالأبنية الفخمة منتزعـاً عتبـات مسجده وقصره من اصنام هيكل سُومَنات البرهمي في كجرات بعد ان انتهبه سنة ١٠٢٦ ، وإذ قد حلّ الخراب بساحة المدينة ، بعدَ سقوط الدولة الغزنوية فلم يبق لنا من آثار محمود العمرانية

غير مئذنة جامعه ، وغير ضريحه الذي أمر الانكليز بنقل ابوابه الخارجية الى الهند ، سنة ١٨٤٢ ، ظناً منهم أنها كانت هي ايضاً جزءاً من هيكل سُومَنات في وقت من الأوقات . والحق ان محموداً عرف كيف يجتذب الى بلاطه العلماء والشعراء ، ايضاً . ففي السنوات الأخيرة من حياته كان في خدمته عالِمُ عصره العظيم وأحد كبار العلماء في الدنيا الاسلامية برمتها ، أبو الرَّيحان محمد البيروني الذي التحق به في غزنة سنة ١٠١٧ عندما استولى محمود على ممتلكات ولي نعمته سابقاً [أبي الحريص محمد بن علي بن] المأمون [آخر ملوك الدولة الخوارزمشاهية الاولى] . ومن غزنة قام البيروني بعدة رحلات علميــــة في الديار الهندية المفتوحة . ولقد تعلّم السنسكريتية على بعض العلماء الوطنيين ، ففتحت له هذه المعرفة مغاليق الثقافة الهندية الغنية من الوجهتين العلمية والدينية . حتى اذا كانت سنة ١٠١٧ شرع في تأليف كتابه الشهير عن الهند * الذي يُعتــبر ، بوصفه صورة كامــــلة عن عالمٍ ثقافي غريب ، نسيج وحده في الادب العربي ، والذي ادّى للدراسات الأوروبية خدمة جُلى ايضاً . وكان البيروني قد ألّف بجرجان سنة ١٠٠٠ ، وهو في رَيّق الشباب كتابــاً ** استعرض فيه تاريخ الشعوب كلها [٢٨] . وكان محمود ، بوصفه تركياً ، غيوراً على السنّة . ومن

* « تحقيق ما للهند » . (المعربان)

** « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (المعربان)

(٢٨) ترجم E . Sachau كتاب التاريخ الى الانكليزية واصدره في لندن سنة ١٨٧٩ ، كما ترجم كتاب (تحقيق ما) للهند في مجلدين صدرا سنة ١٨٨٨ واعيد طبعهما سنة ١٩١٠ بلندن ايضاً .

هنا آثر الادبَ العربي على الادب الفارسي الذي كان حملة لوائه من الشيعة في الأعم الأغلب . والواقـع أنه شنّ حرباً على اهل البِدَع جميعاً، فلم يكتف باضطهاد الاسماعيلية ، وهم اكثر الشيعة تطرّفاً ومغالاة ، بل عدا ذلك إلى اضطهاد الفقهاء من أصحاب النزعة الاعتزالية. والذي لا شك فيه أنه لم يفهم إلا قليلاً من كتاب « اليَميني » الذي تغنّى فيه العُتبيّ ، صاحب البريد في كَنَنْج رُستاق ، بمآتيه وبُطولاتـه . ذلك بأن هذا الكتاب يُعد من النماذج الاولى لذلك الاسلوب البلاغي ، التافه الى حـــدّ مُثير للاشمئزاز ، المثقل بالمحسنات البديعية ، الذي تطرّق ، في عصر الانحطاط هـذا ، من كتابات دواوين الفرس إلى كتب التاريخ العربية ، والذي اورث الاطنابَ في الشرق سمعةً غير صالحة .

الفردوسي

ولم يكن محمود بقادرٍ على ان يفهم شيئاً من شعر الفردوسي، شاعر الفرس الملحميّ الاكبر ، الذي سعى ، على غير طائل، الى كسب عطفه ونيل الحظوة عنده ، وكان واحـــداً من رعاياه. والحق ان الاساطير المتصلة بملوك الفرس وابطالهم كانت حتى ذلك الحين تُنقل بطريق الرواية ، في المحل الاول ، وان تكن آساسها قد وُضعت قبل ذلك في المؤلفـات النثرية الفهلوية التي نقلها ابن المقفع الى اللسان العربي ، جاعلاً اياها في متناول المؤرخين العرب وبخاصة الطبري. وفي سنة ٩٥٧ عهد موظف كبير يدعى ابا منصور المَعْمَريّ الى اربعة من الرجال في ان يعيدوا صياغة هذه الاساطير كلها في كتاب يضعونه نثراً باللغة الفارسية الحديثة لأبي منصور

ابن عبد الرزاق حاكم طوس، في خراسان ، آنذاك . بيد أن اولى المحاولات الى اخراج هذه الثروة الادبية في الثوب الفني الجدير بها كانت محاولة الشاعر دَقيقي الذي لمع في بلاط نوح ابن منصور الساماني (٩٧٦ – ٩٩٧) ، ولكنه قُتل بيد أحد الغلمان ، ولما ينظم إلا نحواً من الف بيت. وفي حوالي سنة ٩٩٠ نهض بالمهمة من بعده الفردوسي * ، الشاعر الطوسي ، وكان قد تخطى الستين ، فأتمها في احد عشر عاماً . والواقع اننا نقع في الشاهنامة (كتاب الملوك) على روح الاسلوب الملحمي الفارسي في قمة اكتماله ؛ وانها لتنكشف، برغم نمطيتها ورتابتها، عن عبقرية شعرية بارعة . ولقد رفع الفردوسي ملحمته هذه الى سيد بلاده، السلطان محمود ، بعد ان مجّده في مواطن كثيرة منها ذاهباً الى انه اشد الملوك بأساً وأرأفهم بالعباد. وطال انتظار الشاعر للجائزة المرجوّة . حتى اذا تحرك السلطان للانعام عليه لم تجد كفه بغير هبة حقيرة . فكان جواب الفردوسي هجاء لاذعاً قدّم به لملحمته الخالدة، معارضاً ابياتها التي تمتدح السلطان. ولكي ينجو الفردوسي من غضب محمود اتخذ سبيله في اتجاه الغرب، قاصداً بلاط بهاء الدولة البويهي في بغداد حيث نظم ملحمة « يوسف وزليخا » التي تداني الألياذة طولَ نفس، وتنهض دليلاً على النضارة النادرة التي يتميز بها قلب هذا الرجل المشرف على الثمانين. وعلى الرغم من أن ابياتها تجري في سهولة ورشاقة ، من قلمه ، لما تيسر له من طول المزاولة والاختبار ، فهي تعتبر ، عند الفرس ، دون الشاهنامة جودة

* « فردوسي » من غير تعريف ، عند الفرس . (المعربان)

ومكانة. ولكن الشاعر العجوز لم يلبث ان ضاق ذرعاً بالعراق وحياته التي تغاير كل المغايرة الحياة في بلاده ، فقفل الى بـــلده ، طوس ، بعد ان استوثق من عفو السلطان محمود . وهناك توفي بعد سنة ١٠٢٠ بقليل . والحق ان آثار الفردوسي التي تستغرق ، في نظام شعري كامـــل ، جماع ذكريات الفرس الاسطورية والتاريخية والتي تلتزم أبداً ، رغم ضخامتها (إذ تبلغ نحواً من ثمانية أضعاف الألياذة) اسلوباً واحداً لا يتغير ، – إن هذه الآثار ليعتبرها الفرس ، بحق ، اعظم الروائع الشعرية في ادبهم كـــله . ولقد ظل اسلوب الفردوسي مثلاً يحتذى في شعر الفرس الملحمي برمته ، ثم في شعر الاتراك ايضاً . ومن هنا كان طبيعيــاً جداً أن تحتفل الامة الايرانية ، وقد تفتح عندها الوعي القومي في ظل الشاه رضا بهلوي ، بالعيـد الالفي لشاعرها الاكـــبر سنة ١٩٣٤ . والحق ان هذا التاريخ قد اختير اختيـاراً تحكمياً ، او يكاد ، بالنظر إلى تضارب الروايات في تعيين السنة التي توفي فيها الشاعر .

السلاجقة

وإذ قد أظهر البويهيون عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الامبراطورية ، فلم يلبث الفرس ، هنا ايضاً ، ان طردوا على يد الاتراك. ذلك ان عشيرة جديدة نجمت بين الدولة الأيلكخانية بتركستان وسلاطين غزنة ، ثم تعاظمت قوتها حتى لقد انتهت الى السيطرة على الشرق الأدنى بكامله . فحوالى سنة ٩٧٠ خرج سلجوق ، مُقدَّم الغُزّ ، مع عشيرته من بادية القيرغيز إلى جَنْد ،

حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (أرال)* ، ومن ثم انتقلوا إلى بخارى . ويتألف الغز ، الذين دعوا ايضاً التركمان بعد دخولهم في الإسلام ، من مجموعة العشائر الكبرى التي أسست المملكة الشمالية في القرن السادس ، وما فتئت تتنقل منذ ذلك الحين في اتجاه الغرب . حتى إذا اعتنق هؤلاء الاتراك الاسلام انحازوا إلى السنة التي كان فحوى معتقدها الواضح الرصين يتلاءم وعقولهم البسيطة ، فأقبلوا عليها واعتنقوها بكل ما في نفوسهم الفظة من قوة وحماسة . ثم ان عشيرة سلجوق شاركت في الحروب القائمة بين السامانيين والقراخانية كما شاركت بعد ذلك في الحروب الناشبة بين الدولة الأيلك خانية والدولة الغزنوية . ليس هذا فقط بل لقد شن السلاجقة غزوات مستقلة حملتهم في اتجاه الغرب حتى آذربيجان والعراق . وفي سنة ١٠٤٠ انتزع طغرلبك محمد وجغري بك داود ، حفيدا سلجوق ، خراسان من مسعود بن محمود الغزنوي بعد ان أخفقت محاولتهما إلى الاستيلاء على سمرقند وبخارى ، فخطب لداود في مرو ، وخطب لطغرلبك في نيسابور . واذ لم يلبث الخلاف ان نشب بين الغزنويين أنفسهم ، فقد وفق السلاجقة إلى بسط سلطانهم على حساب غزنة ، فاحتلوا خوارزم وطبرستان . وفي سنة ١٠٤٣ احتلوا عراق العجم (الجبال) نفسه . وبعد جهد يسير استطاعوا القضاء على الدولة البويهية بفارس . وكانوا كلما تقدموا غرباً اتخذوا حاضرة جديدة أقرب الى العراق ؛ ولقد وقع اختيارهم على الري اولاً ، وعلى إصفهان

* وتسمى أيضاً بحيرة الجند . (بفتح الجيم) . « المعربان »

بعد ذلك .

وكان طبيعياً أن يرغب الخليفة العباسي « القائم » (١٠٣١ - ١٠٧٥) في ان يستبدل حماية هذا السلطان ، المتغلب حديثاً على بلاد الشرق ، بحماية الملك البويهي " الذي كان أحد قواده الاتراك ، واسمه البساسيري ، قد جرّده من السلطة كلها . فلما كانت سنة ١٠٥٥ وانتهى طغرلبك إلى حلوان ، استنجد به القائم وأمر بان يُخطب له في جوامع العراق . أما الملك الرحيم ، آخر ملوك البويهيين ، فتوفي في سجن بالرّي سنة ١٠٥٨ . ولكنّ السلاجقة لم يستطيعوا إخضاع البساسيري في سهولة ويسر . وتفصيل ذلك ان البساسيري فرّ الى الشمال فتعقبه طغرلبك حتى الموصل . وهنا انفصل عنه اخوه لأمّه ، ابراهيم بن ينال ، وانقلب الى همذان . فلم يكن من طغرلبك إلا أن سعى إلى إخضاعه ، فلم يتمّ له ذلك إلا بعد أن انجده ألب ارسلان ، ابن اخيه داود ، وكان حاكماً على سجستان . وهكذا لقي ابراهيم حتفه ، في ٣ آب سنة ١٠٥٩ ، جزاء وفاقاً على خيانته . وعرف البساسيري كيف يفيد من هذا النزاع فحازَبَ قريشَ بن بدران ، أحد امراء الدولة العُقَيلية العربية ، واستولى على بغداد بعد ان خلت ممن يحميها من الجند. و[استذم" الخليفةُ من قريش بن بدران بذمام الله ورسوله وذمام العربية] فأعطاه ذلك وسار به الى عانة في بلاد الجزيرة ، بينا خطب البساسيري للمستنصر الفاطمي [وهتف باسم آل البيت] على منابر المدن التي آلت اليه . ولم يكد طغرلبك يقضي على حركة ابراهيم بن ينال حتى أعاد الخليفة الى بغداد ، فخلع عليه ، جزاء ما

اسدى اليه من خدمة ، لقبَ ملك الشرق والغرب. وفر البساسيري الى واسط حيث قتل في معركة خاضها ضدّ جيوش السلاجقة ، أوائل سنة ١٠٦٠ .

وفي سنة ١٠٦٣ توفي طغرلبك فخلفه ابنُ اخيه ، ألب ارسلان ، الذي كان في السنوات الاخيرة من حيـاة أبيه ، داود ، على رأس الحكم في البـلدان الخاضعة له . ولقد كان عليه بادىء الامر ان يقمع ثورة ابن عم ابيه [قُتَلْمِش] الذي عارضه في الملك . حتى إذا تمّ له ذلك شرع يوسع حدود مملكته من جهاتها جميعاً . ففي الشرق اخضع إمارة سُبران بين بُست وكابُل . وفي الغرب قاد بنفسه النضال ضد البيزنطيين غير مرة ، وان لم يوفق الى تحقيق أيّ نصرٍ دائم في هذه الجبهة . ذلك بأنـه هزم جند الروم في ملازِ كرْد ، وأسر امبراطورهم رومانوس ديوجين ، يوم ٢٦ آب سنة ١٠٧١ . حتى اذا أطلق سراح رومانوس لم يكن في ميسوره انفاذ احكام الصلح التي أقرّها ، لأنّ عرش الروم كان قد آل ، في الوقت ذاته ، الى الامبراطور ميخائيل السابع . ولكن ألب أرسلان استطاع ان ينتزع من الفاطميين ما في يدهم من البلاد حتى دمشق . وفي كانون الاول سنة ١٠٧٢ عبر نهر جيحون في حملةٍ أراد بها استرجاع موطن آبائه ، فقتله أحـد الثوار الذين اعتزم أن يُنزل بهم عقوبة الموت .

ملكشاه والوزير نظام الملك

وعهد ألب ارسلان في الوصاية على ابنه ملكشاه ، ولم يكن

قد بلغ الحلم بعدُ، الى الوزير نظام الملك الذي سبق له أن خدم اباه*
كوالٍ على خراسان. والواقع أن ملكشاه حاول غير مرة أن
يتحرَّر من نفوذ هذا الوصي ويضع حداً لسلطته المطلقة، على الرغم
من انه مدينٌ له بتثبيت عرشه واخضاع الثائرين من افراد بيته .
ولكن التوفيق لم يحالفه في ما قصد اليه. ولقد تفرد نظام الملك
ايضاً في تعيين الموقف الذي اتخذه من الخليفة، ووضع قصر الخلافة
تحت مراقبة موظفين ممالئين له. حتى إذا اصطدم بمعارضة الخليفة،
سنة ١٠٨٣، انتقم لنفسه بان عادى ابن مروان، صاحب ديار بكر،
آخر العمال الذين كانوا يخضعون للخليفة مباشرة. وفي ظل نظام
الملك نعمت فارس والعراق، من جديد، بفترة من الرخاء الى حد
ما، وإن يكن الوزير – او الاتابك، كما كان يدعى بوصفه وصياً على
السلطان – مديناً بشهرته، في المحل الاول، لما أسبغه من عطف
على الفقهاء والعلماء، وما ضمنه لهم من موارد بانشاء المدارس في
جميع المدن الرئيسية، في الامبراطورية . صحيحٌ ان ثمة ما يدل
على أن فارس قد عرفت امثال هـــذه المنشآت ابتداء من آخر
القرن العاشر، ولكنها انما حظيت بعطفٍ خاص من هذا الوزير
السلجوقي الذي انشأ «النظامية» الحاملة اسمه، في نيسابور ثم
في بغداد بين سنة ١٠٦٥ وسنة ١٠٦٧ وبينا كان وزير طغرلبك
لا يزال يضطهد، في حماسة، فقهاء الأشعرية الذين عني زعيمهم [ابو
الحسن] عليّ الأشعري المتوفى سنة ٩٣٥ بالتوفيق بين منهج المعتزلة
الكلاميّ وبين تفكير السنّة، نجد نظام الملك يشجع هذه النزعة

* اي أبا «ألب ارسلان» .

الجديدة بالذات ، ويؤيدها دون غيرها .

الغزالي

وبرعاية نظام الملك أتمّ الغزالي ، آخر مفكر ديني كبير في الاسلام ، رسالته في المدرسة النظامية بنيسابور أولاً ثم في نظامية بغداد. وانما بدأ الغزالي حياته العلمية بدراسة عميقة لمذاهب علماء الكلام الشرعية الفقهية ثم بعرضها في سلسلة مشرقة من كتب التدريس . حتى إذا قُتل وليّه ونصيره ، نظام الملك، بخنجر أحد الاسماعيلية المتعصبين، عكف على دراسة العقائد الاسماعيلية ليكتب بعدُ عدداً من المباحث الجدلية في نقدها وتفنيدها . ولقد قادته هذه الدراسة إلى الاستبحار في عالم الفلسفة أيضاً. ولكن أياً من هذه المذاهب والمعتقدات التي «خاض غمراتها خوضَ الجسور» لم يرو تعطشه الى «دَرك حقائق الامور» ، فتخبّط برهةً في دياجير شكوكية حادة ظهر استعداده لها منذ شبابه الاول . وفيما هو يجوز هذه الازمة الروحية تمت له تجربة دينية حاسمة. فكما تحرّك النبي لاداء رسالته بدافع الخوف من الحساب المرتقب يومَ الحشر هكذا عصفت بالغزالي أعاصير من الأسئلة حول الآخرة والبعث. فلما كانت سنة ١٠٩٥ اعتزل منصبه السامي ببغداد وطفق يتنقل في البلاد ، ابتغاء إعادة النظر في معتقداته جميعاً ، بعد أن أمسى نهباً مقسّماً بين الايمان والعقل . واجتذبته الصوفية إلى ساحتها ، شيئاً بعد شيء ، حاملة الى قلبه اليقين الديني من طريق التجربة الشخصية. والواقع أنه سلخ احدى عشرة سنة في عزلة هادئة ، كان معظمها في الشام ، كتب إبانها كتابه «إحياء علوم الدين» الذي أذاعه

في الناس في مستهلّ القرن الخامس للهجرة (حوالى ١١٠٦ م) .
ذلك ان بعض الأحاديث المروية عن الرسول تذهب الى أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدّد للامة الاسلامية أمر دينها؛ وقد استشعر الغزالي أنه مدعوّ لهذه المهمة؛ فواصلَ ما كان الأشعري قد بدأه من التوفيق بين علم الكلام والفقه، مُهيئاً لصرح العقيدة الاسلامية أساساً قائماً على الاسلوب الجدلي . ثم إنه نزل عند رغبة السلطان محمود السلجوقي (أخي بَركيارُق) الذي رقي العرش سنة ١١٠٤ ، ووزيره فخر الملك بن نظام الملك ، فعاود التدريس في نيسابور فترة يسيرة، فزع بعدها إلى العزلة في مسقط رأسه ، طوس ، حيث توفي وليس له من العمر إلا أربعة وخمسون عاماً، في ١٩ كانون الاول سنة ١١١١ . ومع أن معاصريه لم يفهموا آثاره فهماً صحيحاً ، في جميع الأحوال، (ففي الاخبار مثلاً أن المتعصبين من أهل السنة في الاندلس أحرقوا كتبه)، فالواقع انها حظيت عند الاجيال التالية بمحلٍّ عظيم ، وكانت بمثابة خميرة أفاد منها الأسلام في سيره بعدُ نحو التطوّر والتجديد .

عمر الخيام

وإلى جانب هذه العناية بالدراسات الفقهية في عصر السلاجقة نجد اهتماماً بالغاً في العلوم الطبيعية والرياضية أيضاً . وحسبنا أن نذكر في هذا المعرض الرياضي الشهير، عمر الخيام ، وهو مواطن للغزالي توفي في أغلب الظن سنة ١١٣٢ . فقد كانت دراساته في علم الجبر أول محاولة ناجحة لحل المعادلات التكعيبية (وقد ميز منها ثلاث عشرة) ، ولم يحلها حلاً جبرياً فحسب، بل حلاً هندسياً ايضاً .

والواقع أن شهرته البعيدة كرياضي حملت السلطان ملكشاه جلال الدين على ان يعهد اليه في إصلاح التقويم، فوضع عمر التقويم الجلالي الذي لم يكتب له النجاح ولم يعم استعماله، على الرغم من انه، بلا شك، أدقّ من التقويم الغريغوري المألوف. اما شهرته في اوروبة فتقوم في المحل الاول على الرباعيات الفارسية الثاقبة، المقرونة باسمه، التي تدعو في خفة حيناً وفي جد حيناً آخر، الى الاستمتاع بمباهج الحياة، وتذيب آساس الاسلام في وحدة وجود صوفية. والحق ان رباعيات الخيام حظيت، سنواتٍ طوالاً، بشعبية كبيرة في العالم الانكلوسكسوني، بعد ان نقلها فيتزجرالد*، بتصرف، الى الشعر الانكليزي، في حين كان الفضل في تعريف الالمان بها للرجل السياسي روزن**. وعلى الرغم من ورود كثير من هذه الرباعيات في دواوين شعراء آخرين فقد انقضى عهد طويل قبل ان يساور الباحثين الشك في صحة نسبتها الى عمر الخيام. اما وقد وقفنا اليوم على مؤلفات الخيام الموثوقة في الفقه وما وراء الطبيعة فلم يبق محل للريب في ان ما تمثله هذه الرباعيات من استشراف للحياة لا يمكن ان يُعزى اليه.

القصص والمقامات

وفيما فرغ الفرس في هذا العصر الى الخوض في مشكلات الدين والعلم، كان رجل من العرب يبدع كتاباً استغرق من جديد دقائق المعاني في اللسان العربي جميعاً. ذلك ان النثر العربي

---

* Fitzgerald

** Fr . Rosen

القصصي الذي استطاع في الجاهلية، ان يصف لنا تلك المنازعات الصغرى الناشبة بين القبائل في صور غنية بالوقائع ، ولكن يعوزها التماسك ، انما تكشّف عن براعة ايضاً في استعراض الاحداث الكبرى التي تمت عصرَ الفتوح الاسلامية ، وتصوير النزاع على السلطة بين الاحزاب الاسلامية نفسها . ولقد رأينا آنفاً انه لم يكن بدٌّ ، بادىء الامر ، من المؤثرات الثقافية الفارسية لتحويل هذه الصور القصيرة النفَس الى قصة مديدة مترابطة لتاريخ الامبراطورية . والواقع انه نشأت في العصر الاموي ، بالاضافة الى الاخبار المروية عن الغزوات والحروب ، مجموعة من الاخبار عن اشهر العاشقين كانت اساساً لعدد من الحكايات القصيرة التي فُصّلت بعدُ أحسن تفصيل وأروعه . ولكن مهمة العناية بهذه الحكايات تُركت ، على الجملة ، للقصّاص من العامة ، باعتبار ان ذلك الصنيع لا يليق بالطبقة المثقفة من الأمة. والحق ان نماذج من هذا الفن نقلت الينا من طريق فقهاء اللغة دون غيرهم ، لِما لمسوا من فائدتها في شرح القصائد التي كانوا ينقلونها من جيل الى جيل . كذلك ادخل الفرس ، في عهد مبكر ، شيئاً من ادب الهند القصصي الخصب الى الثقافة الاسلامية . ولكن كل ما نعلمه اليوم من هذه الآثار القصصية الوفيرة لا يعدو اسماءها المحفوظة لنا في كتاب الفهرست [للنديم] الذي يرجع الى اواخر القرن العاشر للميلاد . ولم يصلنا الا جزء من هذه المادة الواسعة في مجموعة الف ليلة وليلة التي لم تنشأ حتى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وفي القرن التاسع كان الاحتفال باللفظة نفسها

لا يزال يطغى على كل اهتمام آخر في صناعة الادب . وانما يتمثل ذلك ، بخاصة ، في مؤلفات الجاحظ (وكان جمّاعة) المتوفى في بغداد سنة ٨٦٩ ، فهو لم يستطع ، حتى في كتاب « الحيوان » الذي الّفه في شيخوخته، وعلى الرغم مما بذله فيه من جهد موفق لتشويق قارئيه الى المسائل العلمية ، ان يعلو على جمع غير منتظم للتفاصيل المختلفة ، فدوّن رسائل وكتباً عديدة حفلت بالنوادر الطريفة الهادفة الى تصوير مختلف الطبقات الاجتماعية ، وضروب الطبائع البشرية. وكما كان البيت الفرْد اعظم شأناً عند الشاعر القديم من تماسك القصيدة وترابطها، كذلك اعتقد الجاحظ وقراؤه ان فقرات الحكاية المفردة أحق بالعناية من بناء الحكاية ككلٍّ. والواقع ان الاحتفال باللفظة البارعة الصياغة كان قد انتهى بفن المناظرة الى غاية من الكمال بعيدة، حتى عند الاعراب. وكان من نتيجة هذه الصناعة البلاغية ايضاً الادب الفهلويّ الدائر على محور التاريخ ، هـــذا الادب الذي زفّه ابن المقفع الى العرب بلسان عربي مبين. ولقد ازدهرت هذه الصناعة في المواعـظ الدينية وكتابات الدواوين السياسية في ظل الخلافة العباسية، وبخاصة في بلاطات الدويلات التي قامت على انقاضها. وعلى ايدي البروليتاريا الادبية التي نشأت في الحواضر ، وفي دوائر طلاب المناصب المخفقين ، انحدر هـذا الفن من تلك الدائرة الرسمية الى بلاغة مسجوعة كانت تساعد تلامذة فقهاء اللغة في تطوافهم من مكان الى مكان على ان يكسبوا عطف وليٍّ مثرٍ ، او أن يجدوا في ظله راحة قصيرة ، على الاقل. ولقد دُعيت خطب الكدية هـذه « مقامات » ، وهو اصطلاح كان

يطلق من قبل على المواعظ الدينية. فمنذ النصف الثاني من القرن العاشر وُفق بديع الزمان الهمذاني، وكان يطلب الرزق عنـد صغار الامراء الفرس، الى أن يسمو بهذا اللون من القول الى مرتبة الفن الادبي. فهو يُسمعنا على لسان راويته حكايات قصيرة تتدفق تدفقاً مسرحياً في نثر بارع السجع، عما وقع لاحد الادباء الضاربين في الارض من نوادر شهدهـا هو بنفسه. ولكن بينا اصطنع الهمذاني هذا الشكل الموحد ليعبر بواسطته عن اغراض متباينة الى ابعد الحدود، نجد الحريري الذي جرى على آثاره بعد مائة عام تقريباً يأخذ نفسه بتصوير هذه المشاهد دون غيرها. والحق ان الحريري كان على خـلاف سلفه الذي عرف كيف يفيد من خبراته الشخصية كاديب متجول - بَرْجاسياً ** موسراً، وكان «صاحب الخبر» بمسقط رأسه، مَشان البصرة، حيث توفي سنة ١١٢٢. ولقد حظيت مقامـاته التي تروي مغامرات ابي زيد السَروجي بنجاح عظيم. وعلى الرغم من انه كان دون بديع الزمان في القدرة على التخيل فقد فاقه في اصطناع الانشاء البديعي المتكلف الذي امسى منذ ذلك الحين صفة لازمة لهذا الفن. ومن الخير ان نشير هنا الى ان مقامات الحريري وجدت من يقلدها في الآداب الاجنبية، من مثل اليهودي الاسباني «الحريزي» في العبرية، و «عبد يشوع»، أسقف نصيبين في السريانية، كما وجدت خير مرآة لها في اللغة الالمانية على يد روكرت* في كتابه «مغامرات

** bourgeois

* Ruckert

ابي زيد السروجي» * ولقد ظل العرب يرون في مقامات الحريري وقصائد المتنبي أكمل تعبير عن روحهم، حتى مطلع العصر الحديث.

الادارة في امبراطورية السلاجقة

ونحن مدينون للوزير نظام الملك برسالة رائعة كشف فيها النقاب عن مساوىء الادارة في الامبراطورية السلجوقية، حتى في عهد نظام الملك نفسه. ولقد وضعت هذه الرسالة باللغة الفارسية تلبية لرغبة السلطان قبيل وفاته سنة ١٠٩٢، ولكنها لم تنشر الا بعد اثنتين وعشرين سنة. وإذ قد افترض المؤلف ان قارئه على علم بالاحوال السائدة آنذاك، فلسنا نقع في الرسالة على ما يبصّرنا كثيراً بتنظيم الدولة الداخلي. والواقع انه يحذّر السلطان من تدخل اصدقائه الشخصيين تدخلاً غير مسؤول في شؤون الدولة، مقترحاً في الوقت نفسه اعادة انشاء المؤسسة البريدية القديمة وحمل أصحاب البريد على تزويد الحكومة بالانباء (وكان الب ارسلان، ابو السلطان، قد الغاها)، ومطالباً بتشديد الرقابة من طريق العيون ورجال الاستخبارات السريين. والذي يظهر ان القضاء كان في حال خطرة: فقد حذّر من انتداب احد مماليك البلاط للنظر في الدعاوى وإصدار الأحكام لأن هذا المملوك خليقٌ بأن يستغل سلطته بابتزاز رسوم باهظة متباينة. وهنا نلمح اثراً آخر من آثار القاعدة الفاسدة التي كان الاتراك القدماء يعملون بها، فيعهدون في شؤون القضاء الى موظفين يعينهم الامير، على الرغم من ان نظام الملك لم يستطع أن يحول بين القضاة

Verwandlungen des Abu Said von Serug *

المعدّين إعداداً شرعياً ونزوعهم الى استغلال مناصبهم . كذلك حذّر نظام الملك ، بحقّ ، من تضخم الوظائف ، وهي حال كانت قائمة في ايام العباسيين . وهو يعرّفنا ، في الحقـل العسكري ، بحقيقة هامة هي وجود الجيوش الاقطاعية الى جانب المرتزقة . والحق ان نظام الملك ، الذي لم يشغل نفسه ، على العموم ، بتحرّي الوقائع التاريخية ، قد أخطأ عندما اعتبر هذه النزعة ظاهرة جديدة بالكلية . فقد كانت قائمة ، على كل حال ، في عهد العباسيين ولو في شكل استثنائي . والمفروض انها لم تعرف في الدولة الغزنوية . أما في عهد الاتراك في الغرب وبخاصة العثمانيين ، فقد انتهت هذه الظاهرة بعدُ إلى أن تكون اساساً لبناء الدولة كله . ثم ان نظام الملك أشار بضرورة تحديد الأراضي التي يُقطعها السلطان تحديداً دقيقاً ، وقال بأقطاعها الى أجل مسمى . وأخيراً اضاف ، قبيل مقتله ، فصلاً جديداً نبّه فيه السلطان الى خطر الأسماعيلية على امبراطوريته .

ووسع ملكشاه حدود امبراطوريته أيضاً . وفي سنة ١٠٨٩ — ١٠٩٠ أخضع سمرقند وكاشغر . ليس هذا فقط ، بل لقد انتزع سورية من الفاطميين بالكليّة ، فنشأت في دمشق وبيت المقدس إمارتان ثانويتان خاضعتان لسلطانه . وتوجه ابن عمه سليمان بن قُتُلمش إلى آسية الصغرى ابتغاء الفتح . وسنعرض بعدُ لما جرى هنالك من أحداث .

الحشاشون

وفي عهد ملكشاه عرفت الامبراطورية عدواً داخلياً قُدّر

له ان ينشر الذعر في ربوع الشرق الأدنى ، سنوات طـــوالاً .
والواقع أن نظـــام الملك لم يحذّر السلطان من مكائد الطوائف الشيعية لغير ما سبب. ذلك بأن التشيّع ، الذي بدأ اول ما بدأ حزباً سلالياً خالصاً انضوى تحت لوائه الداخلون حديثاً في الاسلام ليناضلوا ضدّ السيادة العربية ، كان في كثير من الاحيان ستاراً يستخدمه الانتهازيون الذين لا ذمة لهم ولا ذمام، لتحقيق اهدافهم الانانية الصرفة ، المناهضة للحكومة. وكان في جملة دعاة الشيعة المتنقلين في البلاد، في عهد ملكشاه ، لاجتذاب الغوغاء من طريق التبشير بقرب ظهور المهدي الذي سينتقم لهم من حكامهم الظالمين، رجلٌ يدعى الحسن بن الصبّاح. والاسطورة تتحدّث عن الصداقة التي كانت تربطه ، أيام الشباب الأول ، بالوزير نظـــام الملك والرياضي الكبير عمر الخيام. ثم انه رحل الى مصر حيث استهوته الدعوة الفاطمية وانحـاز الى صف نزار ابن الخليفة المستنصر ، ولكن نزاراً هذا لم يوفق الى ارتقاء العرش . ومن هنـا عُرف اتباع الحسن بالنزارية ايضاً ، وفي سنة ١٠٩٠ عـــاد الى فارس كداعية من دعاة الفاطميين فعسكرَ مع عصبة قليلة من اتباعـه أمام قلعة ألموت الجبلية «ملجأ العقبان»، وتقع في ناحية روذ بار على مسافة ستين فرسخاً الى الشمال من قزوين [٢٩] ، وعاد قائـد حاميتها من قبل ملكشاه الى ان يقسم يمين الولاء للمستنصر. حتى

---

(٢٩) انظر إيفانوف W. Ivanow in *Geographical Journal*, 1931 L X X X V I, 38 - 45.
وراجع ايضاً . *Islamic Culture* XII , 1938 , 383 , 392.

اذا رفض القائد ذلك هاجم الحسن القلعة واتخذها قاعدة لقواته.
والواقع أنه نظّم جماعته، على الطريقة الفاطمية، وجعل اتباعه درجات، منهم المقربون ومنهم مادون ذلك. وبينا كان افراد الطبقة الأكثر اتصالاً به يحيون حياةً إباحية لا يحدّ منها أيٌ من قيود الأخلاق او الدين، كان اتباعهم يُنشأون على اشد التعصب واغلظه.
وكان المقدّمون في الجماعة يُدخلون في روع هؤلاء الاتباع ان في قتل رجل من اعداء الايمان الحق، اذا اشار به زعيمهم، مايكسبهم رضواناً من الله، ويدخلهم جنات النعيم. وكان هؤلاء الفتاك يدعون «الفدائيين او «الحشاشين» (ومن هنا اسمهم في اللغات الاجنبية assassins)
والحق ان تعاطي المنبهات كان فاشياً في الحلقات الصوفية في غير هذا الموطن ايضاً. ففي القرن السادس عشر استعملت القهوة لمثل هذه الاغراض في بلاد العرب الجنوبية. وهكذا فليس بعيداً ان يكون ما نقله سائح البندقية العالمي ماركوبولو عن هؤلاء الحشاشين —وقد مرّ في منطقة ألموت بعد مائتي عام تقريباً (١٢٧١ او ١٢٧٢) مجرد خرافة. فقد اورد هذا السائح ان الفدائيين كانوا يُحملون اثناء تناولهم الحشيش، الى جزء من حدائق ألموت الغناء الغاصة بالكواعب الحسان، ليكون في ذلك ما يدفعهم الى إنفاذ ارادة الزعيم، بعد ان يتذوقوا طعم اللذات التي تنتظرهم، في العالم الآخر حيث يتبدلون بهذه الحدائق والكواعب جنات خالدات تزهو بالحور العين. ومن قلعة ألموت وفقت هذه الجماعة الى الاستيلاء على حصون اخرى في فارس وسورية خلال فترة قصيرة من الزمن. وأخفقت جميع محاولات الدولة السلجوقية الى القضاء عليهم. حتى اذا

كانت سنة ١٠٩٢ أنفذ الحشاشون حكم الموت في نظام الملك ،وان يكن ثمة مجالٌ للاعتقاد بأن السلطان نفسه كان على علم بالمؤامرة بعد أن بلغ سن الرشد وضاق ذرعاً بنفوذ وزيره المتعاظم ، وسلطانه المطلق . واياً ما كان ، فقد توفي السلطان ، بعد مصرع الوزير بشهرين ، إلا قليلاً .

في ظل بر كيارق وأخيه محمد

وكان على السلطان بَر كيارُق ، الذي سماه ملكشاه لخلافته ، ان يحامي عن حقوقه ، بادىء الأمر ، ضد أمّ اخيه ، محمود ، وليس له من العمر غير أربع سنوات ، وضد عمه ُتتـُش [بن ألب ارسلان] صاحب دمشق . وفيما كان هذا الصراع قائماً أظهر الخليفة المقتدي استعداده للاعتراف بمحمود سلطاناً ، ولكن بر كيارق لم يلبث أن أحرز النصر على أشياع أخيه سنة ١٠٩٢ ، وانتقم من المقتدي بقتله . أما نضال بر كيارق ضد عمه ُتتـُش فتطاول سنة أخرى ، ولم ينته إلا بعد معركة قتل فيها هذا الأخير قرب الري بفارس ، وكان قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الفراتية ، وأكره المستظهر العباسي على إقامة الخطبة باسمه [اي باسم بر كيـــارق] في المساجد . بيد أن الأمر لم يستقم لبر كيارق ، فخرج عليه نفرٌ آخرون من ذوي قرباه . وتفصيل ذلك ان عمه أرسلان أرْغون أعلن استقلاله بخراسان ، ولكن مملوكاً من مماليكه اغتاله سنة ١٠٩٦ فانتظمت البلاد في الامبراطورية ، كـرةً اخرى . وفي سنة ١٠٩٩ خرج عليه أخوه محمد ، وكان أميراً على آذربيجان ، يسانده أخوه الثالث سنجر ، وكان بر كيارق قد عينه أميراً على

خراسان ، وأكرهاه على الفرار الى جبال دامغان بعد معركتين كتب النصر فيهما للثائرين . ثم ان المعارك تعاقبت سجالاً بين الفريقين ، حتى اذا كانت سنة ١١٠٣ عُقد بينهما صلح اعترف بر كيارق ، بموجبه ، باستقلال اخيه محمد ، وعين اخاه سنجر أميراً من قِبله على خراسان . فلما توفي بر كيارق ، بعد عام واحد ، تاركاً وراءه ولداً صغيراً ، استبد محمدٌ بالأمر كله .

وفي عهد محمد (١١٠٥ – ١١١٨) نعم الشرق بهدوء نسبي ، كرةً اخرى . ذلك بانه أفرغ الجهد في تقويض أركان الدويلات الطفيلية التي ما انفكت تبرز في المناطق النائية . فهزم سنة ١١٠٨ الزعيم العربي ابا صدقة ، رأس بني مَزْيد ، وكانوا قد ظهروا في الحلة ، قرب بابل ، وبسطوا سلطانهم على القبائل النازلة في الجزيرة . بيد أنه لم يوفّق ، على كل حال ، الى القضاء على سرطان الامبراطورية العضال ، الحشاشين ، على الرغم من انه اجتاح حصونهم في مواطن عدّة ، وانتهى سنة ١١١٨ الى ان يحاصر ألموت نفسها . ولكن محمداً توفي ، في ١٨ نيسان ، وسنّه سبعٌ وثلاثون ، قبل ان تستسلم القلعة . ولعله مات بسمٍ دسه له احد أنصار الحشاشين . والواقع ان جنده ما كادوا يتسامعون بنبأ وفاته حتى رفعوا الحصار في الحال ، إذ لم يعرفوا لمن سيكون ولاؤهم بعد .

وعقب وفاة الحسن بن الصباح ، سنة ١١٢٤ ، مكن اتباعه لأنفسهم في سورية أيضاً ، واشتركوا في النضال ضد الصليبيين

مرات عديدة. وفي سنة ١١٤٠ احتلوا قلعة مصْياد * ، على السفح الشرقي من جبل النُصيرية . وكانت قبل ذلك مقراً لنائب زعيمهم الاكبر [داعي الدعاة] في ألموت . وسنلتقي بهـذا النائب بعد ، بوصفه شيخ الجبل ، وكان ذا أثر كبير في الـنزاع على السيادة في سورية .

وتجزأت الامبراطورية السلجوقية في سرعـة بالغة . وفقد الامراء من هذا البيت سلطاتهم بالكلية بعد ان استبد بها من دونهم الاتابك ، الأوصياء عليهم . والحق ان بعض هؤلاء الاتابك استطاعوا من طريق الادارة الحازمـة ، أن ينهضوا بمقاطعاتهم الصغيرة ويحسّنوا من أحوالها ، فترة من الزمان .

* وجاءت ايضاً على «مصياب» و «مصياث» و «مصياف» .
(المعربان) .

الإسلامُ في الأندلسِ وَشمالي إفريقيّة

•

في هذه الاثناء كان الاسلام قد تخطّى – منذ زمن طويل – الأوج الذي انتهى اليه في بلاد الاندلس . ففي عهد [مروان بن محمد] ، آخر الخلفاء الامويين ، توقّفت الحروب الظافرة ضد النصارى بسببٍ من الخلاف الناشب بين البربر والعرب ، وبسبب من انشقاق العرب انفسهم ، في تلك الديار ايضاً ، الى قيسيّة وكلبيّة . حتى اذا اخذت سلطة الامويين ، في سورية ، تضعف وتتضاءل عَبَرَ خمسمائة عربي على رأسهم بَلْج بن بِشر من إفريقية الى الاندلس واستقروا في منطقتي إلبِيرَة وجَيّان . وكان حفيد الخليفة هشام ، عبدالرحمن الملقّب بصقر قريش ، قد فرّ قبل ذلك ، إبقاء على نفسه من بطش العباسيين ، الى شمالي افريقية حيث وجد الأمن في بلاط الرستَميّين في تاهرت . وإذ لم يكن ثمّة مجال لأن يحتل مركزاً جديراً بنسبه الرفيع ، فقد تطلع الى الاندلس التي كان اميرها يوسف بن عبدالرحمن الفِهْري بعيداً عن رقابة العاصمة ، وليس له من نصير غير زعيم القيسية الصُمَيل الكلابي . وبالاتفاق

مع موالي المروانية استطاع الأمير الأموي أن يطـــأ الارض الأندلسية عند مرسى المُنكَّب في ايـــلول سنة ٧٥٥ ويمتشق الحسام في الحـال ضد يوسف الفهري . وفي ١٥ نوار سنة ٧٥٦ جعل قرطبة قاعدة لدولته بعد أن بايعه الناس بالامارة . ومـا لبث ان وفق الى جمع شتات القوة الاسلامية ووسع من نطاق سلطانه بمحاربة النصارى ، على الرغم مما حفل به حكمه الطويل (٧٥٦ – ٧٨٨) من ثورات داخلية متواصلة . وحـاول يوسف الفهري ، أمير الاندلس السابق ، أن يستعيد قرطبة ، ولكنه سقط في الميدان ، سنة ٧٥٩ ، قرب طُلَيْطُلَة . ولم ينقطع عرب الجنوب [اليمانية] والبربر عن معارضة الأموي والانقضاض عليه كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً . والواقع ان شارلمان [قارله] ، مؤسس الامبراطورية الفرنجية القوية ، أسهمَ مرة في هذه الحروب. وتفصيل ذلك انه فيما كان في احد ايام شهر نوّار سنة ٧٧٧ يحتفل في مدينة بادربورن بانتصاره على السكسون وفدَ عليه الشيخ سليمان العربي ، من زعماء اليمانية ، يصحبه نفر من اقرباء الامير يوسف ، فاستعدوه على الامويين . ولما كان شارلمان يرى ان من الخير ان تقوم علاقاته بالقوة الاسلامية النامية ، على اساس من الود ، ولما كان عبد الرحمن قـد صُوّر له في الظاهر ، كمغتصب للسلطة الشرعية فقد وعد ذلك الوفـــد بنصره وتأييده. وكان التدبير يقضي بأن يبعث شارلمان بجنده عـــبر جبال البَرانِس [البُرْت] فيلتحق بهم في الحال يوسف امير بَرْشِلونة ، في حين يعلن اقرباء يوسف وافراد قبيلته ، فِهر ، العصيان على الامويين

في الجنوب الشرقي من البلاد . ولكن نيران الثورة اندلعت قبل ميقاتها المتفق عليه فأخمدها عبد الرحمن، تسانده اليمانية. حتى اذا ظهر الفرنجة أمام أبواب سَرَقُسْطَة ، سنه ٧٧٨ ، أبى أهلها أن يقسموا يمين الطاعة للشيخ سليمان العربي ، وكان في مدينتهم ، وأوصدوا الأبواب في وجه النصارى . وفي أثناء الحصار جاء شارلمان نبأ الثورة الجديدة التي قام بها السكسون بعيد خروجه لقتال الامويين ، فاضطر الى التخلي عن مشروعه الاسباني في الحال. وفيما هو يجتاز جبال البرانس راجعاً ، انقضّ البَشْكَنْس* على مؤخرة جيوشه (وكانت تحت قيادة رَتلانْد حاكم الساحل البريطاني) ** في باب الشزري *** وانزلوا بها هزيمة سارت بذكرها الأساطير . ولم يكد الفرنجه ينسحبون حتى اندفع عبد الرحمن في اتجاه الشمال. فوفق سنه ٧٨٠ الى احتلال سَرَقُسطة ، وإلحاقها بأمارته ، ولو الى حين ، والى اخضاع البشكنس ايضاً. وفي سنة ٧٨٨ توفي عبد الرحمن تاركاً لابنه هشام دولة حسنة التنظيم يدعمها جيش قويّ. ولقد كانت هذه الدولة محتاجة – لكي يقيّض لها البقاء حيناً من الدهر – الى حكام من طبقته، مستعدين ابداً لبذل كل شيء في سبيل اقرار سلطانهم وتثبيته. والواقع ان همته القعساء استطاعت ان تحول دون انتشار جراثيم الشقاق المتفشية في البلاد ، ولكنها عجزت عن ان تجتث اصولها بالكلية.

* أو البشكنش . (بضم الكاف وفتح النون)

** نسبة الى بريطانية الصغرى في الشمال الغربي من فرنسة .

*** Ronceveaux

ذلك أن الارستوقراطية العربية لم تخضع لسلطانه القويّ إلا على كره، وان مقاومة الداخلين حديثاً في الدين [وهم المولدون] ضدّ دعاوى الزعماء المسلمين كانت قد أطلعت رأسها، هنا في المغرب ايضاً.

النضال ضد النصارى في شمالي اسبانيا

كذلك عجز خلفاؤه عن مصاولة الدول النصرانية، التي كانت ماتزال قائمة في شبه الجزيرة، بالسهولة التي كانت في ميسور مؤسس الدولة نفسه. فلم يكد ألفونس الثاني [إذْ فونْش أو الاذْفونش] يرتقي عرش أشتُوريش حتى ظهرت في البلاد روح جديدة لم تكن من قبل. فقد تحالف ألفونس مع البشكنس وفرنجة أقيتانية فتمّ له بذلك انتزاع برشلونة من ثالث الأمراء الأمويين، الحكَم الأول، سنة ٨٠١، بل لقد عدا ذلك الى احتلال أشْبونة (لسبون) فترة قصيرة من الزمن، في غزوة قام بها باتجاه الجنوب. أما في داخل البلاد فكان الحكَم الذي رقي العرش عندما توفي أبوه، هشام، سنة ٧٩٨، بعد حكم لم يطل أكثر من سبع سنوات، منهمكاً في التمكين لدولته والنضال دونها مبدياً في هذا الميدان عزيمةً كالتي عُرف بها جدّه من قبل. وكان مذهب الاوزاعي، في الفقه، سائداً حتى ذلك الحين في الاندلس، سيادته في سورية. ولكن مذهب مالك الذي كان قد ساد افريقية الشمالية برّمتها ما لبث ان حلّ محله، حتى في أيام أبيه [هشام] على الارجح. وكان فقهاء هذا المذهب يتميزون منذ البدء بالحرص على السّنة والتعصب في انفاذها. فكان طبيعياً ان ينقموا من الحكَم انغماسه في الملذات شأن أجداده من خلفاء الشام، واستخفافه بأحكام الشريعة، وان

يثيروا عليه غضب المولدين ، يساعدهم في ذلك الحانقون من طبقة الاشراف . وهكذا اضطر الحكم مرتين ، الأولى سنة ٨٠٥ والثانية سنة ٨٠٦ ، الى ان يطفىء نيران الفتنة في عاصمته ، قرطبة . اما في طليطلة ، فقد تحالف المولدون مع مواطنيهم من النصارى الذين لم يسلموا واستقلوا بمدينتهم غير آبهين بالأمير . والحق انه لم يوفق الى اخضاع المدينة الثائرة إلا بعد ان عين حاكماً عليها أحد المولدين المتفانين في الاخلاص له ، عَمروس بن يوسف ، الذي أقام كميناً للزعماء المنشقين وذبحهم واحداً بعد واحد عند حُفرة * أعدها في فناء قصره المشيد حديثاً . وكان عبد الرحمن قد اضطر الى ان يتخذ حرساً من المماليك الاجانب يقيه شر الناقمين من رعيته ، فعل خلفاء بني العباس . ولقد دعي هؤلاء الأجانب «الخُرس» . وفي أواخر مُلك الحكم سنة ٨١٧ ، حرّض الفقهاء سكان ضاحية قرطبة الجنوبية عند الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير ، على العصيان فاندفعوا يريدون قصر الأمير . فلم يكن من حرسه إلاّ ان أعملوا السيف في رقاب الثائرين ، حتى اذا قضوا عليهم أصدر أمره بدكّ تلك الضاحية دكاً ونفي أهلها منها ، وعددهم نحو من ستين الف نسمة ، ليَنتثروا في البلاد . وفي حين نزل عشرون الفاً منهم في فاس حيث ظل الحي الذي قطنوه يعرف في ما بعد بـ « عدوة الاندلسيين » اتجـــه الآخرون نحو مصر ليمكنوا لانفسهم بادىء الامر في الاسكندرية . والواقع انهم استطاعوا ، بالاتفاق مع جماعة اخرى من المغامرين ، ان يحتفظوا بالمدينة طوال

---

* وتعرف « بوقعة الحفرة » (المعربان)

عشر سنوات ، على الرغم مما بذله عمال العباسيين من جهود بسبيل استردادها . حتى اذا تم لهؤلاء العمال اخضـــاعهم ، أبعدوا الى جزيرة إقْريطش .

النصارى والمولدون يثيرون الاضطرابات

وفي عهد عبد الرحمن الثـاني (٨٢٢ – ٨٥٢) ، الذي خلف الحـكم – وكان [اي عبد الرحمن] مستضعفاً – اعلنت طليطلة استقلالها عن الدولة ، كرةً اخرى ، في حين عانت الحكومـة مصاعب جديدة في قرطبة ايضاً بسبب من النصارى الذين آثروا حتى ذلك الحين النزول على حـــكم المسلمين المُتسامح . وتأثروا تأثراً قوياً بالثقافة الاسلامية المتفوقة . وأياً ما كان ، فقد هبَّ الآن غلاة المتعصبين من النصارى ، من مثل الراهب يولوجيوس ، فحركوا في نفوسهم كامن الايمان ، حتى لقد اشتاق كثيرٌ منهم الى التحقق بشرف الشهادة من طريق لعن الرسول . والواقع ان رئيس الاساقفة «ريكافر د» دعا ، بتحريض من الامير ، الى عقد مؤتمر يشجب فيه هذا الازدراء الطائش بالموت . ومع ذلك فقد ظل نفوذ رجال الدين الصغار مصدر ازعاج للحكومة ، لا يكاد ينقطع . وعجز الأمير عن وضع حدٍ لهذه الحركة بالقسوة التي اصطنعهـا ابوه . صحيحٌ ان الفقيه يحيى بن يحيى ، تلميذ مالك بن أنس نفسه ، لعب دوراً كبيراً في البلاط ، ولكنه كان معنياً في المحـل الأول بأن ينشر لواء المذهب المالكي في اسبانية كلها . والحق ان الامير كان خاضعاً لسلطان زوجته ، طَروب ، الاثيرة عنده ، ومولاها نصر ، الخصيّ الاسباني ، بأكثر مما خضع لسلطان يحيى . ولقد

شارك طروباً ونصراً في نفوذهما هذا ، الموسيقيّ زِرْياب ،تلميذ اسحق المَوْصلي،الذي غادر العراق بعد أن استشعرحسداستاذه له . وكانت له شهرة واسعه تسامع بها أهل الأندلس انفسهم ،فلم يكد يطأ أرض قرطبة حتى قصد الأمير لاستقباله ، سنة ٨٢٢ . وما هي الا فترة يسيرة حتى وفق زرياب الى أن يعيّن الاتجـاه الموسيقي في البلاط. ليس هذا فحسب بل لقد حرك طموح الأمير الى مضاهاة الخليفة البغدادي في الاغراق في الترف والاخذ باسباب اللذات. وكانت القلاقل الداخلية، التي اضطرت الامير الى اخضاع مارِدَة وطليطلة بقوة السلاح ، لا تزال آخذة في الازدياد عندما أغار النورمانديون على اسبانية سنة ٨٤٤ واحتلوا إشبيلية. ولقد بعث الأمير بشاعر بلاطه ، يحيى ابن الحَكَم الغزال، الى مقر زعيم النورمانديين ، باحدى الجزر الدانمركية ليفاوضه في الصلح. حتى اذا أتم مهمته حمل إلى الأندلس ، لأول مرّة ، صورة عن الشعوب الشمالية واحوالها .

فلما رقي العرش بعد عبد الرحمن الاميرُ محمد الاول (٨٥٢ — ٨٨٦) الذي نُشّيء على روح التعصب الديني المتمثلة في الفقهاء ، وسع مسافة الُخلف بين عنصري السكان، بعد أن أخذ عقلاء النصارى ومعتدليهم بذنب المتعصبين منهم . فلم يكن من نصارى طليطلة، لشدّة ما حلّ بهم من ضيق، إلا أن التمسوا الغوثَ من أرْدُون الاول ملك لِيون . وفي سنة ٨٥٤ غزا قائده «كونت بيرزا» ديار الاسلام ، وهزم جند الأمير في وادي سليط . وعلى الرغم من ان المسلمين لم يلبثوا ان انزلوا بأهل طليطلة ثلاث هزائم قاسية فقد

تردد محمد في القاء حصار متطاول فعّال ، على المدينة ، وبذلك استطاعت ان تحتفظ باستقلالها ثماني سنوات اخرى . والحق ان المثل الذي ضربته طليطلة كان له صداه الموحي في قرطبة ايضاً. فعلى الرغم من ان موجة الاستشهاد كانت قد انتهت هنا الى الخور والانقطاع بعد وفاة كل من يولوجيوس وليو كريشيا (٨٥٩ م) فقد ظلت مآثر هؤلاء الشهداء ذات أثر بيّن في طول البـــلاد وعرضها. حتى اذا انقضت عشرون سنة وسعى محمد الى عقد صلح مع الفونس الكبير، تعيّن عليه ان يسلم اليه رفات يولوجيوس ، وكان قد نودي به قديساً . وإذ كان محمـــد معنياً بإصلاح مالية الدولة بعد ان افسدها تبذير ابيه ، فقد غالى في الشح الى حـــد التفريط بشؤون الدفاع العسكري عن مملكته. ومن هنا فكثيراً ما وجد نفسه، في نزاعه مع أشتوريش ونَبْرة (نافار)، في مأزق حرج . وفي أرَغون اعلن موسى المولّد وابناؤه استقلالهم عن الحكومة المركزية، بينا ثارفي بَطلْيَوْس سنة ٨٧٥ مولّد آخر يدعى [عبد الرحمن بن مروان] ، يسانده ألفونس الثالث ملك اشتوريش. اما في الشمال فقد طغى التعارض القائم بـــين الوعي القومي عند الاسبان وبين الحكم العربي الاجنبي على الصراع الديني بين النصرانية والاسلام ، حتى لقد جاز لابن مروان ان يتطلع الى مزاج من الدينين جديد يصطنعه لشعبه. كذلك كان للانتصارات الاسبانية في الشمال اثرٌ حافزٌ في اهـل الجنوب الذين التزموا ، حتى ذلك الحين، جانب الهدوء. ففي سنة ٨٨٤ خرج المرتدّ عمر ابن حفصون في جبال تاكُرُنّا، بين رُنْدة ومالَقة، على الحكم

الأموي ، واعتصم سنوات عديدة في قلعة بُبشتر بعد ان عجزت السلطة المركزية الاسلامية عن إخضاعه ، حتى في عهد الامير مُنذر الذي خلف محمداً واشترك في حرب ابن حفصون ، وهو ولي للعهد ، ولم تكد تنقضي على ارتقائه العرش سنتان حتى دس له السم اخوه عبدالله (٨٨٨-٩١٢) الذي سارع الى عقد الصلح مع الثائرين .

والواقع انه لم يضطر الى اتخـــاذ هذا الموقف عن ضعف او عجز ، بل بسبب الاضطراب السائد ارجاء دولته . ذلك بان كبار اصحاب الاراضي من العرب ، من مثل الامير نفسه ، اعتادوا منذ زمن طويل ان يجمعوا حولهم كتائب من العبيد يسلحونهم في بعض الاحيان للدفاع عن اقطاعاتهم . وكان احد هؤلاء الاقطاعيين ، كُرَيْب بن خلدون ، قد استولى بمثل هذه الكتائب على اقليم الشرف بكامله ، بعيد ارتقــاء عبدالله عرش الامويين . حتى اذا نقض المولدون في إشبيلية ، بالاشتراك مع البربر النازلين في الجبال المجاورة ، عهد ولائهم للأمير ، وقف كريب الى جانب الامير في الذود عن السيادة العربية ، فتم لها اخضاع اهل اشبيلية . بيد أن الامير لم يلبث ان اختلف مع زعيم عربي آخر يدعي ابراهيم بن حجاج ، فما كان من هذا الاخـــير الا ان تخلص من كريب بن خـلدون وتحالف مع ابن حفصون . وإذ كان رجال الاقطاع يتحدّون الامير في سائر الاقاليم ، فقد اضطر الى ان يقر بسيادة ابراهيم على اشبيلية ، على الرغم من ان الهزيمـــة حلت بساحة ابراهيم في النهاية . ليس هذا فحسب ، بل لقد تحالف نصارى قرطبـة

بزعامة شربَنْد (سرفاندو) مع ابن حفصون ، وعندئذ تعين على عبد الله ان يحشد قواته لمعركة فاصلة. فهاجم الثائر في قلعة بلاي، جنوبي قرطبة ، واكرهه على الانسحاب الى ببشتر . وهنا ازداد موقف ابن حفصون حرجاً . ذلك بأنه ارتـد عن الاسلام الى النصرانية فاكتسب عداء رعيته ، وكان معظمهم قـد اعتنقوا الاسلام عن إيمانٍ به وانشراح له من غير ان يكون في ميسور النصارى إمداده بمساعدة ما. ثم ان عبد الله أفرغ الجهد في القضاء على خصومه الكثار فواقعهم في معارك متصلة الحلقات. ومع أن الغلبة كتبت عليه في بعض هذه المعارك فقد وفق آخر الامر الى أن يحفظ على الدولة هيبتها ويمكّن لها في البلاد .

عصر الزهو في ظل عبد الرحمن الثالث

وفي تشرين الاول سنة ٩١٢ ، توفي عبد الله فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث ابن محمد الذي سبق لعبد الله ان قتله . ولقد قدِّر لعبد الرحمن هذا أن يصبح أعظم الامراء الامويين في اسبانية الاسلامية ، وان يحكم نحواً من خمسين سنة (٩١٢ – ٩٦١) عمل في أوائلها على ان يتم ما بدأه جده من إقرار السلام في ربوع البلاد ، وسط مصاعب هائلة ، ليفرغ بعدُ لتوطيد سلطانه في الخارج . والحق انه استطاع بما أبداه من حزم وكياسة أن يكتسب ولاء المقدَّمين من رجال الارستوقراطية العربيـة في مقاطعتي جيان وإلبيرة ، على الرغم من ان ابن حفصون ظل محتفظاً باستقلاله في معاقل تاكرنا الجبليـة حتى وفاته سنة ٩١٧ . فلما كانت السنة التاليـة ألقى احد ابنائه ،

سليمان ، السلاحَ ، في حين حاول ابنه ، جعفر ، ان يلتمس النجاة من طريق الدخول في الاسلام ، من جديد ، فكان جزاؤه القتل من أتباعه النصارى. اما أبنه الاصغر حفص ، فقد واصل النضال في بُبَشتَر - حصن الثوار الرئيسي - ليضطر سنة ٩٢٨ الى الاستسلام. وكانت الحصون الأخرى قد وضعت السلاح قبل ذلك، فدكها جند عبد الرحمن دكاً واستاقوا وجوه البلاد الى قرطبة . وفي سنة ٩٣٠ كانت طليطلة وحدها لا تزال محتفظة باستقلالها . ولكن هذه المدينة الجمهورية التي تمتعت بالحرية ثمانين عاماً لم تلبث ان انطرحت بدورها على قدمي الامير بعد حصار دام سنتين. وفي سني ٩٢٠ - ٩٢٤ هزم عبد الرحمن أردُون الثاني، ملك ليون، الذي سبق له ان تحالف مع شانجُه (سانشو) ملك نبرة (نافار) فردّ المسلمين الى ما وراء ماردَة في الجنوب ، وحتى تُطيلة ، و « قَلَنْبيرَّة » في الشمال ، وتعقبهم خلف الحدود .

ولم يغفل عبد الرحمن، وهو يوطد دعائم الامبراطورية الأموية في الداخل ، عن سياسة الفاطميين الذين كانوا يعملون ، في ذلك الحين ، على بسط سلطانهم في المغرب وغيره. وفي سنة ٩٢٩ عارض عبد الرحمن دعوى الفاطميين فتسمى ، مثلهم ، باسم امير المؤمنين وخلع على نفسه، تبعاً للتقليد الشرقي، لقب «الناصر لدين الله». ليس هذا فحسب، بل لقد انشأ في الوقت ذاته اسطولاً يدفع به عدوان الفاطميين . وفي سنة ٩٣١ سبق خصومه الى احتلال سَبتَة في مراكش على الطرف الشرقي من مضيق جبل طارق [على الشاطىء الافريقي] . ولم يلبث صغار الامراء ، في افريقية ، ان

التمسوا حمايته ، مخافةَ الفاطميين ، وبذلك استطاع ان يبسط سلطانه على شمالي افريقية حتى تاهَرْت ، التي احتلها الفاطميون سنة ٩٠٨ .

واقتدى عبدالرحمن بخلفاء بني العباس فأنشأ جيشاً من المماليك الأجانب يوطد بواسطته حكمه. وبينما اعتمد خلفاء بغداد في انشاء جيوشهم هذه، العناصر التركية نجد الامويين في الاندلس يعتمدون الصقالبة ـ اي السلاف ـ وهو اسمٌ جامع كانوا يطلقونه على اسرى الحرب من جميع البلاد الاوروبية . ذلك بان أوروبة الغربية عرفت في هذا العصر ازدهاراً كبيراً في تجارة الرقيق. وكان اليهود في الاعمّ الاغلب ، همُ القابضين على زمام هـــذه التجارة التي كان يذهب ضحيتَها ، في المحل الاول ، اسرى الحروب الناشبة على طول المستنقعات الالمانية الشرقية المأهولة بالسلاف، بعد ان يُباعوا في اسواق الرقيق بأسبانية ، من طريق فرنسة . وكانت «فردون» مركزاً رئيسياً لأعـــداد الخصيان الذين كان اهل الاندلس يصطنعونهم في خدمة النساء ، تبعاً للعُرف السائد في بغداد . وكانت بيزنطة تقدم انواعاً اخرى من الرقيق تغنمهُ من غزواتها لشواطىء البحر الاسود . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان القرصان الاسبان انفسهم يغذّون سوق الرقيق بثمرات غاراتهم على الشواطىء الفرنسية والأيطالية . وحظي هؤلاء الصقالبة ، في الاندلس ، بعطف كبير من سادتهم الامويين حتى لقد انتهوا في كثير من الاحيان الى درجة عاليةٍ من الغنى والنفوذ شأن الأتراك في بغداد ايضاً . والواقع ان عبد الرحمن كان يثق

بهم اكثر مما يثق بافراد الارستقراطية العربية الذين تهـــددوا اسلافه في احوال عدة ، بخطر عظيم . ومن هنا نجده في بعض الأحيان يعهد في قيادة جيش برمته ، الى أحد الضباط من الصقالبة. ففي سنة ٩٣٩ قاد نجدة الصقلبي الجيش الذي وجهـــه الخليفة لقتال رُدْمِير (راميرو) الثاني ملك لِيُون وحلفائه النَّبرويين (النافاريين) ولكن هذا الصنيع لم يرُقْ للعرب فوقفوا في معركة الخندق موقفاً سلبياً أدى الى اشنع هزيمة مُني بها عبدالرحمن في حياته. وفي اواخر سني حكمه ، اخضع عبد الرحمن خصومه النصارى ايضاً. وكان رُدمير الثاني قد اشتبك في نزاع مع كونت قشتالة . حتى اذا توفي ، اصطرع ابناءه اردون الثالث وشانجه على العرش. وإذ كان القشتاليون يؤيدون شانجه فقد عقد أردون الصلح مع عبد الرحمن ، وألزم نفسه بأداء الجزية اليـــه . ولم يلبث شانجه ان خلف أردون سنة ٩٥٥ ، فنقض هذه المعاهدة . ولكن ابن أخيه خرج عليه وطرده من دياره ، فاضطر الى أن يلتمس الأمن في حضرة الملكة طُوطَه العجوز صاحبة نبرة .ثم إنه قصد والملكة الى قرطبة يسأل عبد الرحمن ان يعينه على عدوه. ولقد أجابهُ عبد الرحمن لما طلب ، مقابل تنازله عن مجموعة من الحصون القائمة على الحدود ، فرجع بفضل الجيوش الاسلاميـة ملكاً على بلاده السليبة .

وفي عهد عبد الرحمن الذي تميز ، على تطـاوله ، بالاستقرار الداخلي ، شهدت الاندلس تفتُّحَ حضارة زاهية أثارت إعجاب اوروبة في العصر الوسيط. ذلك أن الزراعة ، والبستنة ، والتجارة ،

والصناعة انتهت كلها إلى درجة من الازدهار بعيدة . فقد زرع العربُ الحبوب وأدخلوا إلى اوروبا زراعة النخيل . ولا تزال بقايا حدائقهم ماثلة إلى اليوم في حقول النخيل في ألـش، جنوبي مقاطعة بلنسية . وامتازت الأندلس بصناعاتها اليدوية، التي تعتمد المعدنَ والجلد ، بصورة خاصة . وحتى اليوم ، لا يزال الجلد القرطبي يخلد اسم العاصمة الاندلسية في السوق العالمية . والحق أن دخل الدولة السنوي، من طريق الضرائب والمكوس بلغ ، عهد عبد الرحمن ، ٦٬٢٤٥٬٠٠٠ دينار . وفي بعض الروايات أن ثلث هذا المبلغ كان يُرصد لتغطية نفقات الدولة الجارية ، في حين كان الخليفة يدّخر ثلثه الثاني في خزانته ، ويَقفُ الباقي على مشروعات البناء التي أحلته منزلة جديرة بأعظم رجال العمران في الإسلام .

جامع قرطبة الكبير

واتجهت همة الحكام هنا ، في جملة ما اتجهت اليه ، نحو إنشاء المساجد الفخمة وزخرفتها ، كما كانت الحال في المشرق ، سواء بسواء . والواقع أن الفاتحين الأولين اجتزأوا في قرطبة بنصف كاتدرائية القديس فنسنت محلاً لعبادتهم . أما أقدم جوامعها فهو الذي رفعَ قواعده مؤسس الدولة الاموية بالاندلس سنة ٧٨٥ – ٧٨٦ . وانما تم بناؤه في اثني عشر شهراً ليس غير، وهي سرعة ألجأت عبد الرحمن إلى الاستعانة بأعمدة بعض الكنائس التي كانت في أغلب الظن ، أطلالاً دارسة ، سواء أكانت تيجانها متساوقة مع اساطينها أم لم تكن . كذلك نقل المسلمون ، عن

المعاريين القوط الغربيين ، تلك العقود المشيدة على صورة نعال الافراس والتي تربط الأعمدة بعضها ببعض بواسطة أقواسها المكوّنة من تعاقب حجارة وقطع من الآجر إسفينية الشكل بيضاء حيناً، وملونة حيناً آخر . ولقد نهض على هذه ، وفي مستوى أعلى من مستوى العقود الأولى ، صفٌ ثانٍ ينتهي إلى سقف كان في الأصل من الخشب المنحوت الملوّن . حتى اذا توفي عبد الرحمن أفرغ خلفاؤه جهدهم في خدمة هذا الجامع ، فشيد هشام الأول مئذنته ومد عبد الرحمن الثاني أروقته الأحد عشر بأن أضاف إلى طولها سبعة عقود أُخرى ، وأقام محراباً إضافياً . أما محمد الاول فرفع المقصورة . ثم جاء عبد الله ، وكان ، من غير شك ، شديد الحرص على ان يحيط نفسه باسباب السلامة ، حذرَ الاعتداء ، فأنشأ ممشى مظللاً [ساباطاً] يربط ما بين الجامع وقصره الذي يحاذيه من جهة الغرب ، فإذا هما يؤلفان كلاً واحداً ، كما كانت الحال على عهد الامويين في الشام . ثم ان زلزالاً أصاب مئذنة الجامع فأخربها ، فاستبدل بها عبد الرحمن الثالث ، سنة ٩٥١ ، مئذنة جديدة فخمة شُيد على طرازها فيما بعد برج جيرالدا الشهير في اشبيلية ، وعدد آخر من المآذن في المغرب ، وزاد خلفه الحكم الثاني في امتداد أروقته الاحد عشر بأن اضاف الى طولها اربعة عشر عقداً امتدت نحواً من مائة متر الى الجنوب ، كما اقام محراباً جديداً (على ماجاء في نقش يرقى الى سنة ٩٦٥) . وشيد داراً ذات ثماني زوايا (وهي لا تزال قائمة الى يومنا هذا تضم كنيسة «زنكرون») تعلوها قبة معقودة برخامات على هيئة الحلزون مضلعة ، ومقصورة جديدة «تحتوي على ثلاث غرف تمثل

بأقواسها المتقاطعة المفلطحة وقببها الفريدة ذات الاضلاع، القمة التي بلغها فن البناء في هذا الجامع» [٣٠] . واخيراً اضاف الحاجب المنصور الى الاروقة الأحدعشر الطوال ثمانية اروقة اخرى وسبعة صفوف من الاعمدة . وهكذا انتهى الجامع الى ان ينتظم تسعة عشر رواقاً * في كل منها خمسة ٌ وثلاثون عموداً . وعُزل الصحن المركزي المؤدي الى المحراب عن الصحن الرئيسي .

وكان يحيط بالجامع سورٌ يتراوح ارتفاعه ما بين مترين وثلاثة امتار . وكان يمتد في شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب، وقد توجته شرفات عالية . وإذ كانت الارض التي قام عليها منحدرة نحو النهر فقد تعيَّن ان تكون آساسه ضخمةً جداً. وكان المصلون يدخلون الجامع من واحدٍ وعشرين باباً تزدان جميعاً بالنحاس الاصفر المخرَّم . اما اليوم فهي موصدة ، في الغالب . وكانت النوافذ والكوى الموصدة التي تشبه المحاريب القائمة الى جنباتها وبغلات الحائط التي تشبه الابراج تزين واجهة الجامع . والواقع ان عدداً قليلاً من ابواب الجامع قد خصص للنساء ، فهن يَلجْنَها الى مقاصير رُفِعَتْ لهنّ . فالاسلام لم يقتبس المقاصير النسائية التي كانت تميز الكنائس البيزنطية في البلاد الاخرى . اما ساحة الجامع (وكانت محوطة بشرفات عفتْ آثارها) فقد اكتمل بناؤها في سنة ٩٥٧ . وكان في وسطها حوض قامت حوله اعمدة تحمل عقوداً من الصخر المنحوت . وكان المؤمنون يتوضأون

---

(٣٠) راجع ديز E. Diez, *Die Kunst der islamischen Völker*, p. 50

* ويسمى ايضاً بلاطاً وجمعها بلاطات .

بمياه الحوض ، قبيل أداء الصّلاة .

الزهراء

وازدهت العاصمة الاندلسية، عهد عبدالرحمن، بمنشآت دنيوية فخمة لم يبق لنا منها غير اوصافها في كتب التاريخ . وليس من شك في ان اعظم هذه المنشآت مدينة الزهراء التي اسماها باسم جارية أثيرة لديه . وانما شرع في بناء هذه المدينة سنة ٩٣٦، عند سفح جبل العروس ، القائم على ثلاثة اميال عربية تقريباً ، الى الشمال من قرطبة . وهناك حشد عبد الرحمن عشرة آلاف عامل لم ينفضوا أيديهم من البناء إلا بعد خمسة وعشرين عاماً بطولها . والواقع ان «الزهراء» أُنشئت طبقات ثلاثاً، بعضها فوق بعض، على منحدر الجبل. ففي الطبقة الدنيا انبسطت الجنـائن والبساتين ، وفي الطبقة الوسطى قامت منازل الموظفين في البلاط؛ اما قصر الخليفة فكان يشرف على ذلك كله. وكانت قاعته الرئيسية تتألف بكاملها من الذهب والرخام ذي الألوان المتعددة، وقد اشرقت في وسطها جوهرة ٌ أهداها [الى عبد الرحمن] الامبراطور ليو البيزنطي ؛ [صاحب القسطنطينية] . ونهضت الابواب الثمانية على قواعد من الرخام الملوّن والبلور ، علتهـا أرتجة ٌ مقوّسة من الأبنوس المذهب والعاج المطعم بالجوهر. وكان في بيت منام الخليفة حوض ماء يزدهي باثني عشر تمثالاً على صورة الحيوان من الذهب الأحمر. والواقع ان القصر امتدّ على مسافـة ٢٧٠٠ ذراع من الشرق الى الغـرب ، و ١٥٠٠ ذراع من الشمال الى الجنوب . وكان له الفٌ وخمسمائة باب يزينها الحديد المذهب والنحاس. اما الاعمدة

البالغ عددها اربعة آلاف وثلاثمائة عمودٍ فقد جُلب بعضها من افريقية ، وجلب بعضها الآخر من ارض الفرنجـــة . بيد أن خلفاء عبد الرحمن عجزوا عن صيانة هذا البناء الفخم . فلم يبق قائماً منه،عند النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، غير اجزاء قليلة . أما اليوم فليس يُهتدى الى موقعـه السابق إلا من أردام من الاوساخ قائمة في ما يسمى « قرطبة القديمة » على مسافة ميل من المدينة الحالية ، على سفح الجبل [جبل العروس] .

الحياة الفكرية في الأندلس

ونعمت الاندلس ، الى جانب هذا الازدهار المادي ، بحركة فكرية ناشطة . ويحزننا ان يكون ما نعرفـــه عن حال الشعر الاندلسي في هذه الفترة الزاهية ليس شيئاً بالنسبة لما نعلمه عن تطور هذا الشعر خلال عهود الانحطاط السياسي في اسبانية الاسلامية ، بَعْدُ . ولكن الذي يخيل الينا ان الشعر في الاندلس كالشعر في الشام دار ، اول ما دار ، على محور العصبية القبلية التقليدي ، فهو في معظمه مدح وهجاء . ففي بلاط الأمويين تفتحت ، تحت تأثير الفن البغدادي المعاصر ، براعم المديح المثقـــل بالاطراء الغريب المستهجن . ولكن المزاج الاندلسي استطاع ان ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة كمثل تلك التي نفخها الفرس في هذه القوالب عينها ، بالمشرق . والحق أن ما نقع عليه في شعر الأندلسيين من رقةٍ خاصةٍ في الأحاسيس ، وعمقٍ في العواطف ، وما نلمسه عندهم من استجابة ، تكاد تكون عصرية ، لمفاتن الطبيعة والفن وتصويرها في كثير من التلطف والتبصر ، كل اولئك ليس إلا

ارثاً ايبيرياً رومانياً يعيس في غلالة من لغة الفاتحين العرب ، كما لاحظ الكونت فون شاك * من قبل . اما في الحقل العلمي فقد عني اهل الاندلس منذ البدء بالفقه واللغة عناية خاصة. وليس من شك في أن التزام المذهب المالكي ، السائد في الاندلس ، لعمود السنة قد جنّب هذه البلاد شرور الاختلاف الذي نشب عنيفاً صاخباً، في بغداد والمشرق حول أساليب الدراسة الدينية وطرائقها. وهكذا لم يلبث الاهتمام بالماضي أن فاق، في بلاد الاندلس، التفكير الديني الخالص . ولسوف نجد ان الصوفية قد بلغت ، هنا ، صورتها النهائية، هذه الصورة التي سادت، آخر الامر، المشرق ايضاً.

وانما يرجع الفضل في اثارة اهتمام الاندلسيين بمسائل الفلسفة الى ابن مَسَرّة القرطبي، الذي كان يرئس ، حوالى سنة ٩٠٠[٣١]، حلقة من الطلاب والمريدين تجتمع اليه في احدى الصوامع القائمة على منحدرات جبل قرطبة [جبل العروس]. حتى إذا اتهم بالزندقة أدى فريضة الحج، ليعود الى الوطن بعد ارتقاء عبدالرحمن الثالث عرش قرطبة ، فيواصل نشاطه التعليمي حتى وفاته سنة ٩٣١. ولا يزال من المتعذر علينا ان نقرر كيف وصلت الى علمه الميتافيزيقية المنسوبة الى أمبيذقليس ، والملقحة بالافلاطونية الجديدة . والحق ان نظرية الفيض التي تقول بصدور العالم عن

Count A. von Schack *

(٣١) أما سنة ٩١٢ التي نص عليها آسين بالاسيوس Asin Palacios في ملحق دائرة المعارف الاسلامية فهي في الواقع سنة ارتقاء عبد الرحمن (الثالث) عرش الاندلس .

عن الموجود الاول، اي الله، بواسطة العقل والنفس الكلية والكون قد قادته الى الاعتقاد بانه يتعين على النفس الانسانية ان تعاود سلوك هذه الطريق، كرة اخرى، ومن هنا لا يختم الموت مصيرها. ولما كانت هذه الطريق الى الكمال تسلك، احسن ما تسلك، جماعةً فقد نشأت في عدد من المدن الاندلسية حلقات على غرار حلقة قرطبة، ظلتْ تنعقد، رغم اضطهاد السّنة، حتى القرن الثالث عشر.

ونزعَ اهل الاندلس الاصليون إلى الافتخار بفضائل آبائهم واجدادهم وتقديمهم على العرب، فِعلَ الفرس في المشرق. وفي عهد عبد الرحمن الثالث اشتدت هذه النزعة حتى لقد اجترأ على التبشير بها القاضي ابو محمد عبد الله بن الحسن، وكان من عظم المنزلة بحيث كان الخليفة نفسه يحضر مجالسه [٣٢]. وفي سنة ٩٤٢ عرفت قرطبة فقه اللغة على يد [أبي علي] القالي، الذي وُلد في إرمينية وتلقى دروسه في بغداد. أما علم التاريخ، وهو من العلوم التي حظيت باحتفال كبير في الشرق الاسلامي والاندلس، سواء بسواء، فكاد يقتصر على المتصلين بالبلاط، ومن هنا لم يكن في طوقه قط ان يتحقق بالنزاهة، والتجرد في رواية الاخبار. ولقد عني مؤرخو الاندلس، فوق كل شيء، بوقائع الفتح الاسلامي؛ وبلغ ذلك أوجه في التاريخ الشهير الذي صنّفه محمد ابن القوطية [٣٣]، احد معاصري القالي، كما عُنوا بالتأريخ للعلماء والاعيان شأن

(٣٢) راجع جولدزيهر Goldziher, in *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, 53, 605.

(٣٣) أي ابن المرأة القوطية.

المشارقة. اما في حقلَي الطب والعلوم الطبيعية فقد حاول المغاربة التحرّر من سلطان التقليد المشرقيّ. والواقع ان الاندلس عرفت، عهد عبد الرحمن الثالث، ترجمةً جديدة لنظريات ديسقوريدُس في الادوية المفردة، وُضعت على اساس نسخة يونانية أُرسلت اليه من القسطنطينية. وكان ولده، الحَكم الثاني، نصيراً صادقاً للعلم والعلماء. وكان يبعث الى بلاد المشرق بمن يشتري له نفائس المؤلفات، حتى لقد اجتمع في خزانة كتبه، في ما يقال، اربعمائة الف مجلد. ليس هذا فقط، بل لقد عمل على نشر المعرفة في ربوع البلاد، فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة، وادخل اليها الفقراء من الطلاب مجـــاناً.

الحكم الثاني

ووُفّق الحَكم الثاني، المستنصر بالله، خلال عهده الذي دام خمس عشرة سنة فقط (٩٦١ – ٩٧٦) إلى تعزيز تراث ابيه في الداخل، وحمايته من غارات جيرانه، النصارى، الذين لم يلبثوا أن خضعوا له جميعاً، واحداً بعد واحد. ولكن الفالج اصابه في السنوات الأخيرة من حياته فاضطر إلى أن يعهد في تصريف الشؤون، في الأعم الأغلب، الى وزيره الأول جعفر [بن عثمان] المُصْحفي، ولم يكن على كثير من المقدرة والحنكة. وكان كبير الوزراء يُعرَف، في الاندلس، بالحاجب، وهو الاسم الذي سبق للامويين، في دمشق، ان أطلقوه على ضابط الاتصال بين الخليفة وافراد رعيته، هذا الموظف الذي كان يتمتع، من هذه الطريق، بنفوذ كبير في الدولة. وفي إفريقيــة، كان ضغط

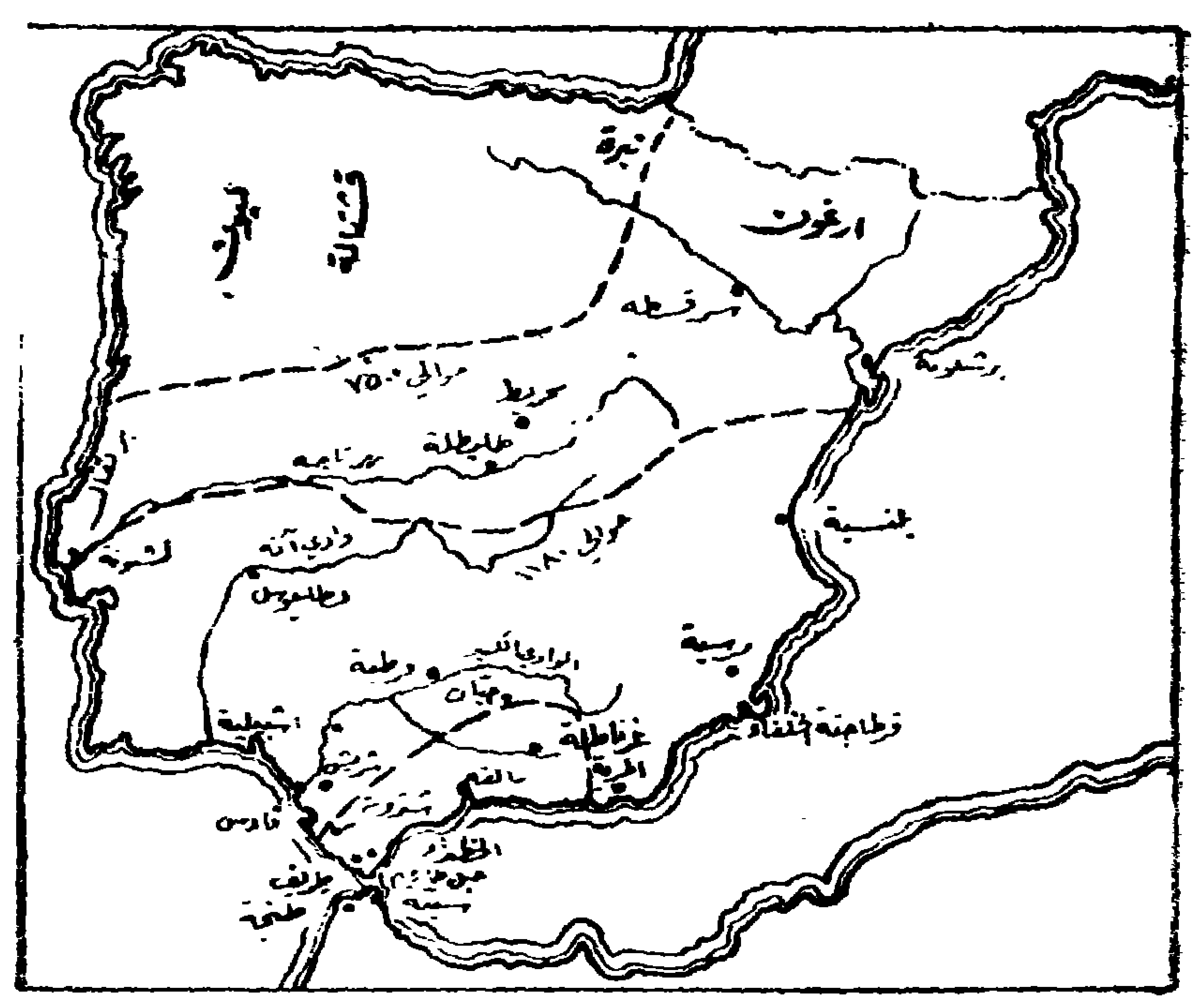
الفاطميين على الممتلكات الأموية قد خف كثيراً بعد انتقالهم الى مصر. ولكن مصاعب جديدة لم تلبث أن نشأت عن الصراع بين مجموعتين كبيرتين من البربر هما زَناتة التي أخضعها الامويون وصنهاجة التي لا يزال اسمها خالداً في السنغال، في اسم النهر الذي كان يحُدّ أراضيها. وما إن أطلت سنة ٩٤٠ حتى كان أحد زعمائهم زيري بن مَناد قد مكّن لنفسه في أشير، جنوبي الجزائر. حتى اذا كانت سنة ٩٧١ قُتل في احدى المعارك ضد صنائع الحكم وكان له ولد اسمه بُلُكّين * فعهد اليه المعز الفاطمي، بعد انتقاله الى القاهرة، في ادارة المقاطعات الافريقية وعاصمتها القيروان، فثأر لأبيه في هجوم شنّه على الممتلكات الاموية في إفريقية حتى سِجلماسة. والواقع انه استولى على تِلمسان سنة ٩٧٣. واحتل فاس وسِجلماسة سنة ٩٧٩.

الحاجب المنصور

وانما جرّأه على ذلك اضطراب الاحوال في الاندلس. ذلك ان الحكم الثاني توفي سنة ٩٧٦ بعد ان احتسب أولاده جميعاً إلا هشاماً الصغير، فخلفه على العرش، وليس له من العمر غير عشر سنوات. وكانت أُمه من البَشكنس تُدعى «صُبح»، فتولت الاحكام باسمه، يساعدها في ذلك أحد سَراة العرب، محمد ابن أبي عامر المنصور. والواقع ان محمداً هذا كان في أوّل أمره وكيلاً على املاك صُبْح. وكانت له منزلة في نفسها، فرفعته الى منصب وزير المال. ولقد وُفّق في وزارته

* ووردت أيضاً: بلجين (بالجيم المضعفة).

هذه إلى أن يخفف من نفقات الجيوش المتوجهة الى افريقية في مهامّ خاصة ؛ وكانت ثقيلة باهظة ، من طريق مفاوضات بارعة قام بها مع القائد ، غالب ، الذي تزوّج محمدٌ من ابنته في ما بعد . ولم يكد هشام يرتقي عرش قرطبة حتى أزاح محمدٌ الحاجب جعفرَ



اسبانية الاسلامية

المُصْحفي عن منصبه ، يساعده في ذلك غالبٌ صاحب مدينة سالم ، وحدّ من سلطان امراء الجيش الصقالبة الذين انتهوا الى أن يمثلوا في قرطبة دور الأتراك في بغداد . وسرعان ما خفق قلبُ

محمد محبّ صبح ، وخفق قلب صبح بحبه ، فتعاونا على اقصاء
الخليفة الحدَث عن دفّة الحكم وحجباه عن الناس فلم يكن أحد
يراه ويصل اليه . وفي سنة ٩٧٨ شرع محمد في انشاءعاصمةجديدة
على أبواب قرطبة، دعاها المدينة الزاهرة ؛ وما هي إلا فترةحتى
أصبحت «الزاهرة» قاعدة الحكومة الفعلية . ورماه الفقهاء —
وكانوا لا يزالون أصحاب نفوذ وخطر — بتهمة الزندقة،فلم يحجم
عن التزلف اليهم بتحريق الكتب الفلسفية والعلمية التي جمعها
الحكم الثاني في خزانته . وكانت سياسة الأمويين في افريقية
تقتضيهم نفقات ثقيلة وتهدد مكانة الأندلس بالخطر ، من غير أن
تعود عليها بفائدة ذات غناء ؛ فانتهج محمد في سياسة افريقية نهجاً
جديداً قوامه الاحتفاظ بالسيطرة القوية على سَبتة دون غيرها ،
وترك الامراء الوطنيين يحكمون الأقسام الداخلية من البلاد ،
كتابعين للدولة الأموية في قرطبة. وفي سنة ٩٨٥ حاول ابن جنّون
الادريسي حبس الجزية المفروضة عليه ، واستعادة الممتلكات التي
كانت لآبائه من قبل . فاضطر محمد الى اصطناع العنف ، وحرض
ابن عمّ الامير الثائر على خلعه وقتله . اما سياسته في ما يتصل
بالدول النصرانية في الشمال فكانت تقوم على أساس القوّة . فلم
يكد يقضي على معارضة حميه ، غالب ، حتى اعاد تنظيم الجيش ،
مستعيناً بالمرتزقة من البربر والنصارى من افريقية وشمالي اسبانية ،
بدلاً من الصقالبة الذين لم تكن له ثقة بهم . والحق ان سلطانه
على هؤلاء المرتزقة النصارى كان من الشدة والاحكام بحيث اجترأ
على ان يسيرهم لقتال اخوانهم في الدين . فجرّد حملة مظفرة على

ليون اكسبته لقب «المنصور بالله» . ولكنه لم يوفق الى اخضاع تلك البلاد اخضاعاً كاملاً إلا سنة ٩٨٧. وفي حملته الثالثة والعشرين، سنة ٩٨٥ ، اقتحم برشلونة واستولى عليها. وفي سنة ٩٩٧ أخرب كنيسة القديس يعقوب «شانت ياقو»، * أشهر الأماكن النصرانية المقدسة في الاندلس ولم يبق منها إلا قبر القديس نفسه، ليس غير. وكان المنصور قد نزل عن منصب الحجابة لابنه عبد الملك ، سنة ٩٩١ ، حتى اذا كانت سنة ٩٩٧ تسمى بالسيد والملك الكريم ، وبذلك أمسى الخليفة بمثابة الاسير في قصره ، كزميله العباسي ببغداد . وفي ١٠ آب سنة ١٠٠٢ توفي المنصور فيما هو عائدٌ من حملته الثانية والخمسين التي اخضع فيها قلانِس .

الدولة العامرية تستمر

وُوفق ابنه عبد الملك، بادىء الأمر، الى أن يخلفه في منصبه، من غير ما معارضة ، فواصل حملاته في شمالي الاندلس . ولكن أخاه عبد الرحمن ائتمر به فمات مسموماً بعد ست سنوات ليس غير . وبلغت الحماقة بعبد الرحمن هذا — ويُعرف باسم شنجول نسبةً الى امه ، وهي احدى بنات شانجُه ملك نبرة — مبلغاً جعله يطلب من هشام ان يوليه عهده ، [ففعل] . فبينا هو غائب يوماً في حملة على نصارى جِلّيقية اعلن الأمويون الثورة عليه — بعد أن حُرموا حقهم من ولاية العهد — وخلعوا هشاماً ليبايعوا ابن عمه محمداً الثاني ، الذي تلقب بالمهدي. فلما جاء عبد الرحمن نبأ

* ويقال «شنت ياقو» و «شنت يعقوب» اي القديس يعقوب .
(المعربان)

الانقلاب قفلَ الى قرطبة لحرب المهديّ، ولكن المرتزقة خذلته، فقتل على ابواب المدينة .

الصراع بين المهدي وسليمان

ودمّر الخليفة الجديد مدينة الحاجب المنصور «الزاهرة» وسعى الى ان يكسر شوكة المرتزقة البربر بعد ان انضمّ اليهم جماعة من صنهاجة، احدى القبائل الافريقية التي كانت من قبل معادية للدولة الاموية في الاندلس ، فحذف اسماءهم من سجل الاعطيات. وإذ لم يستطع ان يعتاض منهم بجند آخرين فقد ائتمروا به وخلعوه في السنة نفسها، مبايعين سليمان [بن الحكم] حفيد عبد الرحمن الثالث. وكان سليمان هذا قد قاد البربر في حرب النصارى في قلعة رَباح * ووادي الحجارة ، ثمّ احتل قرطبة . ولكن المهديّ استعدى على خصمه القائد «واضحاً»، امير مدينة سالم، والكونت ريموند [راي موند] صاحب برشلونة، والكونت ارمنغول صاحب «ارغل»، فهزموا البربر على ابواب قرطبة ؛ وكفّرت العاصمة البائسة عن اختلافات المطالبين بالعرش، بما انزله بها الفاتحون من سلب ونهب. ومهما يكن من أمر فقد ظل البربر يسيطرون على البلاد المجاورة، عازلين قرطبة عن العالم الخارجيّ . وضاقت المدينة ذرعاً بهذه الحال ، فدُبرت مؤامرة للتخلص من المهدي — وكان اضعفَ من ان يَدْفع عن نفسه شراً كهذا — فقُتِل سنة ١٠١٠ ورُفع هشام الثاني الى العرش ، كرّة أخرى . ولكن واضحاً عجزَ عن ان يُقرّ السلام بينه وبين البربر . وأخيراً

---

* Calatrava

أكره هؤلاء اهلَ قرطبة على تجديد ولائهم لسليمان . وإذ تخلى سليمان عن السلطة كلها للبربر فقد استنجد اهل قرطبة بعليّ بن حمود حاكم سبتة السابق، وينتسب إلى الادارسة امراء مراكش القدماء. ولم يكد ابن حمود يقضي على سليمان حتى ثار به اهل قرطبة وقتلوه . ثم إن اثنين من الادارسة تنازعا السلطانَ وسبعةٌ من الأمويين المطالبين بالعرش . واذ لم يستطع احدٌ منهم ان يبسط سلطته المطلقة على المدينة، بعد سقوط آخر الامويين، فقد استولى هشام الثالث على زمام الامر في قرطبة، وانشأ جمهورية ارستوقراطية كالتي انشئت من قبل في طليطلة .

ملوك الطوائف

وتفسّخت الاندلس، منذ اليوم، وتفرق اهلها شيعاً، ففي كلّ ناحية أميرٌ ودولة . وعلى الجملة فقد استبدّ البربر بالسلطان في كلٍّ من المدن الجنوبية، في حين استبدّ الصقالبة بالسلطة في كلٍّ من المدن الشرقية . واذا كان الاسلام قد استطاع ان يَتَثَبَّتَ في شبه الجزيرة بعد أن توزّعت هذه الدويلاتُ الهزيلة تراثه الواسعَ العريضَ، فالفضل في ذلك، من غير شك، لاختلاف النصارى وتناحرهم . وليس في هذه الأسر واحدةٌ تستحق ان نقف عندها وقفةً عاجلة غير بني عَبّاد أصحاب اشبيلية. وكان الأمر في هذه المدينة قد انتهى إلى الطبقة الأرستوقراطية، شأنها في ذلك شأن قرطبة بعد انحلال الخلافة الأموية . وكان قاسم ابن حمود [الادريسي]، اخو عليّ الذي شارك في النزاع على قرطبة، قد مكّنَ لنفسه في مالَقَة وسعى لبسط سلطانه على

اشبيلية أيضاً . ولكن القاضي محمد بن عبّاد ، من [بني لخم] اليمانيين، تصدّر للدفاع عن استقلال مدينته ، فوُفق على الرغم من انه لم يكن يحمل اكثر من لقب القاضي ، إلى ان يترك لذرّيته مُلكاً حسناً ، بعد ان تغلب على عدد من صغار الامراء المجاورين. فلما نهض بالأمر من بعده سنة ١٠٤٢ ابنه عبّاد جرى على خطة أبيه هذه ، فنجح نجاحاً ملحوظاً . وبينا كان محمد حريصاً على ان يخلع على حُكمه صفة شرعية من طريق اعتراف امويٍّ ، على يد هشام ، بسلطته ، نجد ابنه عبّاداً يؤانس من نفسه القوة على قبول البيعة والتسمي بالمعتضد ، على طريقة الخلفاء . والواقع انه قضى على خصومه جميعاً بقساوة لا داعي لها وتجنب ، من طريق المفاوضة البارعة ، ضربات فرديناند (فردلند) الأول ملك قشتالة وليون الذي استأنف نضاله ، عنيفاً قاسياً ، ضدّ المسلمين . حتى إذا توفي المعتضد ، ١٠٦٩ ، ترك لابنه محمد المعتمد دولة عريضة ، نسبياً ، تكاد تنتظم القسم الجنوبي الغربي من الاندلس برمته . وفي سنة ١٠٧١ وفق المعتمد إلى فتح قرطبة أيضاً ، ولكنه اضطرّ الى التراجع عنها بعد ان استولى عليها أحد المطالبين بالعرش ، يؤيده أمير طليطلة . وكما سبق للمعتمد نفسه ان قاد أحد جيوش أبيه ، ولما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، كذلك تولى ابنه عبّاد زمام الأحكام في قرطبة ، حيث قضى نحبه . ولم يقدَّر للمعتمد ان يثأر لابنه حتى سنة ١٠٧٨ عندما استرد قرطبة وانتزع من أمير طليطلة الجزء الجنوبي من ممتلكاته . واذا كان المعتضد قد استطاع ان يتقي عدوان فرديناند ملك قشتالة بجزية أدّاها

اليه ، فقد تعين على ابنه المعتمد أن يرى الى الخطر يتهدد مُلكه من جانب الفونس السادس ،ابن فرديناند ، ذي المطامح الكبيرة. ففي سنة ١٠٨٠ سار الفونس يريد طليطلة ،فلم يوفق الى فتحها الا بعد حصار دام خمس سنوات . وفي هذه الاثناء غزا بلاد المعتمد (سنة ١٠٨٢) ليغسل اهانة وجهت الى [ثقته] الذي كان يأخذ الجزية ، وكان يهودياً ، فاندفع في هذه الغزوة حتى بلغ جزيرة طريف .فلما أتمّ الفونس فتح طليطلة طالب بالأراضي التي سبق للمعتمد أن انتزعها من أمراء تلك المدينة . فلم يكن من المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ، وقد تحققوا عظم الخطر النصراني عليهم ،إلا ان استنجدوا بالمرابطين ،الذين سنتحدث عن ظهورهم في شمالي إفريقية ، بعد قليل . والواقع انه دفع وزملاءه ثمن هذه المساعدة غالياً . فما ان نزلت الهزيمة بالعدو حتى فقدوا عروشهم جميعاً ،واحداً بعد واحد . أما المعتمد فاقتيد إلى افريقية حيث مات في سجن أغمات ، بمراكش، سنة ١٠٩٥ .

تطور الحركة الأدبية

وحفل هذا العصر الذي انتهت فيه الأندلس إلى هوة سحيقة من الانحطاط السياسي ، بحصاد ثقافي عظيم . ومردّ ذلك الى ان ملوك الطوائف كانوا كلما ضعف سلطانهم ، ازدادوا تنافساً في اجتذاب الشعراء الى بلاطاتهم ،وشراء مدائحهم الطنانة ، الجارية على الأسلوب القديم ،بالجوائز السنية .وإنما نبغ أعظم رجال هذه الصناعة ، احمد بن درّاج القَسطلي ، في قرطبة ، ايام الحاجب المنصور .ولقد كان لقلم ابن درّاج هذا جولات في الميدان السياسي ؛

ذلك بأن الاندلس جرت منذ البدء على السنن المشرقي من حيث الاحتفال بالرسائل الرسمية المتبادلة بين الأمراء وإفراغها في قوالب فنية مجوّدة . أما معاصره الأصغر ، ابن شُهيد ، الذي قعد به الصمم عن المشاركة في حياة البلاط ، فقد طارت له شهرة واسعة من طريق منظوماته الطريفة المرحة . والحقّ انه صنّف رسالة رائعة* نقد فيها أدب معاصريه واسلافهم ، وأخرجها مُخرج رحلة إلى وادي الجن . والواقع ان هذا الاطار الفني ، إطار الرحلة الى ما وراء العالم المنظور ، انما استعاره بعد عشرين سنة ، على وجه التقريب ، أبو العلاء المعري ** الشاعر السوري ، واصطنعه وسيلة لنقد مشاهير الشعراء في [الجاهلية] والإسلام . وكان الشاعر ابن زيدون قد انتهى ، بعد سقوط الأمويين ، الى مكانة مرموقة في جمهورية قرطبة الارستقراطية . ولكن حبـــه للشاعرة ولادة [بنت المستكفي] ، التي يجري في عروقها الدم الأموي ، لم يلبث ان خلق خصومة ادبية بينه وبين منافسه في حبها ، ابن عَبدوس ، أكبر وزراء ابن جَهْوَر ، صاحب قرطبة . والواقع ان الرسالة التي كتبها [على لسان ولاّدة] الى الوزير ابن عبدوس يهجوه ويتهكّم به – وهي ملأى بالاشارات التاريخية – أورثته شهرة طبّقت آفاق البلاد ، ولكنها افقدته في الوقت نفسه حريته ، إذ اتهمه خصمه بموالاة الأمويين . ثم انه أعمل الحيلة في فراره من سجنه ليقضي فترة صالحة ، بعيداً عن مسقط رأسه . ولم تُقدّر له

* رسالة « التوابع والزوابع » . (المعرّب)

** في « رسالة الغفران » . (المعرّب)

العودة الى قرطبة إلا بعد وفاة ابن جهور. وسرعان ما اصطنعه ابنه [ابو الوليـــد] ، واتخذه سفيراً له . ومن هنـــا تمت لإبن زيدون صلات وثيقة بملوك الطوائف جميعاً . حتى اذا تغير عليه صاحب قرطبة خلصَ الى المعتضد بن عباد ملك اشبيليه فقرّبه [والقى اليه مقاليد وزارته] . ولما مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد كان له كما كان ابوه ، فخدمه ابن زيدون خدمات جلى ، وبخاصة إبان فتح قرطبة . والحق ان رسائله الهزلية، التافهة على كل حال ، لتمثل كالمقامات التي اخرجها الحريري في الشرق بعد نصف قرن، محاولة أخيرة من جانب الروح العربية الى التماس فن ملائم من القول ، خارج نطاق الشعر التقليدي . وانما بزّهُ في رشاقة الأسلوب منافسه في بلاط المعتمد ، [ابو بكر محمد] بن عمّار الذي اكتسب عطف الملك منذ أيام ولايته على شِلْب من قِبَل ابيه . وما هي الا فترة حتى استشعر ابن عمّار أن ابن زيدون يوشك ان يتقدم عليه عند المعتمد ، بسبب من خدماته في فتح قرطبة، فاتخذ من فتنة اليهود في اشبيلية ذريعة الى التخلص منه فسيره الى تلك المدينة لأخضاع الثورة فيها ، وهناك توفي بعد برهة يسيرة . واخيراً سوّل الطموح لابن عمّار أمراً . فلم يكن منه إلا استقل بمُرسِيَة بعد ان فتحهـا ، وخلع طاعة المعتمد . فقبض عليه المعتمد وقتله سنة ١٠٨٦ . أما مبلغ إعجاب البربر بالأدب العربي واقبالهم عليه ، بالرغم من نزوعهم إلى تعزيز شخصيتهم القومية فيتجلى لنا من قصة بني الأفطس ، ملوك بَطَلْيَوْس. فقد كان جدهم [الاعلى] من المرتزقة البربر الذين استقدمهم الحاجب

المنصور الى اسبانية ، واصطنعهم لنفسه. وفي سنة ١٠٢٢ وُفّق واحد من ذريته إلى أن يخلف الامير الذي كان يعمل هو في خدمته كوزير ، متخذاً لنفسه بعدُ ، وفقاً لسنة العصر ، نسباً عربياً. أما ابنه المظفّر الذي خلفه سنة ١٠٤٥ فقد اعتزل السياسة، بعد أن استسلم لفرديناند [فردلند] الأول من غير مقاومة ، ليلتمس الشهرة الأدبية كمؤلف لمجموعة طريفة من النوادر والأخبار سماها باسمه « المظفّريّ » . وكان ابن عبدون الشاعر وزيراً لابنه عُمر المتوكل الذي استطاع بعد وفاة أخيه يحيى سنة ١٠٨١، ان يفرض سلطانه على الأراضي التي كان حُكمها الى آبائه من قبل، ويحتفظ بها حتى سنة ١٠٩٤ عندما غلبه عليها المرابطون . والواقع ان قصيدة ابن عبدون التي بكى فيها دولةَ بني الأفطس، مُكثراً من الاشارات التاريخية الى مصاير الدول ومصارعها منذ عهد دارا، قد جعلت لهذا البيت شهرة ، في الأدب العربي ، لا يستحقها .

الموشحات والازجال

وتعلّق هؤلاء الشعراء ، وكثير غيرهم ممن نشأوا في ظروف أشد عسراً وقنعوا بجوائز أقل قدراً، تعلقاً وثيقاً بأساليب الشعر ولغته الكلاسيكية التي فقــدت ، منذ زمن طويل ، كلّ أثر من آثار الحياة. بيد ان نفوذ المولدين الجدد ذوي الأصل الأسباني كان عظيماً الى درجة ساعدتهم على ان يكون لهم تأثيرهم في حقل الأدب أيضـاً . ففي بلاط الأمير عبدالله [بن محمد] الأموي (٨٨٨-٩١٢) اجترأ الشاعر الأعمى المقدَّم [بن مُعافى] القبريّ*

* وترد خطأً في كثير من المصادر الحديثة « ابن معافر » ، وهو تصحيف. (العريان)

على تحطيم وحدة الشكل الرتيبة التي تمتاز بها القصيدة، وتجزئتها الى اسماط متعددات . والحق أنه اصطنع في ذلك اللغةَ العامية تتخللها العناصر الاسبانية ؛ ومن هنا نستطيع ان نفترض انه قلد اسلوب الشعر الاسباني، من حيث تعدد الاسماط والأجزاء، ايضاً. ونجح هذا التجديد الشعبيّ نجاحاً عظيماً، حتى لقد فرغ لممارسته نفرٌ من جلة العلماء ، من مثل ابن عبد ربّه الذي أُطلق عليه لقب أول شاعر كبير في المغرب، والذي وضع في «عقده» كتاباً من كتب الأدب التزم فيه عمود التقليد المشرقي أشد ما يكون الالتزام ؛ ومن مثل الرّمادي ، اول شاعر كبير في الاندلس ، الذي لمع إبان سقوط الامويين، وكان بوصفه تلميذاً للقالي اللغوي الكبير ، مالكاً لناصية العربية الفصحى بمحاسنها جميعاً . ثم إن ابن قُزْمان، الذي اتصل ايام شبابه على ما يقال بآخر ملوك بني الافطس في بطليوس، ادخل الى الأدب العربي فناً شعرياً جديداً كان شائعاً في اسبانية من قبل ، هو الزجـل الذي لم يَعد يخضع لأوزان الشعر المتعارفة بل للمقاطع . بيد ان حالة وطنه التعسة (وسنأتي على ذكرها في ما بعـد) حالت دون تقلبه في النّعمة ، في بلاطات الامراء ، شأن غيره من قبـل . فهو يتنقل في البلاد متكسباً بشعره مستعيناً على ارضاء الناس بقردٍ يلاعبه، حتى إذا بلغ سناً عالية استقر في أحد مساجد قرطبة، وقطع الأيام في خدمته. ولقد كان عليه ، في الواقع ، ان يروض نفسه على الغرائز الدنيا التي كان مستمعوه يخضعون لسلطانها، فاذا هو يستثير فيهم نزوات الحب الشاذ. وهكذا طُويت صفحة هذا الفنّ الذي ازدهر يوماً،

في اسبانية ، ازدهاراً عظيماً .

التصنيف في الحب

وحتى في عصر العباسيين ، زهـــا الغزل ، وكان في العهود العربية السالفة رهن الاساليب التقليـدية المكرورة . فلئن كان نظام الحريم قد حال دون الاتصال بالحرائر من النساء، لقد كانت الحياة بما تحفل به من الأماء والمغنيات والجواري تساعد كثيراً على إذكاء العواطف واستثارتها. ولم يستحْيِ اتقياء الفقهاء انفسهم من هذه العواطف ، ذاهبين في ذلك الى حد تبويبها في ضَرْب من النظام المتماسك . وتفصيل ذلك ان داود بن علي (ت ٨٨٤) كان قد انشأ في بغداد مذهباً فقهياً جديداً تنكّر للاجتهاد باكثر مما تنكر له الحنابلة انفسهم ، ولم يأخذ بغير المعنى الحرفي الخالص لنص القرآن والحديث ؛ ومن هنا دعي تلامذته بالظاهرية ، على سبيل المقابلة بينهم وبين الباطنية. ثم ان ابنه محمداً خلفه في زعامة المذهب، وليس له من العمر غير ستة عشر عاماً، فصنف في شبابه مجموعة من المختارات الشعرية جعل الجزء الأول منها، وقد وصلنا دون غيره من الأجزاء ، وقفاً على الحب، وشفعه بدراسة تحليلية لظاهره كاتتجلى في الشعر.* كذلك الف ابن حزم، الفقيه الظاهري الاندلسي، في شبابه ، كتاباً تناول فيه بالبحث المفصل مختلف الرغبات الحبية، وظواهرها، ممثلاً لذلك كله بطائفة من المقطوعات

---

* «كتاب الزهرة» ، نشره لويس نيكل وابراهيم طوقـــان (شيكاغو وبيروت ، ١٩٣٢) .

الشعرية ، معظمها من نظمه . [٣٤] . وهنا نقع ، في حـال من النضج الكامل ، على جميع الاغراض الشعرية التي راجت بعد في الغرب ، في اناشيد التروبادور البروفنساليين ، واغاني الجرمان الغرامية * . واغلب الظن ان فن هؤلاء جميعاً قد خضع للمؤثرات الاندلسية ، وان يكن متعذراً من غير شك ، تعيين السبل التي انتقلت بواسطتها هذه المؤثرات عبر الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية ، بسبب من ان علمنا بحضارة الشمال في تلك الايام ضئيل الى أبعد الحدود .

الحركة العلمية

ونشطَ البحث العلمي في الأندلس في حريةٍ تفوق تلك التي تمتع بها الشعرُ نفسه . ذلك بأنه ، على خلاف الشعر ، لم يكن يعتمد اعتماداً عظيماً على عطف الامراء ورعايتهم ، ومن هنا استطاع ان يتابع أداء رسالته ، غير متأثر بضعف المسلمين السياسي إلا قليلاً . ومن ألمع رجال العلم الأندلسيين ابن حَزْم الذي ذكرنا آنفاً ، والذي كان جده الأعلى اسبانياً من أصل قوطي أو كلتي إيبيري ، ثم أسلم . ولد بقرطبة سنة ٩٩٤ وكان أبوه وزيراً للحاجب المنصور ، فشب في إقطاع اسرته في مَنْتَ لِيشَم في كورة لَبْلَة موكَّلاً بالاضافة الى تحصيله العلمي باتّباع الحب والغزل . بيد أن سقوط الدولة العامرية (التي رفع الحاجب

(٣٤) طوق الحمامة (في الالفة والألاف) . وقد نقله (الى الانكليزية) لويس نيكل ، باريس سنة ١٩٣١

* Minnesingers

المنصور قواعدها)طوّح ُفجاءةً بمجد اسرته وجاهها . والواقع أن الحرب الأهلية التي قضت عليها قذفت به ، بادىء الأمر ، الى ألمَرِيّة ، حتى اذا ُغلب سليمان على أمره اتهم بالتواطؤ مع الأمويين و ُنفي بعد اعتقال دام عدة شهور ، وفي بلنسية اتصل بعبدالرحمن الرابع ، الأموي ،الذي استطاع أن يحتفظ بخلافته ، فترة من الزمان ، هناك . فلما كانت سنة ١٠١٨ تمكن ابن حزم من العودة الى مسقط رأسه ، حيث وزرَ لعبد الرحمن الخامس الخليفة الأموي ، سبعة أسابيع تقضّت هنيئة سعيدة بين أواخر سنة ١٠٢٣ وأوائل سنة ١٠٢٤ . وفي ١٠٢٧ نجده في شاطِبة حيث اختتم صفحة شبابه برسالته في الحب ، الآنف ذكرها . وما هي إلا فترة يسيرة حتى شرع في وضع مؤلفه الديني التاريخي العظيم ، « الفِصَل ، في الملل والأهواء والنحل » . وهو كتاب لم ُيسبق الى مثله في الأدب العالمي ، عرض فيه لمختلف الفرق الاسلامية ، وللديانتين اليهودية والنصرانية، أيضاً ، بأقسى النقد وألذعه ، طاعناً عليها ومندّداً بأصحابها جميعاً . ومع انه كان في أول أمره من الشافعية ،الذين حظوا في قرطبة بتأييد عبد الرحمن الثالث ،كسدٍّ في وجه فقهاء المالكية، فقد انقلب الآن إلى صعيد الظاهرية الرافعين لواء الاسلام كما كان عليه منذ نشأته الأولى ، وشاركهم في حربهم ضد تعنت الأشعرية ، وضد الصوفية ، وتقديس الأولياء ، والخرافات جميعاً . ولسنا نعرف شيئاً دقيقاً عما قام به في النصف الثاني من حياته ،هذه الفترة التي وضع فيها عدداً ضخماً من المؤلفات التاريخية والفقهية .والواقع انه اخفق،

إبان تلك الفوضى التي طغت على هذه الحقبة ، في انشاء مذهب خاص به . ثم إنه وجد الامن عند حاكم جزيرة مَيُورقة طوال عشر سنوات (١٠٣٨ – ١٠٤٨) تمكن في ختامها احد المالكية المتعصبين من إبعاده عنها بسبب خلاف نشب بينهما . ومهما يكن من أمر ، فقد قضى ابن حزم آخر سني حياته في إقطاع أسرته حيث توفي سنة ١٠٦٤ . وعلى الرغم من انه لم ينجح في التمكين لمذهبه ، فليس من شك في انه قد كانت لهذا المذهب آثار مستنهضة في وسط التحجر الذي استولى على الحياة الدينية في الأندلس .

وكان الطب يُعتبر في بلاطات الاندلس ، شأنه في المشرق ، أرفع العلوم اليونانية شأناً وأسماها مقاماً . ولقد ألّف ابو القاسم الزهراوي[٣٥]، المنسوب الى الزهراء ضاحية قرطبة والمتوفى حوالى سنة ١٠٢٣ ، كتاباً * جامعاً لأبواب الطب كلها . والحق ان الأجيال التالية احتفلت احتفالا خاصاً بالجزء المفرد للجراحة في هذا الكتاب ، بما يشتمل عليه من وصف مفصّل للآلات الجراحية ، فنقل الى اللاتينية في القرن الخامس عشر ، ونشر في طبعات عدة .

اليهود في الأندلس

وشارك اليهود في هذه الحياة الثقافية مشاركة فعالة . والواقع انهم كانوا [قبل الفتح الاسلامي] مُنبثين في طول البلاد وعرضها

---

(٣٥) ويسميه الفرنجة Abulcasis

* « التصريف لمن عجز عن التأليف » . (المعربان)

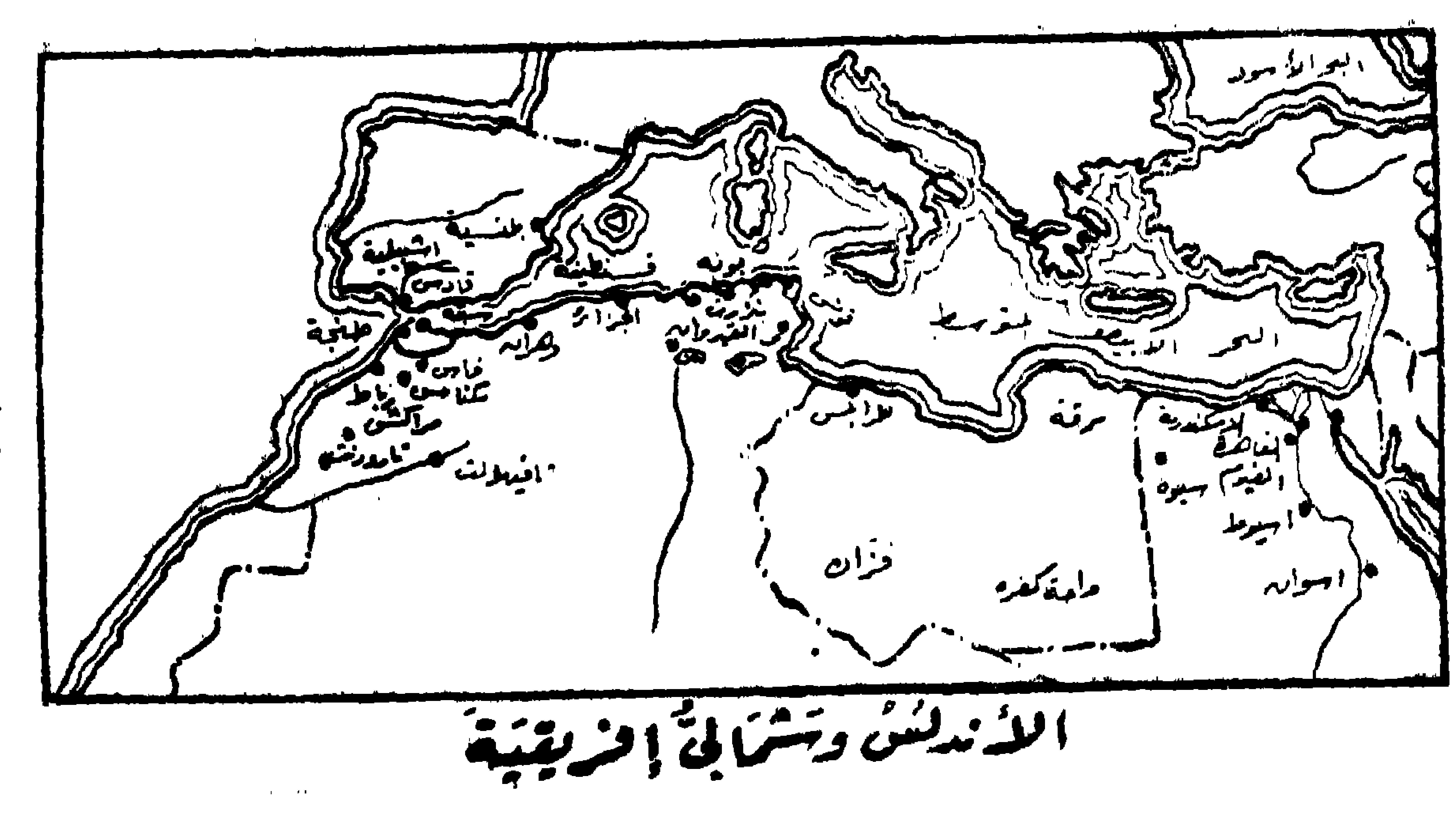
بين القوط ، وانهم عملوا في خدمـــة أمراء النصارى كموظفين ماليـين . فلما آلت مقاليد الدولة الاموية الى عبـــد الرحمن الثالث عهدَ الى طبيبه اليهودي، حَسْداي بن شَبْروط، بشؤون المال ايضاً . ليس هذا فحسب ، بل لقد استطاع احد اليهود ، اسماعيل بن نَغْزالة * ان يبلغ منصب الوزارة في ظـل الامير البربري حَبّوس الذي استولى على الامر في غرناطـــة حوالى سنة ١٠٢٤–بعد أن اعتزل الحكم عمّهُ زاوي بن زيري– والذي دام عهدُه حتى سنة ١٠٣٨. وهكذا خلعت عليه الجالية اليهودية، وكانت كثيرة العدد هناك منذ العصور القديمة ، لقب « ناجد » الخاص بالامراء . وكان المؤلف الذي صبا الى أن يخلد به اسمه في عالم الادب مقتصراً على دراسة القصص اليهودي الذي عُنيَ في الاندلس – كالقصص العربي – عناية خاصة بالابحاث اللغوية. اما سليمان بن يحيى بن جَبيرول، الذي حظي فترة برعاية ابن نغزالة وتأييده، فمدينٌ بشهرته عند اليهود لقصائده العبرية التي تتكشف، في وضوح ، عن اثر الشعر العربي في الادب العبري. ولكنه فرغ ايضاً لدراسة فلسفة ابن مسرّة ، دراسة عميقة ، ضمّنها كتابه « ينبوع الحياة» الذي نقله الى اللاتينية اليهودي المتنصر ، يوحنا الاسباني الطليطلي، فاكتسب صاحبه شهرة بين فلاسفة اللاهوت المدرسيين في الغرب حيث حُرّف اسمه فصار Avicebrol أو Avicebron . والذي لا شك فيه ان يهود الانـدلس لم يكونوا دائماً في نجوة من الاضطهاد . ولقد سبقت منا الاشارة الى الثورة

* « صموئيل بن نجدله » .

التي اندلعت ضدهم في اشبيلية، والتي عهد الى الشاعر ابن زيدون في اخمادها. فلما تمّ السلطان للمرابطين انتهى اليهود الى حال من العسر بالغة، حتى لقد اضطر والد الطبيب والفيلسوف الشهير، ابن ميمون، الى ان يغادر قرطبة حوالى سنة ١١٥٠ الى إفريقية اولاً، ثم الى فلسطين. اما ابن ميمون نفسه ففزع الى مصر حيث نعم باستقرار موصول الحلقات، ساعده على الدرس والانتاج.

البربر في شمالي افريقية

في ذلك الوقت كانت إفريقية الشمالية الغربية، التي تأثرت دويلاتها المختلفة حتى تلك الآونة، بالاندلس من ناحية والجزائر من ناحية ثانية، تتمخض بحركة قدّر لها بعدُ أن تسيطر على كامل الجزء الغربي من العالم الاسلامي. ومع ان قبائل البربر، من اهل الصحراء الكبرى، شرعت تدخل، شكلياً، في الدين الاسلامي منذ القرن التاسع وما بعده، فالحق ان وضعهم الديني كان لا يزال على مستوى منخفض جداً. إننا نعرف من النقوش الرومانية، في شمال إفريقية، مثلاً، ان الالـه « باكه » ظل يحتل عند قبيلة بَرْغَواطة مقام «الله» حتى الربع الاول من القرن الثاني للهجرة. ليس هذا فحسب. بل اننا نجد الى اليوم ان بعض قبائل البربر في شمالي افريقية لا تزال أمينة للدين الذي وجدت عليه آباءها، ولعاداتهم وتقاليدهم، على الرغم من اعتناقها الاسلام اسمياً. والواقع ان جميع الاديان العالمية قد اضطرت الى ان تتساهل مع معتقدات معتنقيها الجُدد السابقة. ففي مصر والشام نفسيهما، حيث كانت النصرانية قد مهدت السبيل للاسلام، استطاعت بقايا



الأندلس وشمال إفريقية

المعتقدات الشعبية الوثنية ان تعيش في تقديس الاولياء وفي بعض العادات المتصلة بالاعياد . ومما تحسن ملاحظته ان الجهود التي بذلها الأعاجم المنضوون تحت لواء الدين الجديد، في جميع البلدان الاسلامية ، لانتزاع المساواة السياسية والاجتماعية التي أنكرها عليهم العرب بادىء الأمر، انما كانت على أشدها في شمالي افريقية، على الخصوص . ذلك بأن روح البربر الديموقراطية كانت تأبى، على الدوام، الخضوع للعرب والاستسلام لمشيئتهم . فمنـــذ ايام الفتح الاولى والارض الافريقية مرتع خصب للثورات التي يعزوها المؤرخون المسلمون الى الخوارج . وليس من شك في ان ما لقيه هؤلاء الخوارج من أذن مصغية ينهض دليلاً عـــلى ثورة الروح القومية ، عند البربر ، في وجه سيادة العرب . ومن هنا كان في ميسور أيما داعية يتوجه في دعوته الى مشاعر البربر القوميـــة ويحملهم على مناهضة السلطة القائمة ان يعتمد على تأييدهم البعيد ونصرتهم البالغة .

المرابطون

وفي قبيلة لـَمْتونة ، احدى قبائل صنهاجة الضاربة في اتجاه الجنوب حتى بلاد السنغال والمسيطرة على الشعوب الزنجية المجاورة، ظهر يحيى بن ابراهيم الجدّالي وانتهى الى مقام الزعامة بعد ان دبت الفوضى في جسم المملكة القبلية القديمة . وحج يحيى هذا سنة ١٠٤٨-١٠٤٩ الى مكة ، فاستشعر حاجة قومه الى اصلاح ديني، واعتلجت في نفسه نزعة عارمة الى تحقيق هذا الاصلاح بعد الفراغ من حجه . وفيما هو عائد الى بلاده لقي في قَفِيس ، من

أعمال الاقليم الذي عُرف بعد بمراكش ، فقيهاً عالماً اسمه عبدالله ابن يس الجزُولي . وأُعجب الفقيه بيحيى ، فصحبه ليعلم قومه احكام الدين الحنيف . ولكن دروس ابن يس لم تثر بادىء الرأي ، غير رجع ضئيل بين البربر ، فما كان منه إلا ان جمع فئة قليلة من اتباعه المخلصين واعتزل بهم في جزيرة السنغال حيث ابتنى لهم رباطاً ، أي قاعدة أمامية يرابطون فيها للجهاد ضد الكفار ، ويفرغون فيها كذلك للعبادة والتأملات الروحية . والحق انه لم يهدف من إصلاحه إلى محاربة المساوىء المتصلة بحياة الافراد الخاصة ، بل عدا ذلك الى مساوىء الحكم كأرهاق الرعية بالضرائب الفادحة . وقضى على ذلك عشر سنوات تكاثر فيها مريدوه . حتى لقد صار في ميسوره ان يوجههم للنضال ضد الامراء المستبدين في الطرف الشمالي من الصحراء . وترك ابن يس قيادة «المرابطين» العسكرية ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة في لمتونة . حتى اذا توفي [يحيى] سنة ١٠٥٦ خلفه اخوه ابو بكر وابن عمه يوسف بن تاشفين . وكان ابو بكر قد بنى بزينب ارملة امير أغمات بعد استيلائه على هذه المدينة ، فقدّر لها ان تمثل دوراً حاسماً في ظلّ أبي بكر وظلّ يوسف جميعاً . وفي سنة ١٠٥٩ قضى ابن يس نحبه في معركة خاضها ضد قبيلة برغواطة البربرية ، على شاطىء الاطلسي — وكانت تتبع رسولاً منها ، وتُعتبر في جملة الكافرين — فتولى زمام الحكومة من بعده القائدان : ابو بكر ويوسف . حتى إذا ذرّ الشقاق قرنه بين ابناء العشيرة الذين لم يبرحوا ديارهم في الجنوب اضطرا الى الافتراق . فانقلب ابو بكر الى الصحراء الكبرى ليقرّ فيها

النظام ، في حين تابع ابن عمه — وكان ابو بكر قد تخلى له عن امرأته — فتوحه في الشمال . وفي سنة ١٠٦٢ بنى يوسف مدينة مراكش وجعلها داراً له . ثم استولى على فاس سنة ١٠٧٠ وعلى طنجة سنة ١٠٧٨ ، وبسط سلطانه بين سنة ١٠٨٠ وسنة ١٠٨٢ على افريقية الشمالية حتى بلاد الجزائر . وعندما حاول ابو بكر أن يمكن لنفسه في الشمال ايضاً ردّه يوسف الى الصحراء الكبرى حيث توفي سنة ١٠٨٧ . وبذلك تمت ليوسف زعامة المرابطين العليا من شاطيء افريقية الشمالي الى السنغال .

وكانت دولة المغرب التابعة للفاطميين قد خسرت ممتلكاتها في جزر البحر المتوسط ، بعد ان استولى عليها النصارى ؛ كما كان قد اضعفها قبل ذلك ايضاً اقتسام الدولة الزيرية بتونس، والدولة الحمادية بالجزائر لأراضيها. ثم ان تهور المستنصر الفاطمي عجل في سقوط هذه الاقاليم. ذلك بأن أعراب بني هلال و سُليم المشهورين بشدة البأس وقوة الشكيمة كانوا قد استقروا في مصر مع غيرهم من أبناء القبائل العربية ، منذ أكثر من مئة عام . وكان الخليفة العزيز الفاطمي قد اكرههم ، بعد قتال شديد ، على الانكفاء من الدلتا الى مصر العليا . وهناك اتصلوا بالقرامطة وأمسوا خطراً على الخلافة الفاطمية. فلما كانت خلافة المستنصر رغب في التخلص منهم فوجههم الى القيروان سنة ١٠٥٢ حيث التمسوا لأنفسهم مراكز جديدة في شمالي افريقية . وانما قصد من وراء ذلك ايضاً إلى الاقتصاص من المعزّ بن باديس الزيري الذي خلع طاعته ، وحارب التشيع في البلاد الواقعة في حوزته. وما لبث البدو ان

اجتاحوا الأراضي السهلية وعاثوا فيها فساداً . فاضطر المعز الى الاعتصام بقره في المهدية، بينا نشأت في المدن الاخرى جمهوريات أرستوقراطية. وقضى الغزاة على الحركة الثقافية التي كانت ناشطة في تلك الديار ، قضاء مبرماً ، وبذلك مهدوا السبيل لانتصار المرابطين .

المرابطون في الاندلس

وفي الوقت نفسه كان ألفونس السادس ملك قشتالة وليون قد أفاد ، أعظم ما تكون الافادة ، من ضعف ملوك الطوائف في الاندلس . فبعد سقوط طليطلة استشعر المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، أن الخطر يتهدده مباشرة . وهكذا اتفق مع صاحبي بطليوس وغرناطة ، وهما اقرب جيرانه اليه، فوجهوا بعثة قوامها قضاة مدنهم الرئيسية الى يوسف بن تاشفين تلتمس منه أن يبعث الى الأندلس بجيش يدفع عنها غارة النصارى . وكان ابن تاشفين قد وُفق قبيل ذلك الى انتزاع سبتة من بني حمود . ومن هنا اعلن استعداده لاجابة الوفد الى ما طلب ، واحترامه لممتلكات حلفائه ، شريطة ان يُمنح الجزيرة الخضراء لتكون مركز انطلاق لجيوشه . وإذ كانت البعثة غير مخولة حق البت في مثل هذا التنازل فقد فارقت ابن تاشفين وهي لا تحمل جواباً منه حاسماً. ولكن ابن تاشفين لم يلبث ان استصدر من فقهائه فتوى تجيز له احتلال الجزيرة الخضراء، برغم ارادة حكامها الشرعيين، في سبيل الجهاد ضد النصارى، فوجه اليها سنة ١٠٨٦ اسطولاً لم يجرؤ الراضي ابن المعتمد وعامل الجزيرة من قِبله، على مقاومته.

وما هي الا فترة قصيرة حتى جـاز ابن تاشفين نفسه الزقاق الى الجزيرة الخضراء، ونظم شؤونها وأتم تحصينها ، ومن ثم سار إلى اشبيلية فأقبل عليه المعتمد والامراء المجاورون، مرحبين خاشعين. وكان ألفونس يحاصر سرقسطة، فما ان جـــاءه نبأ قدومه حتى ارتد للقائه إلى ان بلغ الاقليم المحيط ببطليوس . وطلب ابن تاشفين الى الفونس أن يُلقي السلاح فأبى . فنشبت بينهما، في الزَّلاَّقة، (٢٣ تشرين الأول) معركة هُزم فيهـا النصارى هزيمة شنيعة . فاضطر ألفونس من جراء ذلك الى ان يُخلي إقليم بلنسية ويرفع الحصار عن سرقسطة. ولكنه اصطنع حصن اللـّيط * بين مرسية ولـُورَقـَة، قاعدة للهجوم على اراضي المعتمد. ورجع ابن تاشفين الى المغرب، بعد ان توفي ابنه الذي كان قد أقامه نائباً عنه في سبتة. وعجز الثلاثة الآلاف بربري الذين ظـــلوا في الاندلس عن صد القشتاليين . وكان السيد رُذريق** قد اقام نفسه وصياً على الملك القادر الذي عوضه الفونس من مدينة طليطلة بمدينة بلنسية. فاستنجد الامراء من جميع اطراف الاندلس بيوسف بن تاشفين ؛ حتى إذا فزع المعتمد بن عباد الى بلاطه مستصرخاً ، عزم على القيام بحملته العسكرية الثانية على بلاد الاندلس. وفي ربيـع سنة ١٠٩٠ أجاز جيشَه الزقاقَ الى الجزيرة الخضراء، فانضم اليه أمراء مالقة وغرناطة

---

* اسمى العرب Alédo ايضاً «لبيط ولبطيط» . (المعربان)

** Rodrigo el Campeador « رذريق القنبيطور » وهو صاحب الاسطورة التي بنى عليها الشاعر الفرنسي كورني مسرحيته الشهيرة «السيد» Le Cid . (المعربان)

وألمرية ، فضلاً عن المعتمد ، وتقدموا جميعاً إلى حصن الليط فثبت لهجومهم الأول ، فلم يكن بدٌّ من محاصرته مدة تطاولت إلى ما بعد حلول الشتاء . ومهما يكن من شيء ، فقد ذر قرن الشقاق ، في معسكر المسلمين ، خارج حصن الليط ، بين ملوك الطوائف ، وبخاصة بين المعتصم صاحب ألمرية والمعتمد صاحب اشبيلية ، وبلغت منهما الجهالة مبلغاً جعلهما يحتكمان الى ابن تاشفين . وفي مطلع الشتاء سار الفونس الى حصن الليط بجيش قوي ، ابتغاء انتزاعه من المسلمين . فما كان من ابن تاشفين إلا أن انسحب الى لورقة اجتناباً للإلتحام بقوات الفونس في معركة لا يدري نتائجها ، بسبب من عدم ثقته بحلفائه الاندلسيين . ولم يكن الفونس نفسه راضياً عن سحب حاميته من حصن الليط الى قشتالة بعد أن تركه — وقد أشرف على الخراب من فعل ضرب [المنجنيق] المتواصل — طعاماً للنار . وحتى في أثناء الحصار جاء القضاة الى ابن تاشفين يشكون اليه عجز ملوك الطوائف وضياع هيبتهم فأعار الفاتح شكاواهم أذناً مصغية . والحق ان مؤازرة الفقهاء قد مكنته في تلك الآونة من تحقيق خطة رسمها ، غير شك ، منذ زمن طويل ، للاستيلاء على البلاد كلها . وكان اول ما قام به ، لهذه الجهة ، ان استصدر من قاضي غرناطة وقاضي مالقة فتوى تقول بان ملوك الطوائف ليسوا أهلاً للحكم بسبب من خروجهم المتواصل على أحكام القرآن . ولم يكتف بذلك ، بل عمد الى استطلاع رأي أشهر فقهاء المشارقة في هذا الحكم ، زيادة في الاطمئنان ، فأيدوه جميعاً ، وفي جملتهم الفقيه الكبير ، الغزالي.

ثم ان يوسف عهد الى نسيبه سير ابن ابي بكر في انفاذ مشروعه هذا ، مؤثراً ان يعود هو إلى المغرب . وعجز ملوك الطوائف عن الصمود في وجه الجيوش البربرية . ولم يوفق الى الاحتفاظ بالعرش غير صاحب سرقسطة الذي عرف كيف يكتسب رضا الفاتحين بالهدايا السنية . حتى اذا توفي سنة ١١١٠ نُحي ابنه عن العرش في الحال .

وفي سنة ١١٠٦ توفي ابن تاشفين تاركاً لابنه عليٍّ أقوى امبراطورية عرفها الغرب الاسلامي حتى ذلك الحين . بيد ان التنظيم الداخلي لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف كان ابعد ما يكون عن الاحكام والتماسك . ولم يلبث عليٌّ ان انصرف بكليته الى اشواقه الدينية فاذا بالفقهاء الذين أسهموا بنصيب عظيم في تأسيس الامبراطورية بالذات ، يصبحون الآن وكلمتهم هي العليا في الدولة. ولكن التعصب التقليدي استغرق حياتهم الدينية كلها، فهم لايتسامحون بأيما نزعة،ولو طفيفة،الى التدين الفردي. والواقع ان كتاب إحياء علوم الدين للغزالي اثار عند انتشاره في الاندلس عاصفة من الاستياء وكان من حقه ان يثير نزعة الى محاسبة النفس. ليس هذا فحسب،بل لقد أصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى اتهموا فيها مجدد أمر الدين الاسلامي [الغزالي] بالابتداع والهرطقة فأحرق كتابه في قرطبة، على مشهد من جماهير الشعب،وفُرضت عقوبة القتل على كل من يقرأه في طول المملكة وعرضها. ومن هنا لم يكن عجيباً ان تكون وطأة رجال الدين اشد على غير المسلمين وأثقل. فاضطر يهود أليسانة،وهم أغنى اليهود في الاندلس،

الى ان يشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة ، في حين آثر غيرهم ان يبرحوا البلاد ، فعلَ والد الفيلسوف ابن ميمون . ولم يكن النصارى المستعربة * الذين اتخذوا العربية لغة لهم في كل مكان، احسن حالاً، وأنعم بالاً . ولعلهم من اجل ذلك رحبوا بالهجمات المتكررة التي كان امراء النصرانية يقومون بها على الديار الاسلامية والتي عجز البربر عن مقاومتها، مقاومة فعالة، بعد ان انغمسوا في متارف الحضارة الاندلسية ومناعمها . ففي ١٩ كانون الاول سنة ١١١٨ تمّ لألفونس الاول ملك أرَغون فتح سرقسطة ، معقل الاسلام الامامي في الشمال ، وكانت محل نزاع بين ملوك المسلمين والنصارى زمناً طويلاً. وفي سنة ١١٢٥ اندفع الى ابعد من ذلك في اتجــــاه الجنوب . ومع انه لم يوفق الى تحقيق ما رمى اليه من الاستيلاء على غرناطة فقد انزل بالمسلمين هزيمة مُنكرة قرب مدينة أليسانة اليهودية. عندئذ اصدر ابن رشد ، اشهر قضاة ذلك العصر، وجدّ الفيلسوف الشهير، فتوى بضرورة إجلاء النصارى الذين القيت عليهم تبعة هذه الهزيمة ، الى مراكش ، حيث أُنزلوا في سَلا ومكْناسَة . ولكن الاستياء من حكم المرابطين لم يلبث ان تعاظم في المدن الاسلامية ايضاً ، لان جيوش البربر عاثت في الارض بضراوة لا تقل عن ضراوة المرتزقة من جنود الامراء من قبل ، وشلت حركة العمل والتجارة .

الموحــــدون

ومهما يكن من شيء، فسرعان ما اختمرت بين قبائل البربر

* mozarabs

في شمالي افريقيـــة جراثيم حركة جديدة [٣٦] . ذلك بأن النزاع الفقهي قـد دعا الى ظهور خصم خطير حمل راية الثورة على حكم المرابطين . فالى جانب مذهب مالك الذي استعاد سلطانه في افريقية ايضاً، بعد تحررها من سلطان الفاطميين سنة ١٠٤٩، طغت على المغرب من اقصاه الى اقصاه موجة عارمة من التعصب للسنة تذهب الى تفسير جميع الآيات القرآنية المجسِّمة للذات الالهية تفسيراً حرفياً ، وتعدّ كل مناقشة فيها بدعة او هرطقة . والواقع ان ممثلي هذه النزعة كانوا يعتبرون ان مماحكاتهم المبنية على اساس المتون المعترف بها هي وحدها العلم، وكل ما عداها هراء لا طائل تحته . وكان مذهب المعتزلة العقلاني * قـد تخاذل في وجه هذه النزعة كما رأينا، حتى في قلب العالم الاسلامي حيث نعم فترة من الزمان بحماية الدولة. وايا ما كان، فقد لمع في بغداد، مطلعَ القرن العاشر ، ابو الحسن علي الاشعري (ت سنة ٩٣٥) ، الذي بدأ حياته معتزلياً ثم انقلب ، في سن الاربعين ، الى السنّة وعمل في سبيل تطويرها جدلياً ** وإقامتها على اساس علمي . ولقد كان على تلامذة الاشعري ان يجاهدوا دهراً طويلاً لانتزاع الاعتراف الرسمي بطريقته هذه. فقد كانت هذه الطريقة حتى في السنوات الاولى من حُكم ألب أرسلان تُشجب ، من على منابر المساجد، كبدعة من البدع . ولكن الوزير السلجوقي الكبير ، نظـــام

---

(٣٦) راجع ميليه R. Millet, *Les Almohades, Histoire d'une dynastie berbère*, Paris, 1923

* rationalist

** dialectically

المُلك ، لم يلبث ان ايدها بنصره داعياً الجُوَيني، المشهور بأمام الحرمين ، والقُشَيري الى التدريس في الكلية التي انشأهافي بغداد [المدرسة النظامية] . وعلى الرغم من معارضة الحنابلة الرجعية – هذه المعارضة التي كانت تتمثل بين الفينـة والفينة في شغب الغوغاء – فقد تمت السيادة ، آخر الأمر ، للمذهب الاشعري في بلاد الشرق . ثم جاء الغزالي فأتم ما بدأ بـه الاشعري ، جاعلاً العودة الى القرآن والسنة العمودَ الهادي في الفقه عنده ، ولكنه اعترف ايضاً ، بالاضافة الى عقيدة اهل السنة ، بحقوق الصوفية المعتـــدلة .

وحوالي سنة ١١٠٧رحل الى بغداد محمد بن تُومَرْت من قبيلة مَصْمودة البربرية ، ومن أبنـاء جبل السُوس في الجنوب الغربي من مراكش الحاليـــة ، بعد أن قضى فترة يسيرة في قرطبـــة حيث شهد إحراق مصنفـات الغزالي ، وحيث اثارت كتب ابن حزم في نفسه كثيراً من التأمل والتفكير . وانمـــا قصد ابن تومرت من رحلته هذه الى اتمام تحصيله الفقهي من معينه الفياض في بغداد. وهناك وقف على تعاليم الاشعري،وسرعان ما اعتنقها بالغيرة التي امتاز بها بنو جنسه البربر . فلما رجع الى المغرب أعلن حرباً شعواء على مفاهيم الفقه المجسِّمة ، السائدة هناك ، داعيـاً الناس الى طريقته التي تؤكد في الدرجة الاولى جانب التوحيد ، ومن هنا عُرف اتباعه بالموحدين . اما في صعيد الفقه العملي فقد وضع اعظم التأكيد على السنة كنموذج يحتذى في الحياة ، بينما كان لاجتهادات الفقهاء التشريعية المحل الأرفع في عهد المرابطين.

ولكي يكفل محمد بن تومرت لنفسه اعظم قدر من تأييد أنصاره في هذا النضال ضد المساوىء السائدة في زمانه ، فقد أوقع في روع الموحدين انه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت جوراً . والواقع انه ناهض ، شأن المرابطين من قبله، جميع ضروب الابتزاز غير القائمة على أساس التقاليد الاسلامية القديمة ، وهو ما يؤذن بأن المرابطين لم يلتزموا المبادىء التي كانوا يبشرون بها في خطبهم ومواعظهم .

وبعد أن طاف محمد بن تومرت في مراكش وغيرها من المدن الكبيرة فنبذته لاتجاهاته العنيفة ، وتكشّف له اهلها عن قلوب غلف وآذان صم ، انقلب الى قبيلته في الأطلس (جبال درن) فنجح في نشر تعاليمه بين افرادها. ثم انه بنى مسجداً في تينمَلَل قرب منبع نهر نفِيس ، وبذلك وضع الاساس لعاصمة الموحدين الاولى . ولقد جمع الى نفسه بوصفه مهدياً وإماماً ، مجلساً يتألف من مريديه العشرة السابقين الى قبول دعوته ، وهم المسمون «بالجماعة» ليضيف اليه بعدُ مجلساً آخر ينتظم خمسين مندوباً عن مختلف القبائل البربرية . ولقد عرف ابن تومرت كيف يتملق الوعي القومي عند البربر باستحداثه الأذان للصلاة باللسان البربري. وإذ كان اتباعه يعدُّون سائر الناس كفاراً ، فقد كان في وسعه أن يشن الهجوم على دولة المرابطين في وقت قريب . فاستولى بادىء الأمر على جبل السوس . وفي سنة ١١٣٠ كانت مراكش ممتنعة، ما تزال ، على قواته . ثم ان ابن تومرت توفي ، بعد أربعة اشهر، فخلفه أخلص اتباعه له عبد المؤمن بن علي، وكان قبل وفاة

المهدي ينوب منابه في قيـــادة الجيش . ولما كان عبد المؤمن من غير المصــامدة فقــد كتم مجلس العشرة ، في ما يظهر ، نبــأ وفاة المهدي طوال سنتين ، ليعلن بعدُ خلافته له . وفي السنوات العشر التوالي أنزل الخليفة الجديد الهزيمة بجيـــوش المرابطين ، واحداً بعد آخر . وكانت دولة المرابطين آخذة في الضـــعف والانحلال . فلقد سبق لهم ان هاجموا النورمانديين في صقلية ، سنة ١١٢٢ ، يساعدهم في ذلك الحسن الزيري . وما عتم هؤلاء ان انتقموا لأنفسهم ، فطردوا الزيري من عاصمتـه ، المهدية ، سنة ١١٤٨ — ١١٤٩ واحتلوا الشاطىء الممتد من السوس الى طرابلس، فترة من الزمان . أضف الى ذلك ان النصارى كانوا يتقدمون في الأندلس ويتهددون سلامة الدولة بخطر عظيم .

وتوفي عليّ خليفة المرابطين المستضعف ، في سنة ١١٤٣ فقام من بعده ابنه تاشفين ، فأفرغ جهده في محاولات مخفقة لصد تيار الموحدين . وبعد أن حوصر في تلمسان طوال عام واحد فرّ في محاذاة الشاطىء الى وهران رجاءَ ان يوفق الى الفرار من هناك الى الاندلس مع الأسطول الذي استدعاه من ألمرية . ولـكنه سقط بفرسه ، من على شاهق ، في البحر — قبل ان يبلغ سفنه — فقتل (سنة ١١٤٥ أو ١١٤٦) فيما هو هاربٌ من جيوش الموحدين التي كانت قد احتلت المدينة .

ونشأت في الأندلس ، بعد سقوط المرابطين ، عدة دويلات صغيرة كانت أعجز من ان تقاوم النصارى وتقف تقدمهم . ففي سنة ١١٤٧ وفق ألفونس الأول ، ملك برتقال (البورتغال) الى

ان ينتزع عاصمة ملكه ، أشبونة ، نهائياً ، من أيدي المسلمين ، وكان النصارى قد احتلوها في مستهل حكم المرابطين ، ليعاود سير بن أبي بكر فتحها سنة ١١١٠ . وفي السنة التالية اندفع ألفونس السابع ملك قشتالة في توغله في البلاد حتى انتهى الى قرطبة . ولكن الموحدين تصدوا له هناك فاضطر ان يقف عند ذلك الحد وينقلب على عقبيه . وكان خليفة الموحدين [عبد المؤمن ابن علي] قد قضى على آخر مقاومة لحكمه في شمالي افريقية بعد معارك دامية ضد البربر ، ومن ثم غدا في ميسوره ان يتقدم لقتال أعدائه الخارجيين بعزيمة أشد وأقوى . ولقد كان أول ما فعله ان وجه قائده برّاز الى الاندلس فأكره أتباع المرابطين ، بعد معركة ضارية ، على الانكفاء حتى الجزائر الشرقية* وحرّر الخليفة بنفسه الساحل الافريقي من سلطات النورمانديين الصقليين . وكان يعتزم ان يقوم ، بعد إتمام هذه الحملة ، برحلة الى الاندلس ، ولكن المنية عاجلته فقضى نحبه سنة ١١٦٣ .

ابن طفيل وابن رشد

وفي عهد ولده ابي يعقوب يوسف (١١٦٣ — ١١٨٤) وحفيده يعقوب المنصور (١١٨٤ — ١١٩٩) بلغ الموحدون غاية قوتهم . والواقع ان يوسف اتم اخضاع اسبانية الاسلامية ، ليُقتل بعدئذ ابان حصار شَنْتَرين في معركة ضد الأمير شانجه البرتغالي . وكان والده من قبله قد خضد شوكة المالكية المتعصبين وحدّ من

* وهو الاسم الذي اطلقه العرب على جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) . (المعربان)

نفوذهم، فلما رقي هو عرش الخلافة قرّب اليه الفلاسفة ورفع شأنهم، وكانت الفلسفة من قبـــل ذلك محرّمة . فوفد على بلاطه ، من الاندلس ، اعظم فيلسوفين انجبهما الغرب الاسلامي : ابن طفيل وابن رشد. وكان ابن طفيل، المولود في وادي آش قرب غرناطة، قد نزل بادىء الامر غرناطة وعمل فيها كطبيب، ثم شغل منصب امين السرّ لعامل غرناطة من قِبل الموحدين . وفي سنة ١١٥٤ عُيّن بناء على اشارة رئيسه ، اميناً لسر [الامير ابي سعيد] احد اولاد عبد المؤمن ، وكان اليـــه حكم سبتة وطنجة . وإنما يدين ابن طفيل بشهرته الى اقدم قصة فلسفية اخرجها الادب العربي للناس . وتفصيل ذلك ان ابن سينا كان قد وضع رسالة رمزية صوفية بعنوان « حي بن يقظان » ، فاستعار ابن طفيل بطلهـا لقصته الخيالية حول اسس العلم واساليبه . ولقد تخيل ابن طفيل ان « حياً » هذا ولد يتيماً في جزيرة خالية من الناس ، وانه استطاع ، من طريق الاتصال بالطبيعة ، ان يكتشف الأسس الضرورية للحضارة ، ويصل الى معرفة الالـه والعالم . حتى اذا تقدمت به السن وبلغ الخمسين ، وتمت له نظرة شاملة الى الوجود وقف ، من طريق أبسال وزير الملك سلامان ، صاحب احدى الجزر المجاورة ، على الديانة المنزلة ، فظهر له ولأبسال ان فلسفة احدهما لا تختلف في حقيقتها عن ديانة الآخر. ولكن الملك، الذي تعرّف اليه حيّ بواسطة صديقه، كان اعجز من ان يسمو بنفسه الى المستوى الرفيع الذي تمثله معتقداتهما فآثرا العودة الى الجزيرة المهجورة ليفرغا ، بقية عمرهما ، للتأمل والرياضة ، تاركين الملك

وشغبه للتمسك بالرموز [التي تتمثل بالتزام حدود الشرع والاعمال الظاهرة] لان هذه العبادة بدائية لا تليق ببطلي القصة. والواقع ان هذا الكتاب، الذي نقل الى العبرية بعد مائتي عام ، ثم ترجم الى جميع اللغات المتمدنة تقريباً من طريق اللاتينية [٣٧] ، شاهد بليغ على مدى الحرية التي نعمت بها حركة التوفيق بين التصوف والفلسفة في ظل الموحدين . ولعل ابن طفيل كان يتوقع ان يتابع ابن رشد الصغير ، حفيد قاضي قرطبة الشهير ، رسالته . فقد كان ابن طفيل هو الذي قدّم ابن رشد الى بلاط مراكش ، وهو الذي اوصى سنة ١١٨٢ بتعيينه خلفاً له في منصب طبيب البلاط. ولكن لما كان ابن رشد قد شغل طوال اثنتي عشرة سنة منصب جده وأبيه كقاضي قرطبة فقد اعفاه الخليفة من هذه المهمة . وليس من شك في ان اعظم آثار ابن رشد شروحه على كتب ارسطو، هذه الشروح التي شجعه على وضعها الخليفة نفسه. والحق انها هي التي فتحت للغرب مغاليق الفلسفة الهلينية ، بعد ان نقلها (اي هذه الشروح) ميخائيل الاسكتلندي الى اللاتينية ، في وقت باكر يرقى الى سنة ١٢٣٠ . اما في مصنفاته هو فقد كانت همته منصرفة الى التوفيق ما بين العقيدة الاسلامية ونتائج الدراسات الفلسفية . بيد ان موقفه من مسألة قدم العالم (وقد دافع عنها ضد عقيدة الخلق من عدم) ومسألة علم الله لم يلبث ان اثار نقمة فقهاء الاندلس عليه، كما حمل الكنيسة على تحريم

---

(٣٧) *The History of Hayy ibn Yaqzan*, tr. by Simon Ockley (1708), revised ed. by A. S. Fulton, London, 1929.

نظرياته ، في القرن الثالث عشر. فحاطه خليفة يوسف ،يعقوب [المنصور] ، بادىء الأمر ، بحمايته ورعايته شأن ابيه من قبل. ولكنه اضطر في النهاية الى ان يتخلى عنه لشديد حاجته الى تأييد فقهاء الأندلس في نضاله ضد النصارى ، وكان يطلب عندهم ثأر أبيه ،وان ينفيه الى أليسانة ،قرب قرطبة ، بعد ان امتحنه محنة مؤلمة بأحراق مصنفاته جميعاً خلا الطبية والرياضية والفلكية. وسرعان ما تم للخليفة المنصور ، في ١٩ تموز سنة ١١٩٥ ، نصر مؤزّر على ألفونس الثامن ملك قشتالة ، في معركة جرت عند الأرَك ، على الرغم من انــه لم يوفق الى حسن الافادة من نصره هذا لاضطراره الى ان يعود ، على جناح السرعة ، الى افريقية ، حيث اندلعت نار الثورة . حتى اذا أقر الأمن والنظام فيها عفا عن الفيلسوف واستدعاه الى بلاطه في مراكش . ولكن ابن رشد ما عتم ان توفي في ١٠ كانون الأول سنة ١١٩٨ . وفي السنة التاليـــة توفي الخليفة أيضاً .

الضعف بعد القوة

بيد ان امبراطورية الموحدين التي انتظمت الاندلس وافريقية كلها الى تخوم مصر ، وهي رقعة واسعة لم تجتمع لأيّ من الدول الاسلامية من قبل ،ما لبثت ان اصابها الانحلال في ظل المستضعفين من خلفـــاء المؤسسين الأولين . فلم يكد محمد الناصر يخلف اباه يعقوب حتى واجهته الثورات من كل سبيل . وكان عليه بادىء الرأي ان يقمع ثورة قبيلة غمارَة البربرية في الاطلس [جبال درن] حتى اذا تم له ذلك انقلب الى الجزء الشرقي من الامبراطوريـــة

ابتغاء القضاء على ثورة يحيى بن غانية في إفريقية . وبعد ان اعاد فتح المهدية ، عاصمة الأغالبة ، في كانون الثاني سنة ١٢٠٦ ، عهد في حكم الشرق الى عبدالواحد بن ابي حفص الهنتاتي، الذي سبق لأبيه أن اسدى خدمات جلى الى مؤسس الامبراطورية ، والذي استطاع اعقابه ، بنو حفص ، أن يستقلوا بعدُ بتونس . كذلك قضى الناصر على البقية الباقية من حكم المرابطين. وكان بنو غانية قد استقلوا ، عقب خسارتهم الاندلس، بالجزر الشرقية،فلم يكن من الناصر إلا ان وجه لحربهم اسطولاً من الجزائر ، فوفق لانتزاع ميورقة منهم. بيد انه عجز عن ان يصد تقدم النصارى في الاندلس، صداً حاسماً . ففي ١٦ تموز سنة ١٢١٢ شن ألفونس الثامن ملك قشتالة هجوماً على الأراضي الاسلامية وانزل بخليفة الموحدين عند حصن العُقاب هزيمة قاصمة على الرغم من تفوق الجيش الاسلامي في عدد الرجال تفوقاً كبيراً . عندئذ سارع الناصر الى فاس ، وما لبث ان عين ابنه يوسف نائباً على الدولة برمتها ، وكان يضطلع بهذه المهمة ، حتى ذلك الحين ، وزيره الضعيف ابن جامع. ثم انه توفي في رباط ، يوم ٢٥ كانون الاول سنة ١٢١٣ .

وخضع يوسف المستنصر ، خلال سني حكمه العشر ، خضوعاً تاماً لوزيره الذي لم يكن ليحدّ من سلطته غير النخبة الارستقراطية من الموحدين . وكان محمد ابن ابي حفص ، حاكم تونس ، قد أقسم يمين الولاء ليوسف على كره؛ فلما توفي الخليفة [المستنصر يوسف] ورفع ابنُ جامع ، عبدَ الواحد أخا يعقوب المنصور الى عرش الخلافة ، شبت في البلاد ثورة شاملة . وفي مُرسية بالاندلس ،

بويع عبد الله ، ابن اخي عبد الواحد بالخلافة متخذاً لنفسه لقب «العادل» . عندئذ خلع شيوخ مراكش عبد الواحد ونفوا الوزير . ولم يلبث ان برز للعادل ، في الاندلس ، خليفة منافس هو ابو محمد ، حاكم بَيّاسة ، الذي ادعى اول الامر انه من نسل عبد المؤمن ، ثم عاد فزعم انه من نسل حفص . والتمس ابو محمد نصرة الملك فرديناند الثالث على عدوه ،فلبّى فرديناند النداء مغتبطاً ، بعد ان تنازل له ابو محمد عن بياسة نفسها . وفي سنة ١٢٢٥ هُزم العادل وقصد الى إفريقية تاركاً مهمة النضال ضدّ الثائرين والنصارى لأخيه أبي العُلى . ولكن شيوخ مراكش أبوا ان يقسموا له يمين الولاء ونادوا بابن اخيه يحيى المعتصم خليفة عليهم . ثم ان العادل قاتلَ أتباعَ المعتصم فقُتل . عندئذ هب اخوه المأمون ، في الاندلس ، مطالباً بالعرش ، فوُفق بمساعدة فرديناند التي لم تُبذل له إلا لقاءَ تنازل إقليمي جديد ، إلى التمكين لنفسه في مراكش. حتى إذا طرَدَ يحيى [من مراكش] وتوهم انه قضى على المقاومة كلها إثر مذبحة فتك فيها [بمشايخ الموحدين] سعى الى توطيد دعائم سلطانه من طريق القضاء على عقائد الموحدين وسننهم التي جرى عليها المشايخ ، والعودة الى مذهب مالك . فلم يكن من أبي زكريا ابن ابي محمد ابن ابي حفص ، امير تونس ، إلا ان اتخذ من ذلك ذريعة ً الى خلع طاعة المأمون. والواقع ان ابنه عبد الواحد الثاني ،الرشيد ، ارتد الى عقيدة التوحيد ،عقبَ ارتقائه العرش سنة ١٢٣٢ ؛ فلم يُغْنه صنيعُه هذا شيئاً . ذلك ان أبا زكريا لم يكن قط على استعداد للتخلي عن استقلاله ، وان كثيراً من

حكام المقاطعات والأمصار اقتفوا اثره. فقد كان يغمراسن ابن عبد الواد، من قبيلة زيان، يحكم تلمسان سنة ١٢٣٦ من قبل الرشيد، نظرياً، ولكنه في الواقع كان مستقلاً أستقلالاً مطلقاً، شأن أعقابه من بعده، حتى سنة ١٣٩٣. أما سقوط الموحدين النهائي فقد تم على أيدي بني مرين، من قبائل زناتة البربرية، الذين نجوا بأنفسهم، بعد هزيمة مواطنيهم العامة، سنة ١١٤٥، من طريق الفرار الى الصحراء الكبرى. وكانوا قبل سنة ١٢١٦ قد خرجوا من وادي ملوية فشنوا غارة عبر مراكش الوسطى لم تبق ولم تذر. ولقد وفقوا بادىء الأمر الى أن يوطدوا اقدامهم في اراضي بني رياح، من قبائل العرب. وعلى الرغم من ان قوات [الخليفة] السعيد، الذي تولى الاحكام بعد الرشيد، استطاعت سنة ١٢٤٤ ان تهزمهم وتكرههم على الانكفاء، فقد استأنفوا تقدمهم في عهد خلفاء السعيد هذا. والظاهر ان اميرهم أبا يحيى بن عبد الحق خاصم الموحدين خدمة لبني حفص، واصطنع نفوذ الاولياء المراكشيين (وكان لهم شأن عظيم عند العامة) واستغله لمآربه الخاصة. كذلك سعى الى منح ذوي قرباه إقطاعات خصبة، غنية. وزاد قواته المحاربة أضعافاً باستخدام المرتزقة الاجانب؛ ومن ثم صار في ميسوره ان ينتزع المدينتين الهامتين فاس ومكناسة؛ بالاضافة الى سلا ورباط الساحليتين، من ايدي الموحدين. فلما كانت سنة ١٢٦٩ وبدأ النزاع على العرش، كرة اخرى، في مراكش، استولى ابو يوسف، الذي خلف أبا يحيى، على العاصمة. وفي سنة ١٢٧٥ قضى احد عمال ابي يوسف في الاطلس

على البقية الاخيرة من سلالة الموحدين .

بنو الاحمر

وتصدّر لجهاد النصارى، بعد انسحاب الموحدين من الاندلس، محمد بن يوسف بن هُود ، وكان اجداده من قبل ملوكاً على سرقسطة . وانما ظهر ابن هود ، اول ما ظهر ، في مرسية . ومن هناك وفق تدريجياً الى ان يوحّد اهم المدن الاندلسية تحت رايته، مستغلاً ضعف جيرانه من النصارى . ومهما يكن من شيء ، فقد عادت ليون الى الاتحاد مع قشتالة، سنة ١٢٣٠ ، بعد وفاة الملك ألفونس ، وبذلك استأنف النصارى هجماتهم على المسلمين، منزلين الهزيمة بابن هود ، في شَريش ، سنة ١٢٣١ . وفي الحال برزت الى الميدان شخصية عربية ، وحاولت ان تمكن لذاتها على حساب ابن هود. وتفصيل الامر انه كان يقيم في ارجونة ، شمالي جيان، احد احفاد زعيم الخزرج في عهد النبي، محمد بن يوسف بن احمد بن نصر الذي عُرفت اسرته ببني الاحمر : فسارع سنة ١٢٣١ الى اعلان نفسه أميراً على الاندلس ، وتم له الاستيلاء على جيان ، ووادي آش ، وبَسْطة . وفي سنة ١٢٣٥ احتل غرناطة، وجعلها عاصمة لدولته النصرية ، لتظل كذلك حتى سقوط هذه الدولة نهائياً . والواقع ان التناحر الناشب بين المسلمين أدى ، وشيكاً ، الى سقوط قرطبة ، عاصمة اسبانية الاسلامية القديمة ، في ايدي النصارى ، في ٢٩ حزيران سنة ١٢٣٦ . وبعد سنتين قُتل ابن هود غيلة ، بعد ان خسر معركة أخرى خاضها ضد النصارى . ولكي يدفع ابن الاحمر عن دولته خطر المنافسين دخـــل في حماية فرديناند

الثالث ملك قشتالة (١٢١٧-١٢٥٢) ، كتابع له ، مقابل جزية ضخمة . وفي سنة ١٢٤٨ اضطر الى أن يقدّم اليه [الى فرديناند] مساعدة حربية على اشبيلية. فلما آل الامر الى خلفه ، محمد الثاني ، (١٢٧٣-١٣٠٢) سعى الى التخلص من التزاماته الاقطاعية من طريق التعاون مع دولة بني مرين في مراكش. والحق ان ابا يوسف لم يتردد في التدخل في شؤون الاندلس ، شأن المرابطين والموحدين من قبله ، بعد ان تنازل له محمـد عن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف ، فأجاز جيوشه الى الاندلس اربع مرات متواليات . ومع انه استطاع ان يُوقع بالنصارى أذىً كثيراً ، فقد عجز عن احداث أيما تعديل اساسي في الوضع الحربي . وسرعان ما أمسى جنود البربر ، الذين تكفّل بنو نصر بأرزاق قسم منهم ، عبئاً ثقيلاً على البلاد ، كما كانوا في السابق . ومن هنا سعى محمد الى ان يستنجـد بألفونس العاشر ، ملك قشتالة ، على حليفه المريني ؛ وتقدّم يغمراسن [ابن عبد الواد] ايضاً لعرقلة حملة جيرانه بني مرين على الاندلس. فلما رقي العرش ابو الحسن ، رابع خلفـاء ابي يعقوب ابن عبد الحق المريني اطّرح سياسة اسلافه الاندلسية ، وهكذا استطاع بنو نصر ، بما انتهجوه من سياسة لبقة دائمة التقلب ، ان يعمّروا مائتين وخمسين سنة اخرى ، بوصفهم آخر سلالة اسلاميـة بالأندلس ، في الأقليم الضيق الممتد من ساحل جبـل طارق حتى ألمرية ، والمنبسط في الداخل حتى سلسلة جبال رُندة وجبال إلبيرة .

محي الدين بن عربي

وعرفت حضارة اسبانية الاسلامية ، حتى في معقلها الاخير هذا ،

عهداً من الاشراق والزهو البالغين. والواقع ان مفكرين عظيمين انجبتهما اسبانية الاسلامية في ذلك العهد اختتما حياتهما في الشرق. أما اولهما فابن عربي[٣٨] ، الصوفي، الذي وُلد بمرسية، في ٢٨ تموز سنة ١١٦٥، ودرس الفقه والتشريع في اشبيلية من سنة ١١٧٣–١٢٠٢ ثم قصد الى مكة حاجاً فقضى بقية عمره مطوّفاً في بلاد الشرق. وانما حمله تطوافه حتى آسية الصغرى، ليستقر به المقام آخر الأمر، في دمشق، حيث توفي في تشرين الاول سنة ١٢٤٠. والحق انه كان في وطنه الأم يجري في فلك ابن مسرّة الفكري. اما في مكة فقد خضع ابن عربي لتأثير العقائد القرمطية في وحدة الوجود. وليس من شك في ان انتاجه الضخم الذي بلغ ذروته في «الفتوحات المكية» باجزائها السبعة عشر – وقد وضعها ما بين سنة ١٢٠١ وسنة ١٢٣١، وافرغ زبدتها في كتاب «فصوص الحكم» – نقول ان هذا الانتاج الضخم قد ساعد على تحقيق النصر الحاسم لهذا الضرب من العقيدة الصوفية على الجهود الصوفية القديمة بسبيل الزهد والصفاء. ولقد جرى، في مجرىً مشابه، تفكير مواطنه ابن سبعين الذي تُعزى اليه مجموعة سطحية جداً من الأجوبة عن مسائل فلسفية يقال ان فردريك الثاني ملك صقلية وجهها اليه. ففي اثناء قيامه بفريضة الحج الى مكة عام ١٢٧٠ تتبع عقيدة وحدة الوجود تلك، الى غايتها المنطقية، بأمانة واخلاص فريدين في التاريخ الاسلامي، وسعى الى ارجاع نفسه الى الله واتحادها

(٣٨) راجع (ابو العلا) عفيفي A. E. Affifi, *The Mystical Philosophy of ibn - Arabi*, London, 1939.

معه ، فأقبل على الانتحار .

ابن الخطيب وابن خلدون

وتستطيع هذه الامارة الصغيرة – إمارة بني الأحمر – ان تفخر ايضاً بمؤرخ كبير اضطربت حياته واختلفت عليه الأحوال بعد نعمة وبؤس ، فهو يمثل أحسن تمثيل الحياة السياسية القلقة في هذه الدولة الهزيلة خلال القرن الرابع عشر . وانما ولد هذا المؤرخ الكبير ، لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني سنة ١٣١٣ من أب كان يعمل في بلاط [السلطان ابي الحجاج] يوسف (١٣٣٣ – ١٣٥٤) ، حتى اذا توفي ابوه في معركة جزيرة طريف سنة ١٣٤١ ، اختاره الوزير ابن الجياب كاتباً له . وفي سنة ١٣٤٩ اجتاح الطاعون جنوبي اوروبة وبلدان البحر الابيض المتوسط ، فكان ابن الجياب في جملة ضحاياه ، ومن ثم شغل لسان الدين منصب الوزارة . وما برح في دستها حتى توفي سلطانه ، وتولى ابنه [محمد] مكانه فأقره على الوزارة ، ايام ولايته الاولى ، وهي قصيرة (١٣٥٤–١٣٥٩) . ولم يكن السلطان الجديد ، قد بلغ عند وفاة ابيه ، الحلم ، فنهض بعبء الوصاية عليه احد قواد الجيش ، رضوان . ولقد أثار ذلك حسد قائد آخر يدعى ابا سعيد فاستولى على الحمراء ، قلعة غرناطة ، والأمير الحدث لا يزال في البلاد ، ونادى باسماعيل ، اخي الامير ، سلطاناً ، بعد ان القى الوزير ابن الخطيب في غيابة السجن . وكان السلطان ابو سالم قد رقي عرش الدولة المرينية في مراكش ، قبل ذلك بقليل ، فأفسحت له هذه الاضطرابات في مجال التدخل المرتقب ، في شؤون

الاندلس . فيسّر لمحمد الخامس أمر الخروج من وادي آش، حيث كان يعتصم ، واطلق سراح وزيره الذي لحق به الى دار غربته بمراكش. وفي مدينة سلا الساحلية فرغ الوزير للكتابة والتأليف، في حين انصرفت همة السلطان الى السعي بسبيل استعادة ملكه السليب . وانما ساعده على ذلك مساعدة جلى ابن خلدون قاضي قضاة مراكش ، الذي طارت له بعد شهرة عريضة كمؤرخ .

وكان ابن خلدون هذا ، المولود في تونس سنة ١٣٣٢ ، قد التحق بخدمة [السلطان] ابي الحسن المريني ، الذي فتح تونس سنة ١٣٤٧ ، في مراكش . فاقنعه بضرورة التنازل عن حصن رندة (وكان المراكشيون لا يزالون يحتلونه) لبني الاحمر ، ومن هناك وُفق محمد الخامس الى استعادة عاصمته، غرناطة. وفي الحال تبعه ابن الخطيب ليتقلد مهام الوزارة، وينتهي وشيكاً الى غاية مطلقة من النفوذ والسلطان. وفي سنة ١٣٦١ غادر ابن خلدون مراكش بعد مقتل السلطان ابي سالم ، قاصداً الى غرناطة ايضاً . وعاش العالمان العظيمان في تلك الحاضرة، صديقين حميمين، طوال سنتين اثنتين . ولكن التنافس ما لبث ان عكر صفو صداقتهما . وكان ابن خلدون قد سفر لبني الاحمر لدى بطرة صاحب قشتالة ، فاكتسب ثقته، حتى لقد وعد بطرة بأن يعيد اليه جميع اقطاعات اسرته السابقة في اشبيلية اذا ما دخل في خدمته . ولكن ابن خلدون كان حصيفاً ، فلم يخن ملته ووطنه ، حتى اذا بدا له حسد ابن الخطيب قوياً صارخاً آثر التوجه الى افريقية حيث وزر لصاحب بجاية من بني حفص . وفي الوقت نفسه كان نجم ابن

الخطيب آخذاً في الافول ايضاً . ذلك بانه استغل نفوذه العريض للأثراء الشخصي، جرياً على العادة الشائعة في ذلك العصر، فأوغر حساده صدر السلطان عليه. حتى اذا آنس ابن الخطيب تنكُّر سلطانه له، تفادى من النكبة بالفرار الى سبتة سنة ١٣٧١ متذرعاً بحجة القيام بجولة تفتيشية على حصون جبل طارق. وفي مراكش استقبله [السلطان] عبد العزيز المريني (١٣٦٦ — ١٣٧٢) واكرم وفادته ، وكان ابن الخطيب قد اكتسب عطف السلطان بأن ضمن له حياد عمه وخصومه الطامعين في الملك والمقيمين في غرناطة ، يوم ارتقائه العرش . ثم ان القاضي رماه بتهمة الالحاد مستنداً في ذلك الى بعض كتاباته ، واستصدر فتوى بقتله ، ولكن عبد العزيز ابى ان يسلمه الى أعدائه. وايا ما كان فلم يكد ينقضي على ذلك عام واحد حتى توفي عبد العزيز ففقد ابن الخطيب فيه حامياً ونصيراً . وفي غمرة التنازع المحتوم على العرش اشترى احد المتصدرين لولاية الاحكام ، ابو العباس المستنصر ، تأييد صاحب غرناطة بان وعده بتسليم الوزير السابق اليه. ثم ان تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، محمد بن زُمرُك ، المعروف في دنيا الشعر ، قصد الى فاس للاشراف على متابعة الدعوى عليه ، ولكن ابن الخطيب خُنق في سجنه، قبل ان يُشرع في المحاكمة ، على سبيل الانتقام الشخصي . اما منافسه القديم ابن خَلدون ، فكان أسعد منه حظاً . فقد وفق — في خضم السياسة المتقلب ، وبين ظهراني امراء المغرب — الى ان يحتفظ دوماً بمنصب ذي خطر ، وذلك عن طريق التخلي عن هذا وذاك ، والانسحاب في الوقت

المناسب من سفينة السياسة الغارقة . وفي سنة ١٣٧٨ شرع في تأليف تاريخه العام وهو آمنٌ في قلعة ابن سلامة ، الأمير العربي ، في بلاد بني توجين . حتى اذا قضى في هـذا العمل أربعة أعوام استهوته خزائن الكتب بتونس فسار اليها ، وهناك فرغ لكتابة تاريخ البربر . وما عتمت تونس ان نبتْ به ، فقصد الى مصر وفي عزمه ان يؤدي فريضة الحج الى الكعبـــة . ولكنه مكث في القاهرة حيث عهد اليه السلطان برقوق ، [أول المماليك الجراكسة] في التدريس ، ثم في قضاء المالـكية . وفي هذا المنصب السامي استطاع ان يقي نفسه غائلة المؤامرات جميعاً . فلما كانت سنة ١٤٠١ خرج في جيش المماليك لقتال المغول ، وعلى رأسهم تيمورلنك ، الذين كانوا يتهددون امبراطورية المماليك بخطر عظيم . ثم انه فاوض تيمورلنك هذا في شروط استسلام دمشق . وفي ١٧ آذار سنة ١٤٠٦ اطفأت المنون هذه الروح التي ما فتئت العناية تقيل عثرتها كرةً بعد كرة ، على الرغم من كوارث الزمان المتعاقبة .

وكان بين هذين الوزيرين المتنافسين فروقٌ صارخة في صعيد النشاط الأدبي أيضاً . فابن الخطيب لايعدو ان يكون ، في الواقع ، أديباً من أدباء ذلك العصر المثقفين ، تتمثل فيه مساوئهم ومواطن ضعفهم على اختلافهـــا . ولعل قارئه لا يجانب شاكلة الصواب اذا زعم ان الاسلوب كان يعني ، بالنسبة اليه ، كل شيء تقريباً . والجدير بالذكر ان ابن الخطيب لم يتكشف عن هـــذا الاحتفـال البالغ بالزخرف في رسائله النموذجية فحسب ، بل في مصنفاته التاريخية الكبرى حيث ينزع في كثير من الأحيان الى

التضحية بصحة الرواية ودقتها على مذبح الصناعة اللفظية . والحق ان القرينة التاريخية لا تكاد تعني عنده شيئاً . ففي كتابه الكبير عن تاريخ غرناطة * وكتبه التاريخية الأخرى كانت عنايته باخبار زملائه الأدباء أعظم من عنايته بتصوير مجتمعهم الذي عاشوا فيه . أما ابن خلدون فلم تسمح له حياته البالغة الاضطراب بان يفرغ للأسلوب ينمقه ويزخرفه . لقد كان مولعاً بمصاير الدول ومصارعها . وليس من شك في ان كتابه عن تاريخ البربر فريـــدٌ في الأدب العربي بما هو محاولة لتصوير حياة شعب بكامله في جميع مظاهرها، على أساس الملاحظة الشخصية والدراسة الجاهدة للمصادر . ولكنه مدينٌ بشهرته للمقدمة التي استهل بها تاريخه العام ، على الخصوص . وبينا لا يرتفع تاريخه العام هذا فوق مستوى النموذج الذي وضعه الطبري في تاريخه ، نجد ان ابن خلدون يحاول في مقدمته — التي استفاضت فغدت كتاباً برأسه — ان يرسم الخطوط الكبرى لأول فلسفة تاريخية عرفها الفكر الانساني . ومن الراهن ان الشريعة الاسلامية تطغى على آرائه في الدولة والاجتماع طغياناً كاملاً ، ولكنه مع ذلك مزج بهـــا عدداً من الملاحظات والاستنتاجات الثاقبة ، التي انتزعها من حقبة صاخبةٍ من التاريخ ، عاش جزءاً منها في مقام الصدارة والرياسة، وعاشها كلها وسط تيار الاحداث الجاري . والواقع ان الاحكام السليمة الهادئة التي أصدرها حول مظاهر العلم الاسلامي والحضارة الاسلامية جميعاً، في تلك الدراسة ذات التصميم المنظم والعرض الواضح ، لم تتيسر لأي من المؤلفين

* الاحاطة في تاريخ غرناطة . (المعربان)

المسلمين ، على الاطلاق [٣٩] .

ابن جبير وابن بطوطة

وثمة كاتبان آخران من المغاربة تركا لنـــا صورتين زاهيتين بالالوان الغنية عن الثقافة الشرقية في عصرهما ، مما لا تستطيع اي حقبة سابقة ان تُدلّ بمثله . اما اولهما فابن جُبير الاندلسي الذي ولد في بلنسية سنة ١١٤٥ والذي أبحر لأداء فريضة الحج سنة ١١٨٣ تكفيراً ، في ما يبدو ، عن شربه الخمر ، بعد ان اجبره على ذلك [ابو سعيد بن عبد المؤمن] صاحب غرناطة ، وكان ابن جبير كاتباً له ، يحضر مجالسه واسماره . وانما كان إبحاره من جزيرة طريف الى الاسكندرية ، ومن ثم بطريق القاهرة والبحر الاحمر الى مكة . حتى اذا فرغ من حجه انقلب الى العراق فالموصـــل ، فحلب ، فدمشق ، فعكا ، ومن ثم ركب البحر الى صقلية . ولقد كان من حسن طالعه ان تعرّف الى المشرق وهو لا يزال ينعم بالازدهار والامن في ظل صلاح الدين ، فدوّن مشاهداته فيه ، باسلوب بارع ولكنه خال على كل حالٍ ، من تصنع المحترفين ، من غير ان يتنكر يوماً لثقافته الفقهية . وبالروح المندفعـــة نفسها ، صوّر الحضارة الزاهرة التي وجدها في صقلية على عهـــد غِليام الصالح النورماندي ، مؤكداً مرة بعد مرة ، في ابتهاج ظاهر ، انها لا تزال اسلامية في المحل الاول . وفي سنة ١١٨٥ بلغ غرناطة بطريـــق

---

(٣٩) انظر شميت. N. Schmidt, *Ibn khaldun*, New York, 1930.
وراجع ايضاً جب H. A. R. Gibb in *Bulletin of the School of Oriental Studies*, Vol. 7, London, 1933, pp. 23 - 31.

قرطاجنة . ولكن الحنين الى الاسفار لم يلبث ان استبدّ به بعد اربع سنوات فولى وجهه مرة ثانية ، قِبل المشرق ، حيث قضى عامين آخرين . وعندما بلغ سن الثالثة والسبعين غامر في رحلة اخيرة الى الشرق ، ولكن المنية ادركته قبل ان يصل الى الاسكندرية.
وبعد قرن من الزمان سنه ١٣٢٥ ابحر ابن بطّوطة ، المولود في طنجة ، الى مكة حاجاً ، وليس له من العمر غير واحدوعشرين عاماً . والواقع ان المشرق استطاع ان يفتن هذا الرحالة الشاب بأكثر مما فتن سلفه الذي أفاد ابنُ بطوطة أو راويته من كتابه* إفادة غير محتشمة في ما يتصل بوصف المناطق التي زارهـا كلا الرحالتين ، جرياً مع العرف الادبي الشائع في ذلك الزمان. وإنما استغرقت اسفار ابن بطوطة نحواً من خمس وعشرين سنة ، فجاب [اولاً] أمصار فارس ، وآسية الصغرى ، وشبه جزيرة القِرَم. ومن هناك رافق اميرة يونانية ، هي زوج السلطان أُوزبَك ، في زيارة لابويها في القسطنطينية . ومن الفولغا (نهر إتِل) قصد الى الهند ، عبر آسية الوسطى ، فشغل طوال سنتين منصب قاض في دلهي (دهلي) . ولقد حاول ان يرافق بعثة سياسية الى الصين فلم يتجاوز جزائر [ذِيبة المَهَل]** حيث استقر سنة ونصف سنة تولى في اثنائها القضاء . وبعد ان وفق اخيراً الى زيارة الثغرين الصينيين زَيتون (تسو – ثونج) وكانتون قفل الى شبه جزيرة العرب ، من طريق سومَطرة ، ليبلـغ فاس ، آخر الامر ، في

* « رحلة ابن جبير » .

** Maldive Isles

أعقاب الخريف من سنة ١٣٤٩. وما هي إلا سنوات ثلاث حتى خرج في رحلة اخرى الى بلدان الزنوج ، ليستقر بعد ذلك في مراكش حيث أملى وقائع اسفاره على احد الكتّاب ، تاركاً له صياغتها اللغوية والبيانية جميعاً. والحق ان احداً من الرحالين لا يدانيه في سعة استشرافه العالمي غير معاصره ، ماركو بولو ، البندقيّ الذي كان أسنّ منه ، بعض الشيء ، والذي عهد الى كاتب له في اخراج مذكراته اخراجاً أدبياً. وانما يؤلف كلّ من هذين الأثرين تتمة صالحة للاخر ، في ما يتصل بمعرفتنا بآسية ، لأن الرحالة البندقيّ وُفق الى ان يقدم الينا حقائق عن الشرق الأقصى أصح بكثير من تلك التي تسنى للرحالة المراكشي إيرادها، في حين عوّض هذا الأخير من ذلك النقص بما كان له من معرفة أوثق بالأحوال الثقافية في العالم الذي وصفه. إن احداً منهما لم يكن عالماً جغرافياً، ولكن معلومات الرحالة المسلم الطوبوغرافية أوثق وأجدر بالاعتماد من تلك التي نجدها في رحلة زميله النصراني. ولم يسمح ابن بطوطة لنفسه بأن ‹يخدَع› من طريق النقل عن مصدر ادبي، إلا في وصفه «لأرض الظلمات»، بسبب من انه اطّرح ، في جنوبي الروسيا ، فكرة الرحلة الطويلة الشاقة الى ارض البلغار، الذين كانوا لا يزالون، آنذاك، ينزلون على ضفاف الفولغا الأعلى.

الحمراء

واحتفظت الفنون والصنائع بمستواها الرفيع في دولة بني نصر حتى ايامها الاخيرة، واصبحت اساساً لثروة البلاد وغناها، نخص بالذكر منها صناعة المعادن التي بلغت درجة من الدقة والكمال

عظيمة . وبحسبنا دليلاً على ذلك ان آخر آثار العمارة الاسلامية في الاندلس واكثرها فخامة ، أعني حمراء غرناطة ، إنما شُيّد في عهد تلك الدولة. والواقع ان الجبل المشرف على المدينة كان يُقلّ قلعة في عهد الامويين ، ولكن تشييد قصر الحمراء الشهير بدأ ، اول ما بدأ ، في عهد محمد [الاول الغالب من بني نصر] ، ليتنافس أعقابه من بعده ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، في بناء قاعدة ملكهم. ولم تُصطنع الحجارة والآجرّ في بناء الحمراء إلا قليلاً . فهو في معظمه مشيد من حجر صناعي خاص مركب من التراب والكلس والحصى. وتتصل عقوده وقبابه وسقوفه بعضها ببعض اتصالاً رفيقاً بواسطة ألواح وقضبان من الخشب. ولم يصل الينا شيء على الاطلاق من نماذج هذه الطريقة الفنية الخاصة التي نشأت أول الأمر في الجزيرة الفراتيـــة من غير شك ، وذلك بسببٍ من ضعف المواد البنائية وعدم ثباتهـا على مدى الايام . وانما يحيط براببة القلعة سورٌ مستديرٌ تعلو له شرفات حصينة ، وقلاع عديدة تقيه غائلة العدوان . وفي داخل السور ينهض القصر ، تحيط به جنات مترامية الاطراف . وثمـة ساحتان تؤديان من هـــذه الجنات الى البنـاء الداخلي . وفي الجنوب تطالع الزائر ساحة الرياحين التي تؤدي الى البرج العظيم وقاعـة السفراء في الشمال . والجزء الجنوبي الشرقي من ساحـة الرياحين يتصل بـدار الاسود التي تقود مباشرة الى قاعات الحكم ؛ والتي تقود من جهة اليمين – الى دار ابن سرّاج ومن جهـة اليسار الى قاعة الأختين . والواقع ان ساحة الرياحين سميت كذلك لأن

قوارير الرياحين تحيط بقسم منها بكامله . أما دار الاسود فمدينة باسمها للاسود التي تقلّ البركة في وسطها ، حيث تلتقي مجاري المياه الممتدة من الجانبين . وتزدان واجهات دار الاسود بتصاوير تمثل مشاهد فروسيةٍ وطردٍ ، فضلاً عن عشرة أمراء متكئين ، جنباً الى جنب ، على اريكة عريضة . « ولقد فُرشت الارض بمربعات من الرخام الابيض . وعلى طول الاجزاء الدنيا من الجدران تنتشر طبقة من قطع القاشاني الملون ، يبلغ ارتفاعها نحواً من أربعة أقدام . أما الاجزاء العليا من الجدران فقد كسيت بالجص ، وامتدّ فوقها افريز ملاصق للسقف ؛ وكان ينبثق ، من فوق ذلك ، السقفُ المتدلّي ، تدعمه أحياناً اعمدةٌ صغيرةٌ نصفية ، وهو يتألف من قطع من الخشب مرصوفة في طبقات وخلايا مصنوعة من الجصّ . وقد قامت على دعائم ناتئة من الجدران اساطينُ من الرخام انيقة السبك تعلوها تيجان منوعة الاشكال استقر عليها السقف وتخللتها قناطر خشبية مطلية بالجص . والشكل الغالب على هذه القناطر هو الشكل نصف الدائري المرتفع الذي يُشبه نعل الفرس شبهاً ضئيلاً . ولكن هذه القناطر كثيراً ما كانت تبدو على هيئة الأقواس المحددة بسبب من الجصّ الذي كسيت به. ولقد أقيمت في الجدران فجوات عميقة المدى متباينة الاحجام ، فأما كبراها فكانت مغطاة بالوسائد فهي مواطن تُلتمس فيها الراحة ، واما صُغراها فكانت تُقل أباريق الماء . وانتثرت فوق اقسام القصر جميعاً ، فوق الجدران والسقوف والاعمدة والاروقة والفجوات ، ضروبٌ من الزخارف المترفة . وصيغت قطع القاشاني

باشكال هندسية غريبة متنوعة ، و نقش الرخام اشكالاً أشكالاً ، و صوّر الجص في آلاف وآلاف من الخطوط المنحنية البارزة ليمثل رسوماً من مختلف الانواع – نجوماً ، ومثمّنات ، ونباتات متباينة . ولقد أُرْفِقَ هذا كله بعدد هائل من النقوش الخطية امتدّت على طول الافريز ، والتفّت حول القناطر والنوافذ والفجوات او التقت في طغراآت نثرت نثراً متناسقاً وزخرفت على المنوال نفسه . وكثيراً ما تراءت هذه الطغراآت ، لغير اهل الصناعة ، مجرد خطوط هندسية . وهذه النقوش ، بخلاف نقوش البناء الاخرى ، لاتواجه الناظر بحقائق واضحة ، ولكنها تخاطبه بأبيات من الشعر الخيالي ، او من الوصف الهادىء الذي يميز الشعر الاندلسي . ويبلغ الوقع الذي يتركه جمال هذا القصر في النفس حد السحر عندما تتجلى امام الناظر الصور العديدة الرافلة في غلائل من الذوق الجميل . ولقد سفحت على غرف القصر كلها أسنى الالوان واروعها في سخاء بالغ ، واسراف عجيب . وكانت الغلبة في الاجزاء العليا من القصر للألوان الحمراء القانية والالوان الذهبية والزرقاء ، لعظيم أثرها في العين والنفس ، في حين طغت في الاجزاء الدنيا منه ألوان البنفسج والارجوان والبرتقال . ولقد حليت المربعات الرخامية البيضاء التي فرشت بها أرض القصر بمختلف الألوان ، على ما يستفاد من مختلف الآثار الباقية [٤٠] . »

---

(٤٠) اقتبس المؤلف هذا الوصف من Von Schack

وفي سنة ١٤٧٩ عزمت ايزابل الكاثوليكية ، بعد ان تمّ اتحاد مملكتي قشتالة وارغون نتيجة لزواجها من فرديناند الثاني، على ان تقضي نهائياً على بني الاحمر وتُخرج المسلمين جميعاً من أرض الاندلس . وكان في الشقاق المتصل الذي شتت شمل هذه السلالة الاسلامية ماساعد ايزابل على إنفاذ عزمها ذاك . فقد ثار على أبي الحسن [علي] ، آخر امراء غرناطة ، كلٌّ من ولديه أبي عبد الله محمد[٤١] ، و [أبي الحجاج] يوسف . وفي هذا الصراع الذي وُفق ابو عبدالله في ختامه الى احتلال غرناطة ، تدخّل فرديناند زوج ايزابل بلباقة ودهاء . وبعد ان انتزع من العرب بعض المدن الصغرى التي دافعوا عنها ، ، أحياناً في شجاعةٍ بالغة ، استسلمت له غرناطة ، اثر حصار متطاول ، في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ وأُعطي أبو عبد الله ، بادىء الأمر ، ضيعة نزل فيها فترة من الزمان ، ولكنه لم يلبث ان هجرها الى فاس ، حيث قضى أيامه الأخيرة . ثم إن ديوان التفتيش أكره من بقي من المسلمين في اسبانية على اعتناق النصرانية ، غير عابىء بما نصت عليه شروط الاستسلام . ولكن جموعاً غفيرة منهم جازت الزقاق الى مراكش فزهت على ايديهم حضارتها، وانتشرت أنوارها في الأقاليم الجنوبية .

(٤١) ويدعوه الاسبان Boabdil

الشرق الأدنى في عهد الصليبيين وقيام دولة المماليك بمصر

●

تركنا تاريخ الشرق ، بعد وفاة السلطان محمد ، وقد تداعت امبراطورية السلاجقة الى السقوط . والواقع ان قوة جديدة كانت قد ظهرت في سورية ، قبل ذلك ، فتنافست مع امراء الاتراك واتابكتهم في تجزئة أراضي الخلافة السابقة ، أعني الصليبيين . وليس ههنا مجال الكلام على أهمية الحروب الصليبية بالنسبة الى اوروبة . أما بالنسبة الى العالم الإسلامي فقد كان الفرسان النصارى مجرّد منافسين مزعجين للاتراك ينازعونهم السلطان على سورية ، ولكن تألبهم الشديد المستمر على بيت المقدس الذي يعدّه المسلمون أرضاً مقدسة أيضاً هو الذي خلع على النضال ضدهم ، في ظل صلاح الدين على الأقل ، صبغة دخيلة من التعصب الديني . يدلك على ذلك ، في المحل الاول ، ما نشأ في تلك الفترة من مؤلفات شعبية توسلت بمغازي الرسول وصحابته الى إذكاء روح الجهاد والتضحية في صدور الجند المكافحين عن الاسلام .

عندما ظهر الصليبيون الأولون في سورية ، بقيادة غودفري دي بويون * وجمهرة من الزعماء الفرنسيين والنورمانديين، كانت البلاد مُنجمّة بين عددٍ من الامراء السلاجقة المختصمين المتناحرين؛ ومن هنا لم يخفّ احدٌ منهم لنجدة الامير الذي قُدّر له ان يتلقى الضربة اولاً ، وهو ياغي سيان صاحب انطاكيــة . وكان يحمي انطاكية نطاقٌ قويٌ من الاسوار الممتدة على طول الروابي المجاورة، فتطاول حصار الصليبيين لها لتسقط بعد ذلك في ايدي الفرسان المهاجمين ، بخيانة [أحد المستحفظين للابراج] . وكانت القدس قد انتقلت، في الوقت نفسه ، الى حوزة المصريين، ولكن هؤلاء ما لبثوا ان اضطروا الى التخلي عن المدينة، في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩، من غير ما مقاومة جدية. ومن انطاكية بسط الصليبيون سلطانهم على شمالي سورية ، وكان بغــدوين [٤٢] الاول قد اسس قبل ذلك إمارة في الرُّهاء ، سنة ١٠٩٨. حتى اذا توفي غودفري دي بويون سنة ١١٠٠ ، وكان قد انتخب ملكاً على القدس، رقي العرش من بعده بغدوين الاول ، هذا . وفي سنة ١١٠١ عَهِدَ الى القومص (الكونت) ريموند دي تولوز ** في ان يفتح طرابلس الشام ، لتكون قاعدة لأمارة جديدة ، ولكن تلك المدينة المشرفة على

---

* جاء اسمه في المصادر العربية مصحفاً على صورة « كندفري » في ابن القلانسي ، « ذيل تاريخ دمشق » (بيروت ، ١٩٠٨) ص ١٣٨ (المعربان)

(٤٢) Baldwin I.

** « ريمند » في المصادر العربية . وعرف ريموند هذا عند العرب بصنجيل . (بفتح الصاد وكسر الجيم) (المعربان)

الهضاب الخصبة ، لم تسقط في ايدي النصارى الا بعد حصار دام ثماني سنوات، توفي ريموند اثناءه ، سنة ١١٠٥ ، في الحصن الذي أنشىء لتطويق البلدة على الجبل المقابل لجبل صنجيل * . ثم إن الصليبيين احتفظوا بطرابلس مئة عام .

آل زنكي في الموصل ودمشق

فلما كان الربع الثاني من القرن الثاني عشر اعتز الاسلام ، الذي انهكت قواه منازعات السلاجقة على السيادة في سورية ، بسلالة عرفت كيف تشق طريقها الى الصدارة ، وكيف تحشد قوى المسلمين جميعاً ، لمدّة قصيرة من الزمان على الاقل ، في نضال عنيف ضد النصارى. وتفصيل ذلك ان الموصل كانت قد خضعت منذ سنة ١١٢٧ لعماد الدين زنكي ، التركي ، وكان في اول امره اتابكاً ، اي مؤدباً للاميرين السلجوقيين ألب ارسلان وفرخشاه. وكان عماد الدين جندياً بارعاً وسياسياً لبقاً . بل كان فوق ذلك إدارياً ممتازاً ، فوُفق بهذه الصفات التي اجتمعت له الى توسيع رقعة سلطانه ، شيئاً بعد شيء . حتى اذا توفي سنة ١١٤٦ كانت هذه الرقعة تنتظم كامل الجزيرة الفراتية تقريباً حتى الشمال، حيث كان الأرتقيون لا يزالون يحتفظون بماردين وجزء كبير من سورية. وكان عماد الدين رؤوفاً برعيّته معنياً بصالحها. حتى لقد دعاه السكان، غير مرة، الى ان ينصرهم على جلاديهم السابقين. وساد العدل في ايامه واطمأن الناس الى سلامتهم الشخصية ،

* نسبة الى St. Gilles وبني هذا الحصن على شفا الجرف فوق نهر ابي علي (قاديشا) (المعربان)

بعد ان اتى على تلك البلاد حين من الدهر عَدِمَ فيه الناس الثقة والأمن. فلقد كان ما حول المسجد الجامع في المدينة قاعاً صفصفاً، عند ارتقائه العرش ، فاذا به عند وفاته ميدان مكتظ بالمباني العامرة . وليس من شك في ان أعظم مآتيه ، وآخرها، انتزاعه الرهاء ، سنة ١١٤٤ من ايدي الفرنجة الذين سيطروا عليها نحواً من نصف قرن. وفي غمرة من هذا النصر استشعر عماد الدين الخطر على دولته من مؤامرة كان بطلها ولي نعمته الامير ألب ارسلان السلجوقي نفسه . حتى اذا قضى على الفتنة في غير مشقة، قُتل بيد [جماعة من مواليه اغتالوه ليلاً] في ١٥ ايلول سنة ١١٤٦ أثناء حصاره قلعة جَعْبر ، على الضفة اليسرى من الفرات الاوسط، وكان في حوزة الدولة العُقَيليّة .

واقتسم ابنا عماد الدين الارشدان مملكته فيما بينهما؛ والحق ان احتفاظ هذه المملكة بوحدتها ، في وجه من تألب عليها من الاعداء ، كان أمراً عسيراً . فأما اكبرهما ، سيف الدين غازي، فاستولى على الموصل والجزيرة حتى الخابور ، محتفظاً لنفسه بلقب الأتابك . وأما اصغرهما ، نور الدين محمود ، فاستولى على سورية، متخذاً من حلب قاعدة لحكمه . والواقع ان نور الدين ورث عن ابيه صفات الحاكم الفاضل الى حد بعيد جداً . فبينا كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين، طوال اجيال عدة، يعتبرون ممالكهم إقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة، كان هو أول من استشعر انه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته. ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة، التي تمت له بالادارة البارعة

والتي لم تُثقل كاهل رعيته على كل حال، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالاعداء – وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة – فحسب، بل انفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا* الدراويش، وخانات المسافرين، والمستشفيات، ودُور العلم. ولقد انشأ في دمشق دار الحديث وهي أقدم مدرسة لهذا العلم، والبيمارستان (المستشفى) الذي يحمل اسمه، والذي لم يلبث ان نما وتطور الى مدرسة طبية راقية. ودفن نور الدين في المدرسة المعروفة باسمه.

وكانت سياسة نور الدين الخارجية تهدف قبل كل شيء الى طرد الفرنجة. وكان القومص (الكونت) جوسلين [٤٣] الثاني قد أعاد فتح الرهاء، بعد وفاة عماد الدين مباشرة، بمساعدة السكان المسيحيين، ومعظمهم من الارمن. فلم يكن من نور الدين إلا ان انتقم من الخونة في حملة تأديبية مخيفة صُرع فيها جميع النصارى تقريباً. ومهما يكن من شيء فقد بعث سقوط الرهاء فكرة الحرب الصليبية في اوروبة، من جديد. ووجد البابا اوجانيوس الثالث [٤٤] مبشراً مُلهباً للمشاعر وداعيةً بليغاً الى النضال ضد المسلمين، في شخص القديس برنار [٤٥] فاذا بملك فرنسة لويز السابع، وكونراد الثالث [ملك الالمان] يستجيبان لدعوته سنة ١١٤٦. ولكنّ جيوشهما مُنيت، حتى في تقدمها الى المجر، بخسائر قاصمة، بسبب

* وتسمى ايضاً «تكايا». (المعربان)

(٤٣) Joscelin II

(٤٤) Eugene III

(٤٥) St. Bernard de Clairvaux

من الجوع والمرض اللذين فتكا بها فتكاً ذريعاً ، فلم يصل منها الى الارض المقدسة إلا فلول هزيلة مُتعَبَة . ومع ذلك فقد وطن الصليبيون عزمهم ، هناك ، على ان يشنوا هجوماً جديداً على المسلمين ، متجهين بأنظارهم نحو دمشق اولاً . وكان يحكم دمشق آنذاك مملوك يدعى مُعين الدين أنَر من قِبل مُجير الدين آبَق البُوري ، الذي يرقى نسبه الى احد اتابكة السلاجقة . فلما ظهرت الجيوش الصليبية أمام أبواب المدينة التمس المملوك النجدة من نور الدين ، ولكن الفرنجة اضطروا الى رفع الحصار قبل أن تتقدّم جيوشه إلى دمشق . والواقع ان الشقاق الذي دبّ في صفوف الصليبيين لم يلبث ان افسح لنور الدين في مجال الهجوم . ذلك بأن ريموند ، قومص طرابلس ، استشعر الخطر يَتهدده من حصن عَرِيمَة الذي في حوزة القومص برتراند دي تولوز [٤٦] فاستعدى عليه كلاً من نور الدين ومُعين الدين اللذين هرعا لنجدته ، فدكت جيوشهما حصن عريمة دكاً ، وحملت ريموند أسيراً الى حلب . وانقضت عدة سنوات لم تحدث خلالها غير مناوشات ثانوية بين المسلمين والفرنجة . وانما ظهر لنور الدين ، في هذه الاثناء ، أن من العسير عليه أن يطمئن ، بعدُ ، لمجير الدين الذي كان يخشى تعاظم سلطان نور الدين بأكثر مما كان يخشى الفرنجة بعد أن تفرقوا أحزاباً وشيعاً ، واصطرعت إماراتهم الصغيرة وتناحرت . فلم يكن من نور الدين إلا ان وضع حداً لحكم مجير الدين هذا ، في نيسان سنة ١١٥٤ ، وأقطعه باديء الأمر حمص ، ثم [عوّضه منها] ببلدة أصغر تُدعى

(٤٦) Bertrand de Toulouse

بالِس ، فلما كانت سنة ١١٥٨ اوشكت هذه المناوشات الصغيرة ، الدائرة في الدرجة الاولى حول محور الاستيلاء على قلعة حارِم بين أنطاكية وحلب ، أن تتحوّل لأول مرة تحوّلاً خطراً ، وذلك عندما سار امبراطور بيزنطة ، مانُيُوَل الاول (كومنينُس) ، الى سورية ليقتص من الامير رينولد صاحب انطاكية الذي اجترأ على غزو قبرس . ولقد كان بَغْدوين الثالث على أهبة التحالف مع الامبراطور ضدّ نور الدين ، ولكن نور الدين عرف كيف يُفسد على بغدوين خطته ، من طريق التفاهم مع البيزنطيين الذين كان من همهم ، في المحل الاول ، أن يصونوا حدود مملكتهم ، مؤثرين العافية على التورّط في مغامراتٍ جديدة .

الدولة الايوبية

وكانت تعمل في خدمة عماد الدين وابنه نور الدين عشيرة كردية قُدّر لها أن تبلغ من القوة شأواً مكّنها، بعدُ، من القضاء على السيادة التركية في الشرق الأدنى . وتفصيل ذلك أنه كان لشاذي الكرديّ ولدان استهلاّ حياتهما السياسية في العراق . وكان ايوب ، وهو اكبرهما سناً ، حاكماً على مدينة تَكْريت من قِبل الخليفة العباسي . ولكن اشتراك أخيه شِيرْكوه في حادث من حوادث الاغتيال اضطر الاسرة الى الهجرة . فاما شيركوه فالتحق بخدمة عماد الدين زنكي ، وأما أيوب فالتحق بخدمة [مجير الدين آبق بن محمد] البُوري أمير دمشق . وعندما هاجم نور الدين دمشق كان أيوب على رأس حاميتها ، في حين كان شيركوه يقود القوات المحاصرة . ومهما يكن من امر ، فقد اجتمع

الاخوان اجتماعاً ودياً . ثم ان نور الدين عيّن أيوب حاكماً على دمشق ، وأقطع شيركوه حمص ، حيث حكمت ذرّيته طوال قرن من الزمان . اما شيركوه نفسه فقد قدّر له أن يبرز في ميدان أوسع وأرحب .

وكانت مصر تتخبط في هـذه الاثناء في دياجير الفوضى والاضطراب. فلم يكد العاضد [لدين الله] آخر الخلفاء الفاطميين، يرتقي العرش سنة ١١٦٠ حتى اغتيل الوزير طلائع بن رُزّيك الذي استطاع ان يُقر السلام في البلاد ، فترة وجيزة ، بعد أن مزقت شملها الفتن العسكرية. وفيما حُرم الخليفة نفسه جميع اسباب القوة ، تقريباً، نشب الصراع بين رزيك ابن الوزير القتيل وخلفه في الوزارة ، وبين شاوَر ، الذي سبق لطلائع ان عينه حاكماً على مصر العليا ، فاتخذ من قُوص قاعدة لحكمه . ذلك بأن الوزير الجديد حاول أن يعزل الحاكم الطموح ، فاشتجر بينهما قتال كتب النصر فيه لشاور . (كانون الثاني سنة ١١٦٣) ولكن أبناء شاور هذا ما لبثوا أن أساءوا اصطناع السلطان الذي تم لأبيهم إساءة شائنة ، فلم يكن من أحد قواده ، واسمه ضِرغام ، إلا أن خلع طاعته ، بالتواطؤ مع الخليفة ، في شهر آب من السنة نفسها . والواقع ان شاور اضطر الى أن يخلي له الميدان، من غير مقاومة، ليلتمس العون من نور الدين ، بدمشق . فعهد نور الدين في هذه المهمة الى شيركوه حاكم حمص . وفي نوار سنة ١١٦٤ هزمت الجيوش الشامية المجربة المرتزقةَ الفاطميين ، واعادت شاور الى منصبه في القاهرة . ولكن الخلاف بين شاور وشيركوه

ما عتم ان أطلع رأسه ، فلم يتورع شاور عن استنفار الملك أملريك ، صاحب القدس ، على الرجل الذي هرع لنصره ، يوماً . وطوّق الفرنجة شيركوه في بلبيس ولكنهم عادوا فمنحوه حرية الانسحاب الى سورية ، بعد أن وجدوا أنفسهم في الشمال ، مهددين بسقوط قلعة حارم في يد نور الدين . وبعد ثلاث سنوات يمّم شيركوه شطر مصر ، كرةً اخرى ، ولكنه أكره هذه المرة ايضاً على الانسحاب بعد أن أحرز فوزاً مبدئياً مؤزّراً ، بسبب من تطويق شاور واحلافه الفرنجة لابن اخيه صلاح الدين ابن ايوب ، في الاسكندرية ، وعجز المدينة عن الصمود. والحق انه تعين على مصر أن تدفع ثمن هذه المساعدة الفرنجية غالياً . فقد طالب الفرنجة ، بأن تقيم حاميةٌ منهم في مصر ، وبأن يكون لهم في القاهرة مُقيم أو مفوّض سامٍ ، فضلاً عن جزية ضخمة تؤدى اليهم . فكانت هذه المطالب سبباً في ازمة لم تلبث ان وقعت بين المتحالفين ، فحاصر الفرنجة شاور في القاهرة . وهنا لم يجد الخليفة العاضد بداً من الاستنجاد بنور الدين الذي أرسل شيركوه الى مصر للمرة الثالثة ، على الرغم من ان شاور كان قد وُفق ، في تلك الأثناء ، إلى أن يحمل الفرنجة على الانسحاب ، مضرماً النار في الفسطاط ، بعد أن عجز عن الاحتفاظ بها . حتى اذا حاول أن ينقض التزاماته نحو السوريين للمرة الثانية دعاه صلاح الدين ونفرٌ من المقدّمين في الجيش للمفاوضة عند ضريح الامام الشافعي ، وهنالك بطشوا به في ١٨ كانون الثاني سنه ١١٦٩ . ثم ان العاضد استوزر شيركوه ، فوزر له شهرين اخترمته المنون بعد انقضائهما ،

فخلفه صلاح الدين في هذا المنصب وتلقب بالملك الناصر ، في حين ثبّته نور الدين قائداً للجيوش السورية .

صلاح الدين يقضي على الخلافة الفاطمية بمصر

ووفق صلاح الدين ، بعزيمته الراسخة وموهبته الديبلوماسية النادرة ، الى أن يثب من غمرة هذا الوضع الحرج الدقيق الى قمة من القوة والسلطان لم ينته الى مثلها احد من امراء الاسلام منذ عهد طويل . ولقد تعين عليه بادىء الرأي ان يتخلص من العناصر الزنجية العاملة في جيش الفاطميين لعدم اطمئنانه الى ولائها . وفي الحال أدرك الفرنجة أيّ خطر يتهددهم اذا ما وليَ الاحكام في مصر سلطان مرهوب الجانب ، فالتمسوا الأمداد من أوروبة . والواقع ان اسطولاً بيزنطياً وجيشاً من جنوبي ايطالية ما لبثا ان ظهرا امام ساحل دمياط . عندئذ استنجد صلاح الدين بنور الدين فوجه اليه قوات جديـدة على رأسها والده ، ايوب . حتى اذا تطاول حصار دمياط ، وعجز البيزنطيون عن الحصول على حاجاتهم الضرورية الا بشق النفس ، قنع أملرك من الغنيمة بالاياب على ان يُعطى مبلغاً معيناً من المال . والراجح ان صلاح الدين لم يكن في حاجة قط الى اشارة من نور الدين لكي يقدم على خلع آخر الخلفاء الفاطميين . ومهما يكن من شيء ، فقد قطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي ، سنة ١١٧٢ ، وشرع منذ ذلك الحين يخطب لخليفة بغداد العباسي . وما هي الا فترة ، حتى توفي العاضد . ومع أن صلاح الدين لم يصطنع القوة في كبت النفوذ الشيعي فقـــد خسر الشيعة سنادهم الطبيعي بسقوط الدولة الفاطمية ، لتنتشر

راية السنة فوق ربوع مصر كلها في وقت قريب .

وكان طبيعياً ان يتطرق الى نفس نور الدين الشك في صحة ولاء صلاح الدين له ، بعد الذي رآه من تعاظم قوته واتساع سلطانه . فلم يكد الفرنجة ينسحبون من مصر حتى تطلع صلاح الدين الى فتح فلسطين توطيداً لمركزه في مصر ، شأن القوى التي حكمت بلاد النيل ، خلال التاريخ ، ورأت من واجبها ان تسيطر على هذه الرقعة من الشرق. وفي سنة ١١٧٢ احتلّ ميناء أيلة على البحر الأحمر كقاعدة لأعمال الفتح هذه . حتى اذا رغب نور الدين في ان يثبت قدميه جنوبيّ فلسطين ، وطلب اليه ان يمده بالجند لفتح قلعتي الكرَك والشَوبَك الصليبيتين الواقعتين شرقي نهر الاردن، تعللَ بأن اضطراب الحال في مصر لا يساعده على أداء هذا الواجب. وكان نور الدين قد بدأ يحشد الجيوش ابتغاء تأديب تابعه المتخلف عن نجدته، ولكنه عاد ورضي عنه مرة اخرى بعد ان كاتبه صلاح الدين وتلطف له وتذلل امامه. وعندما شُغل صلاح الدين بأخماد ثورة جديدة شبت نارها بمصر سنة ١١٧٢ عزم نور الدين على مهاجمته ، ولكن الموت لم يمهله فقضى في دمشق، في ١٥ نوار من السنة نفسها .

ومع أن ابنه اسماعيل كان لا يزال في الحادية عشرة من عمره فقد بويع بادىء الأمر بالملك ، من غير معارضة ، متخذاً لنفسه لقب الملك الصالح . والواقع أن صلاح الدين نفسه كان في جملة من بايع اسماعيل هذا ، واعترف به . ولكن ابن عمه سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، الذي كان قد دخل بجيوشه المناطق

التابعة لنور الدين رغبةً في إعانته على معركة مصر ، واصل احتلاله لمدن الجزيرة التي كان قد دخلها . واذ رأى الأوصياء على اسماعيل انفسهم مهددين في الوقت نفسه من الفرنجة ، قبلوا بالتخلي عن الأراضي التي انتزعها سيف الدين وانسحبوا مع الملك الصغير الى حلب ، حيث أملوا أن يكونوا في مركز افضل للدفاع عنه.

ومهما يكن ، فقد كان مركز صلاح الدين في أرض الكنانة مهدداً بالاخطار ما بقيت سورية منفصلة عن مصر ، وذلك لقرب الدويلات الصليبية منها ، بصورة خاصة . فلما توفي أمارك ملك القدس استراح صلاح الدين من خصم خطر ، وكان قد تمّ له قبيل ذلك النصرُ على نورماندي صقلية الذين هاجموا الاسكندرية باسطولهم. وتظاهر صلاح الدين بالاخلاص للملك الصالح اسماعيل ولمصالحه ، فوجه اللوم الى اوصيائه لنزولهم عند رغبة صاحب الموصل [بالتخلي له عن الأراضي التي احتلها] ، وتقدم بجنوده الى ابواب دمشق ، متذرعاً بالدفاع عن حقوق اسماعيل الشرعية فيها. حتى اذا احتل المدينة [47] ، فاوض الأوصياء على اسماعيل في الصلح . وإذ كان اولئك الأوصياء غير مطمئنين الى نيات صلاح الدين – وكانوا في ذلك على طرف الصواب – فقد آثروا التماس المعونة من الفرنجة. فلم يكن من صلاح الدين إلا ان آذنهم بهجوم حاسم ، فاحتل حماه وحمص ، وفي اعقاب صنة ١١٧٢ حاصر حلب. بيد أنه اسطدم هنا بمقاومة باسلة. من اجل ذلك اقترح على خصومه ان ينسحب هو من حماة وحمص على ان يقروه حاكماً على دمشق من قبل اسماعيل. حتى اذا رفض اقتراحه

(٤٧) اما القلعة فاستسلمت بعد ذلك ببضعة أشهر .

هذا، هاجم جيوش اسماعيل وسيف الدين مجتمعة ، في حماة، فهزمها هزيمة منكرة ، ومن ثم حاصر اسماعيل في حلب، كرة ثانية ، واكرهه على عقد صلح يجعل سلطانه قاصراً على تلك المدينة وحدها . واتخذ صلاح الدين ، في الوقت نفسه ، لقب السلطان، وأقره الخليفة على ذلك وبعث اليه بخلعة مع احد الخواص .

وكان قائد حلب قد اغرى احد الحشاشين بقتل صلاح الدين، اثناء حصاره الأول لهذه المدينة، ولكن القائد الكبير نجا مما بُيّت له بأعجوبة. ذلك ان زعيماً جديداً من زعماء الباطنية وفق بعد سنة ١١٦٩ الى ان يعيد تنظيم هذه الجماعة المخيفة في سورية جاعلاً من قلعة مَصْياد ، على السفوح الشرقية من جبال النصيرية ، مقراً له أمنع من عقاب الجو . وكان هذا الزعيم يدعى رشيد الدين سِنان ويعرف بشيخ الجبل . فلما عُقد صلح حلب، بدا لصلاح الدين ان يتخلص من هذه الجماعة، ولكنه لم يلبث ان رفع الحصار عن قلعتهم، وعقد مع رشيد الدين صلحاً احترمت نصوصه ، في شهامة وشرف ، حتى وفاة الشيخ .

وكانت سلطة صلاح الدين لا تزال بعيدة عن الثبات في سورية عندما حاول، في سياسة من النظر البعيد ، ان يمكّن لحكمه في مصر بالسيطرة على مفتاح البحر الاحمر الجنوبي ايضاً. فوجه اخاه تُورانشاه الى هناك، سنة ١١٧٣ ، وكانت السلالتان المسيطرتان على تلك الديار- وهما الحمدانية في صنعاء والنّجاحية في زَبِيْد- قد أُزيلتا على يد احد الخارجين المتعصبين. وتفصيل ذلك انه ظهر في تهامة ، حوالى سنة ١١٥٩ ، رجل زعم انه المهدي - كما زعم

آخرون في التاريخ الاسلامي – وهم كثير – فتبعه بعض الاعراب واستولى على زبيد. واحتفظ حفيده عبد النبي، الذي خلفه سنة ١١٦٢، بمركزه احد عشر عاماً. وليس من شك في ان سادة صلاح الدين قد اعتبروا القضاء على هذا المغتصب الملحد عملاً يرضي الله. واياً ما كان، فلم تكد الحملة المصرية تنجز مهمتها، في غير مشقة او عسر، حتى خلع توران شاه سائر الامراء في صنعاء، ومن ثم حكم هو واعقابه البلاد، حتى سنة ١٢٢٨، كتابعين لذوي قرباهم الايوبيين في مصر.

حطين وفتح القدس

وكان الصليبيون يعتدون ابداً على تخوم المناطق الخاضعة لصلاح الدين في سورية. ولقد حاول ان يقف تقدمهم في جنوبي فلسطين، ولكنه مني بهزيمة شنعاء عند الرملة. ولم يستطع صلاح الدين ان يثأر لنفسه من الصليبيين إلا بعد سنتين، إذ كتب له النصر في مرج عيون. حتى اذا عقد الصلح أفاد منه صلاح الدين أحسن الافادة عاملاً على توطيد سلطانه وتوسيعه في شمالي سورية. وفي سنة ١١٨١ توفي اسماعيل، امير حلب، مستخلفاً من بعده ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل. ولكن عز الدين هذا آثر ان يترك حلب لأخيه زنكي الثاني لقاء تنازل هذا الاخير له عن جبال سنجار المتاخمة للممتلكات التي ورثها عن اسلافه. وقبل ان يثبت الحاكم الجديد قدميه في حلب، احتل صلاح الدين اراضيه. وفي السنة التالية هاجم بلاد الجزيرة وأكره عز الدين على الدخول في طاعته.

والواقع ان الصلح الذي عقد مع صلاح الدين ، والذي كان غي دي لوسينيان خليفة بغدوين الخامس على عرش القدس، حريصاً على إدامته ، كثيراً ما نُقضت احكامـــه بسبب من تمرد الامراء التابعين له وعدم تقيدهم بأوامره. فكان راجينالد دي شاتيون * أمير الكرك لا يني يوقع بقوافـــل الحجاج وقوافل التجارة من حصنه القائم في البلقاء (مؤاب القديمة) شرقي البحر الميت، فوق الجرف المسيطر على طريق القوافل من دمشق الى الحجاز ، ومن دمشق الى مصر ايضاً . ولم يعد في استطاعة صلاح الدين ان يغض الطرف عن هذا كله ، فعزم في اوائل سنة ١١٨٧ على ان يبطش بالمعتدين بطشة كبرى . ثم انـه امر قواته السورية بالاحتشاد في حارم، ليسير هو نفسه الى منطقة الكرك فيلتقي هذه القوات عند بحيرة طبرية . عندئذ حشد ملـك القدس جيشاً عظيماً من الفرسان في صفّورية . وبدلاً من ان ينتظر هجوم صلاح الدين، في هذا الموقع الستراتيجي الصالح، نازعته نفسه الى ان يهاجم المسلمين في اتجاه طبرية، وكانوا قد احتلوها ، فالتقى الفريقان في سهل مرتفع الى الغرب من البحيرة ، صعبٍ كثير الحجارة عديم المياه هو سهل حطين. وهناك انزل صلاح الدين بالجيوش الصليبية هزيمة قاضية ، وأسر ملك القدس نفسه. ومن ثم تساقطت حصون الصليبيين بعد ان اخلتها حامياتها، في طول البلاد وعرضها ، في ايدي المسلمين ، خلال فترة قصيرة من الزمان . حتى اذا كان ايلول سنـة ١١٨٧ انتهى صلاح الدين وجنوده الى ابواب القدس ، التي اضطرت الى الاستسلام في ذلك

* البرنس ارناط في المصادر العربية . (المعربان)

الشهر نفسه [48]. وعلى مشهد من جميع أفراد أسرة صلاح الدين تقريباً دخلت المدينة المقدسة، مرة ثانية، في حوزة المسلمين، وهدم صلاح الدين جميع اماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة. وفي غير ما إبطاء، سعى الى ان يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق. ولكن صور، وكان يدافع عنها كونراد ده مونتفرا، صمدت في وجهه. أما طرابلس فلم ينقذها من السقوط في ايدي المسلمين غير اسطول نصراني معقود اللواء لوليم النورماندي ملك صقلية. والواقع ان سقوط القدس أحيا في اوروبة فكرة الحرب الصليبية من جديد. فحمل الصليب كلٌّ من فردريك الاول [بربروسا] امبراطور ألمانية، وفيليب [أوغسطس] ملك فرنسة، وريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترة، بعد ان اصلح البابا ما بينهم. وفي آب سنة ١١٨٩ طوّق الصليبيون عكا، التي احسن صلاح الدين تحصينها، عقب سقوطها في يده، ما استطاع الى ذلك سبيلاً. وخف صلاح الدين لانقاذ عكا من محاصريها المسيطرين على المرفأ، وبذلك كانوا في وضع افضل من وضع المسلمين. ولكن فيليب وريكاردوس قلب الاسد ما لبثا ان أمدّا الصليبيين ١١٩١ بقوات جديدة يعمر نفوس افرادها النشاط. وفي ١٢ تموز سنة ١١٩٢ استسلمت حامية عكا المطوقة. حتى اذا رفض صلاح الدين ان يدفع الى الصليبيين الفدية الباهظة التي فرضوها لاطلاق سراح السكان المسلمين فتك النصارى بأسراهم، فأجابهم المسلمون بالمثل

---

(٤٨) انظر بولدوين – M. W. Baldwin, *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem, 1140 -- 1187*, London, 1938.

فكانت مجزرة مروّعة من الجانبين . وإذ لم يكن من المستطاع الوصول الى ايما نتائج حاسمة في الميدان فقد شرع الملك العادل ، أخو صلاح الدين ، يفاوض ريكاردوس في الصلح . وكان هذا الاخير قد ملّ الحرب ، ورغب في القفول الى انكلترة خوفاً على ملكه من الضياع ، وهكذا عقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ . واحتفظ صلاح الدين بفتوحه حتى اللد والرملة ، وعسقلان وسمح للنصارى بزيارة القدس حجاجاً عُزلاً من السلاح .

ولم ينعم صلاح الدين بهذا الصلح الذي عقد أخيراً غير بضعة اشهر . ففي نهاية تشرين الثاني سار من القدس الى دمشق حيث حُمّ ومات ، في شباط سنة ١١٩٣ ، وليس له من العمر غير خمس وخمسين سنة . والحق ان حروب صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من اشهر ملوك الشرق ، في اوروبة ؛ اما في الذاكرة الشرقية فلا يزال اسمه خالداً الى جانب اسمي هرون الرشيد وبيبرس ، كرمز لحقبة من أسعد حقب التاريخ واهنأها . وليس من شك في ان قلة ضئيلة من امراء الاسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن ايما نزعة الى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه الى خدمة دولته ورعاياها ، ليس غير . ولم يستطع أعداؤه انفسهم إلا الاقرار له بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب . ليس هذا فحسب ، فقد كان صلاح الدين بالاضافة الى ذلك كله نصيراً للعلم . ولقد وُفّق الى نفر من العلماء حفظوا جميله ، وترجموا له . فوضع كاتبه محمد الكاتب الاصفهاني [ابن العماد الاصفهاني] ، الذي خدمَ من قبل نورَ الدين في دمشق ، والذي رافق صلاح الدين في حملاته

جميعاً ، مؤلفاً أرّخ به لفتح القدس . ومن أسفٍ انه اثقل كتابه هذا بالمحسّنات اللفظية التي توقع في نفس القارىء ان الجانب اللغوي كان أهم ، عند المؤلف ، من الموضوع نفسه . اما السيرة التي كتبها قاضي جيشه في القدس ، بهاء الدين بن شداد ، فأسلس قياداً وأرقّ حاشية . كذلك عنيَ القاضي الفاضل ، العسقلاني المولد — وقد بدأ حياته العامة في عهد آخر الفاطميين ، ثم نهض بعبء الادارة كلها ، منذ تم الأمر لصلاح الدين — بتدوين يوميّات رسمية ، طوال عهده بالادارة العامة ، ولكن يد الزمان لم تحفظ لنا منها ، مع الأسف ، غير نتف صغيرة . أما رسائله الديوانية فلم يصل إلينا منها غير نصوص لم تُختر ، لسوء الحظ ، من أجل أهميتها التاريخية ، بل لجمالها الأسلوبي . وإنما نقع على صورة حية عن الثقافة ، في عصر صلاح الدين ، في مذكرات الفارس أُسامة بن مُنقذ ، [كتاب الاعتبار] ، وكانت أُسرته تحكم شَيزَر شمالي حماه . وفي عهد البوريين بدمشق نشأت بين أُسامة هذا وبين فرسان الفرنجة صلات ودٍ وصداقة . ثم إنه شارك في حملات نور الدين عليهم ، وانضوى تحت لواء صلاح الدين بدمشق ، على الرغم من بلوغه سناً عالية . ومع أنه كان متمكناً من الصناعة اللفظية الشائعة في عصره ، على ما تشهد سائر كتبه ، فقد ازدراها بالكلية في مذكراته هذه . إنه ههنا يقصّ علينا ، في لهجة قصصية بسيطة ، مختلف مغامراته في الحرب والسلم ، وفي الطرد بصورة خاصة . وإنه ليبلغ غايةً عجيبة من النزاهة والتجرد في أحكامه على المسلمين

والنصارى جميعاً . [49]

ولكن صلاح الدين كان ، الى ذلك ، نصيراً لفقهاء السنة الذين استطاع بواسطتهم ان يقضي قضاء حاسماً على نزعات الفاطميين الشيعية في مصر . والواقع أنه لم يستشعر الحاجة الى إقامة ديوان لامتحان الزنادقة إلا مرة واحدة . وتفصيل الأمر ان مهاجراً فارسياً من آسية الصغرى يدعى السُهرَوَردي انصرف في حلب ، وكان يلي أمورها الملك الظاهر بالنيابة عن أخيه صلاح الدين ، إلى آراء غنوستية قائمة على أساس الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية الجديدة ، بعد ان وقفَ على فلسفة أرسطو وافلاطون . وإنما تقوم تعاليمه على هذه القاعدة التي سبق للمتصوفة النصارى والمسلمين وللفلاسفة أن أشاروا اليها إشارات رفيقة ، والتي تقول بأن ثمة نوراً روحياً يتخلل الكون كاشراق لدني هو جوهر الأشياء جميعاً . ولا تزال فلسفته الأشراقية هذه ظاهرةً في نظام الدراويش الذي سبق أن انشأه في آسية الصغرى . والواقع ان تعاليمه ما لبثت ان أثارت شكوك علماء السنة فزعموا انه يمثل عقيدة القرامطة المعادين للدولة . وهكذا لم يكن في وُسع صلاح الدين ، رغم اعتداله ، إلا ان يصدق حكم الموت الذي أصدره القضاء على الملحد ، (سنة ١١٩١) .

آثار صلاح الدين العمرانية

وخدم صلاح الدين فن العمارة خدمات جلى في القدس والقاهرة . فأما في القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى

---

(٤٩) وقد ترجم (الدكتور) فيليب حتي كتاب أسامة هذا (الى الانكليزية) بعنوان . *An Arab- Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades*, **New York, 1929** .

(الذي اتخذه الصليبيون قصراً لهم) وتزيينه بالفسيفساء والرخام. ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبراً نفيساً أُتيَ به من حلب، ولا يزال باقياً الى اليوم. وأما في القاهرة، فقد شيد أول مدرسة ذات أربعة أروقة عند ضريح الأمام الشافعي. ولقد خدم اهدافه العسكرية بأنشاء قلعة القاهرة، التي لم يُمهله الأجل حتى يُتمها. وكان منذ سنة ١١٧٩ قد رسمَ خطة لدمج القاهرة والفسطاط في وحدةٍ متماسكةٍ حصينةٍ. فشرع في بناء القلعة الى الشرق، بين المحلتين، على طراز القلاع الصليبية، وكان يرجو، في الوقت نفسه، ان يتخذ هذه القلعة مقراً له. ليس هذا فحسب، بل لقد كان من همه ان يصون القاهرة من كل هجوم قد تتعرّض له من جهة الشام، بسورٍ يمتد حتى جبل المقَطم في الشرق. ولكنه لم يستطع ان يُنجز إلا جزءاً من مشروعه، إذ انشأ السور الشمالي ليس غير. اما سائر التحصينات فلم يباشر في انجازها بجدٍّ، البتة.

الايوبيون في سورية ومصر

وقسّم صلاح الدين الامبراطورية قبل وفاته ما بين وارثيه. فأما اكبر اولاده، الملك الأفضل، فقد عهد اليه بالسلطنة، بوصفه رأسَ الأسرة، بالاضافة الى دمشق، وجنوبي سورية. وعهد الى ابنه الملك العزيز [عثمان] بالديار المصرية، ولولده الملك الظاهر [غياث الدين] بحلب وشمالي سورية. أما الملك العادل [سيف الدين]، أخو صلاح الدين، فورث ممتلكات الامبراطورية في الجزيرة الفراتية. ولم تكد تنقضي سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الخلاف بين اولاده. والواقع ان

عمهم الملك العادل عرف كيف يحرّض بعضهم على بعض، وبذلك استطاع القضاء عليهم واحداً بعد آخر. وفي حلب وحدها قدّر لذرية صلاح الدين البقاء حتى الغزو المغولي (سنة ١٢٦٠). حتى اذا انقضى القرن الثاني عشر كان الملك العادل قد ُوفق الى ان يوحّد معظم اجزاء الامبراطورية ، واعترف بـه افراد الاسرة المالكون في حلب واليمن سيداً . ومع ذلك فقد وزع ممتلكاته على بنيه ، وهو على قيد الحياة . فعهدَ بمصر الى الكامل ، وعهد بدمشق الى المعظم ، وعهد بالجزيرة الفراتية الى الاوْحد والفائز والاشرف على التعاقب ، فكانوا ينوبون عنه في حكمها .

فردريك الثاني في فلسطين

واستطاع الايوبيون على الرغم من هـذه القلاقل ان يصونوا البلاد الواقعة في حوزتهم من عدوان الصليبيين ، ومن عدوان جيرانهم في آسية الصغرى ايضاً. وكانت فكرة الحرب في سبيل الارض المقدسة قد انكمشت ، في تلك الفترة ، وعفّى عليها النسيان او كاد . ولكن اندراوس ملك المجر لم يلبث ان بعثها من مرقدها سنة ١٢١٧ ، فجهز حملة وجهها الى مصر . وكان الملك العادل قد توفي (سنة ١٢١٨) قبيل وصول الحملة الى دمياط فتعين على ابنه الملك الكامل ان يمكّن لسلطانه ،أول الامر ، في بلاده نفسها ، ومن هنا عجز عن الاحتفاظ بذلك الحصن الذي يسيطر على الجناح الايمن من دلتا النيل .بيد ان الصليبيين ما كان في طوقهم ان يثبتوا لهجمات الايوبيين المنظمة، فاضطروا في السنة التالية الى الانسحاب من دمياط. وما هي الا فترة وجيزة حتى

أدّت دسائس السياسة الاوروبية المعقـــدة الى استئناف النزاع لامتلاك القدس . وتفصيل ذلك ان فردريك الثاني الذي رفعـه البابا انوسنت الثالث الى العرش [وكان البـابا وصياً عليه] لم يكن مُلزَماً بأن يوافق على توسيع الدولة الكنسية على حساب الامبراطورية ، وبأن يمتنع عن التدخل في الانتخابات الاسقفية في المانية فحسب — وذلك لقاء ما حظي به من تأييد الكرسي البابوي — بل كان عليه ، الى ذلك ، ان ينذر لله على نفسه حملةً صليبية (سنة ١٢١٥) . وعلى اية حال فقد كان فردريك أبعد ما يكون عن التفكير في ايفاء هذا النذر ، لانهماكه الشديد في إقامة ادارة جديدة في صقلية — وقـــد آل اليه حكمها بعد النورمانديين — يستطيع بواسطتها أن يسترد ايطالية . والواقع انه عطف كالنورمانديين من قبل، على الثقافة العربية، واحتفظ بالمرتزقة العرب . وفي سنة ١٢٢٧ حرم البابا غريغوريوس التاسع الامبراطور فردريك ، بعد ان أسرف في المماطلة والتسويف . عندئذ سارع فردريك الى الأيفـاء بنذره ، ميمماً وجهه ، من برنديسي ، شطر الارض المقدسة ، عام ١٢٢٨ . والواقع ان الملك الكامل كان قد اتصل به ، قبل ذلك ، ليضمن مساعدته له في صراعه ضد اخيه ، الملك المعظم ، في دمشق . حتى اذا هبط فردريك الثاني ارض فلسطين ، كان المعظم قد توفي ، وكان الكامل قد اسلم دمشق الى اخيه [الاشرف] يحكمها بالأضافة الى ممتلكاته في الجزيرة الفراتية . ومع ذلك فقد استؤنفت المفاوضات وتعهد الصليبيون بان يحترموا ممتكات الملـــك الكامل السورية

مقابل تنازله لهم عن القدس وبيت لحم والناصرة ومجازين يوصلان الى كل من يافا وصيدا ، قبل ان يقتتل الفريقان في الميدان. وفي ١٨ آذار سنة ١٢٢٩ تُوج فردريك بوصفه زوجاً لأيزابل ملكة الارض المقدسة ، في كنيسة القيامة بالقدس . ولكن هذه الصفقة الديبلوماسية لم تصادف قبولاً عند النصارى والمسلمين على السواء. وفي الحق، فقد أمرَ البابا بحرم شامل يفرض على المدينة المقدسة ، ما أقام فردريك هناك .

لويز التاسع في دمياط – شجرة الدر

وأفاد الملك الكامل من الصلح الذي دفع ثمنه في فلسطين ، فانصرف الى نشر سلطانه في الشمال على حساب سلاجقة الروم. فأثار ذلك حسد اخيه الملك الاشرف في دمشق . ونجّت المنية الملك الكامل من منافسه هذا الذي توفي لدن وصول اخيه الى ابواب دمشق . ولكن الملك الكامل نفسه لم يلبث ان توفي على اثره (سنة ١٢٣٨) ، فخلفه ابنه الملك العادل. ولم تنقضِ سنتان حتى ثار اخوه ، الملك الصالح [ايوب] عليه واخرجه من مصر . ثم ان الملك الصالح استطاع ، بقوة من الاتراك الخوارزمية الفارّين من وجه جنكيزخان، ان يفتح القدس سنة ١٢٤٤، وكان قد احتلها موقتاً، سنة ١٢٣٩ [ابن عمه] امير الكرك [الناصر] داود [بن المعظم] ،بعد انقضاء أجل المعاهدة المعقودة مع فردريك الثاني . ولكن الصالح خسر ، من ناحية ثانية ، مدينة دمشق ، ليستولي عليها عمه الصالح اسماعيل، الذي كان قد اضطر بعد وفاة اخيه الملك الاشرف الى ان يُخلي المدينة للملك الكامل . ولكن

الملك الصالح لم يلبث ، بعد فتحه القدس ، أن استرد دمشق ، وبذلك تم توحيد امبراطورية صلاح الدين، بكاملها تقريباً ، حتى حلب والجزيرة العليا من جديد. ومع ذلك فقد كان عهده حافلاً بالصراع ضد منافسيه من الأيوبيين انفسهم ، وضد الفرنجة ،وضد الاتراك الخوارزمية الذين كانوا دوماً على استعداد ليحاربوا في صفوف من يدفع لهم اعظم العطايا . وفي سنة ١٢٤٨ ، فيما كان [الصالح ايوب] يعمل في دمشق على تجهيز حملة لقتال يوسف الثاني ، صاحب حلب ، جاءته الانباء بغزو الفرنجة لمصر ، كرّة اخرى ، بقيادة لويز التاسع ، ملك فرنسة ، المعروف بالقديس. واحتل لويز وجنوده دمياط . بعد ان شاعت الفوضى في صفوف المدافعين عنها لما علموا من مرض الصالح . حتى اذا توفي في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٢٤٩ كتمت امرأته شجر الدر – وكانت من قبل جارية من جواريه – خبر وفاته ، الى ان حضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة الفراتية .وكان توران شاه قد نُشّىء بعيداً عن مصر فشب جاهلاً لأحوالها بالكلية . ومن هنا آثر مماليكه الذين اصطحبهم من الجزيرة على المصريين وجعلهم المقدَّمين عنده ، فائتمر خصومه به وقتلوه في مستهل [نوار] عام ١٢٥٠ ؛ وكان قد وفق ، قبل ذلك ، الى استرجاع دمياط ، وأسر لويز التاسع نفسه . وعندئذ صدر الأمر الى الجيش باخلاء هذه المدينة من سكانها ودكها ، دفعاً لكل اعتداء قد يأتيها من جانب البحر منذ اليوم . وبعد مقتل توران شاه نصّب المماليك شجرة الدر ملكةً ، على ان يكون [عز الدين] أيبك [الجاشنكيري

الصالحي *] اتابك العسكر . وما لبث ان اصبح لها بعـــلا .
وبسطت شجرة الدار سلطانها المطلق على مصر . ومن ثم فقد تعين
على أيبك ان يمكـّن لدولتها في سورية التي أبت الاعتراف بهـا .
وفي سنة ١٢٥٧ سعى أيبك الى التخلص من شجرة الدر ، ولكنها
عاجلته وقتلته في الحمام . ومهما يكن من شيء ، فقـــد أحجم
المماليك ، بعد ذلك ، عن نصرة شجرة الدرّ ، وسرعان مــــا
أوردوها مورد الردى . وإنما نهض بعبء الحـكم من بعدها أحد
المماليك المنصور نور الدين علي [ابن المعزّ عز الدين ايبك] .

وبالرغم من كل هذا الشغب والاضطراب فقد كان العهـد
الأيوبي عهد بركة وازدهار في مصر وسورية ، حتى بعـــد وفاة
صلاح الدين . فقد ُعني الايوبيون بالزراعة ، التي ما كان يمكن ان
تزهو بغير الاهتمام الموصول بنظام الري ، عناية فائقة لا تقلّ عن
عنايتهم بالتجارة ، وكانت ابداً عرضة لضروب المخاطر بسبب من
فقدان الأمن في طرق المواصلات التجارية . والواقع ان عداءهم
للنصارى لم يعقهم عن عقد سلسلة من الاتفاقات التجـــارية مع
الدول الاوروبية . ليس هذا فحسب ، بل إن اتصـــال المسلمين
بفرسان الصليب ذلك الاتصال المراوح بين القتال والموادعـة ،
ساعد بدوره على نشوء حركة من التبادل الثقــــافي ، متعددة
الوجوه . والذي يبدو أن الغرب إنما نقل عن الايوبيين طريقتهم
في اصطناع علامات النسب على الاسلحة ، وشارات الفرسان

---

* المعروف ايضاً بالتركماني . وقد لقب « بالمعز » عندما ولي السلطان .
(المعربان)

على الدروع] بالاضافة الى بعض العادات الفروسية . [٥٠]

المماليك البحرية . معركة عين جالوت

واضطر الايوبيون ، كما اضطر العباسيون من قبلهم ، الى الاستعانة بالمماليك ، أي العبيد الارقاء، يشترونهم بالأموال، لأن اهل البلاد الواقعة في حوزتهم وقد بَعُدَ عهدهم بالجندية انتهوا ، منذ زمن طويل ، الى ان لا يصلحوا للخدمة العسكرية. وكثيراً ما كانوا يُدخلون في خدمتهم جماعات برمتها من الاتراك الهاربين من وجه المغول ، الى الشرق الأدنى . وما هي الا فترة وجيزة حتى نشأ من بين زعماء هؤلاء الصنائع ، كما حصل غير مرة في تاريخ الاسلام ، جيلٌ من الحكام جديد بسط سلطانه على مصر وسورية حتى الفتح العثماني. وكان أيبك ، وهو أولهم ، من حَرس الملك الصالح [ايوب] المرابطين في جزيرة الروضة بالنيل ؛ ومن هنا عُرف هو وخلفاؤه بالمماليك البحرية (نسبة الى «بحر» النيل). وخلف أيبك ابنه عليٌ ، ثم قُطُز الوصي عليه. وبعد فترة وجيزة رقي العرش الملك الظاهر ركن الدين بَيْبَرس. وكان بيبرس قد شارك في مقتل توران شاه ولاذ بالفرار الى سورية ، ولكنه آب الى مصر بعد أن تقلد قطز زمام الحكم .

وكان الأعصار المغولي يجتاح، في ذلك الوقت، بلدان الشرق الأدنى جميعاً ويهدد مصر بالخراب الذي ما بعده. فعهد اليه قطز

---

(٥٠) انظر : يعقوب ارتين باشا - Yacoub Artin Pasha, *Contribution à l'étude du blason en Orient*, London, 1902.
وراجع ايضاً. ماير L.A. Mayer, *Saracenic Heraldry*, Oxford, 1933.

في قيادة طليعة الجيوش التي وجهها الى فلسطين لقتال المغول؛ فهزم المغولَ عند عين جالوت، سنة ١٢٥٩، هزيمة صدت سيلهم الطامي لأول مرة، وحوّلت مدهم الى جزر، مظهراً في هذه الموقعة بسالة نادرة. والواقع انه كان يرجو ان يُقطعه السلطان حلب جزاء ما وُفق اليه من نصر مؤزر؛ حتى إذا خاب رجاؤه، انقلب الى مصر فقتل قطز وبايعه الامراء سلطاناً عليهم. وهكذا يتعين علينا أن نذكر فضله العظيم على مصر لما جنّبها من ويلات الغزو المغولي الذي عطل سير التطور الثقافي الهادىء في دنيا الاسلام كلها، ما خلا الديار المصرية، والذي سنتحدث عن آثاره الوخيمة في الفصل التالي.

ولكن بيبرس كان، الى ذلك، كما بدا في ما بعد، سياسياً بارعاً ايضاً. فلم يكد المغول يقوضون دعائم العرش العباسي في بغداد ويقضون على السلالة كلها تقريباً، حتى اقام [بيبرس] في القاهرة خليفة من نسل بني العباس فقلده هذا [الخليفة] السلطنة وشاركه في الملك، بعد أن أقسم [بيبرس] يمين الولاء للخليفة. وانما هدف الظاهر بيبرس من وراء ذلك الى توطيد عرشه واحباط ايما محاولة قد يقوم بها مدّعٍ من الايوبيين لاسترجاع الملك. والظاهر ان هذا الخليفة العباسي الاول كان يتمتع بقدر من العزيمة وارادة العمل فوق الذي اراده له بيبرس. وفي الحق انه خرج على رأس جيوش بيبرس ابتغاء استخلاص بغداد، ولكن السلطان جهزه بجيش قليل العدد والعدة، فاستطاع المغول القضاء عليه في سهولة ويسر. ومن ذلك الحين، لم يزد خلفاؤه على ان يكونوا آلات طيّعة في أيدي المماليك.

ولئن حارب الظاهر بيبرس اعداءه ببسالة غير عادية، فكثيراً ما كان يصطنع في حربهم الاساليب الديبلوماسية الماكرة، البعيدة النظر . أما في فلسطين فكان عليه بعدُ ان يصفي حسابه مع الصليبيين عن طريق القتال . ولكنه وفق الى ان ينتزع حصن الاكراد ، وهو من أعظم حصون الصليبيين مناعة ، من ايدي فرسان الاسبتارية * ومدينة صفد من ايدي فرسان الداويّة ** ثم إن بيبرس انصرف الى حرب الحشاشين فاستولى على مصياد وعدد من الحصون الثانوية ، ولكنه لم يعمد الى حل هذه الجماعة والقضاء عليها بالكلية ، إذ كان ينتوي ان يفيد من سفاكيها في تحقيق اغراضه الخاصة . كذلك استطاع بيبرس ان يغري آخر امير ايوبي مستقل ، وكانت اليه قلعة الكرك ، بالشخوص الى القاهرة حيث نقض بيبرس عهده ، وفتك بالامير وبابنه . وفي الشمال وضع بيبرس حدّاً لنشاط ملوك آسية الصغرى الأرمن بما شنه من غزوات متلاحقة على اراضيهم . وفي الجنوب ألحق بلاد النوبة بمصر جاعلاً صلتها بها صلة التابع بالمتبوع. وحالت الظروف التي كان على مغول العراق ان يواجهوها في داخل امبراطوريتهم الاسيوية دون اثّارهم لهزيمتهم الاولى ، وان يكن بيبرس قد اضطرّ غير مرّة الى ان يدفع بعض غزواتهم الثانوية عن بلاده . وعقد بيبرس معاهدة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل

---

* St. John's Knights

** Templars أو الهيكليين .

بليولوجس * اتقاءً لصليبية اوروبية جديدة . وكان ميخائيل هذا قد حرر امبراطوريته من حكم فرسان الفرنجة . اما في الداخل فقد وطد بيبرس دعائم امبراطوريته بنظام البريد الذي انشأه على الغرار الايراني العباسي . ولقد شيد لنفسه في القاهرة ضريحاً فخماً ، اقامه في المسجد الذي جلب مواد بنائه ، سنة ١٢٦٧ – ١٢٦٨ ، من مدينة يافا ، بعد فتحها ، والذي انتهى اليوم الى خراب . وإنما شُيد السور الخارجي الذي لا يزال قائماً الى اليوم من الحجر . اما البناء نفسه فشيد من اللبِن . وانما تقود الى داخل البناء ستة صفوف من الاعمدة تصل ما بينها عقودٌ محدّدة، وتوصل الى بلاطة معترضة تظللها – امام المحراب – قبة تشمل ثلاثة اروقة . وتنتظم الجوانبُ الاخرى من الفناء اروقة مزدوجة معمّدة. وللسور الخارجي ثلاثة مداخل بارزة بمحاريب وطغراءات واشكال هندسية ، بينما تقوم على الزوايا ابراج مستطيلة[51]

وعدّت الاجيال التالية عهدَ بيبرس، كما عدّت عهدي الرشيد وصلاح الدين ، من قبلُ ، أحد العصور الذهبية في الاسلام . والواقع ان مجموعة من الحكايات الخيالية لم تلبث أن نُسجت حول شخصيته في وقتٍ مبكر؛ وهي حكايات تمتزج فيها أعماله البطولية باساطير وخرافات ذات موضوعات منتزعة من القصص العامي الذي ألفته مصر منذ القدم. ولا تزال سيرة الظاهر بيبرس ، وقد تناولتها بالزيادة والاسهاب اجيالٌ من القُصاص، تؤلف حتى

---

* Michael Paleologus

(٥١) انظر ديز.. E.Diez, *Die Kunst der islamichen Vôlker*, p.58.

اليوم منهلاً عذباً من مناهل التسلية يتهافت على وروده عـــامة المصريين بالاضافة الى سيرة «عنتر» البطولية ، وسيرة بني هلال البدوية ، وحكايات ألف ليلة وليلة الاسطورية .

المماليك البرجية

وأخذ بيبرس البيعة ، قبل وفاته بثماني سنوات ، لاكبر ابنائه [محمد] المدعوّ بَركة خان. حتى اذا توفي سنة ١٢٧٧ رقيَ هـذا العرشَ ، غيرَ مُدافعٍ ، [وتسمى بالملك السعيد] .بيـد انه لم يلبث ان خُلع ، بعـد سنتين اثنتين . فنهض بعبء الوصاية على سلامِش بن بيبرس ، وكان صبياً في السابعة ، قائدٌ من قواد الجيش الذين برزوا في عهد بيبرس ، اسمه قَلاوون . ومـا هي *إلا فترة حتى بدا لقلاوون هذا أن يستقل بالحكم من دون سيده* الصغير ، [فخلعه] . والواقع أنه وُفق الى ان يدفع عن سورية غارات المغول ، كمثل توفيق بيبرس . ووسّع نطاق ممتلكاتـه في سورية على حساب الفرنجة ، وحررها من الامراء الذين تعيّن عليه بادىء الأمر أن يعترف بهم زملاء ، حتى اذا توفي سنة ١٢٩٠ قُيض له أن يترك السلطنة لابنه ، ليحتفظ اعقابه بها طوال اربعة اجيال ، حتى سنة ١٣٨٢ ، على الرغم من انهم كانوا دائماً في حاجة الى أن تُثبّت سلطتهم من طريق الانتخاب . وأياً ما كان، فقد تولى العرش بعد ذلك [الملك الظاهر سيف الدين] برقـوق وهو احد افراد الفرق العسكرية التي سبق لقلاوون ان ألفها من المغول والجراكسة ، وجعل مقرها في ابراج قلعة القـــاهرة ؛ ومن هنا عُرف هؤلاء بالمماليك البرجية. وفي هذا العهد عُدِل عن

نظام الوراثة ، وصار المماليك ينتخبون اوفرهم حظاً من الكفاية والمقدرة ، أو أعلاهم سناً في بعض الاحيان . ومن ذلك الحين تقلصت صلاحيات السلطان ، المطلقة نظرياً ، وانتهت شيئاً بعد شيء الى العدم. ذلك بأن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه زعماءُ المماليك المقدَّمون. وكان هؤلاء شديدي الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية . والواقع أنهم عهدوا في تعزيز [طبقتهم هذه] بالعناصر الجديدة الى عُمال مخصوصين يرودون اسواق النخاسة الحافلة بالرقيق المجلوب من جنوبي الروسيا ومن بلاد القبق [القوقاس] بخاصة . وكانوا يدربون الاحداث منهم في قلعة القاهرة ، ومن ثم يوزعونهم بين الامراء ، فهم يعملون في خدمتهم ويرتجون من طريق ذلك الترقية والتقديم . وكان المماليك ، علاوة على هذا ، يحتفظون بفرق عسكرية مجندة تُوزع على افرادها الاقطاعات لقاء خدماتهم. وما لبثت هذه الاقطاعات ان اصبحت املاكاً خاصة بهم تنتقل الى أعقابهم عن طريق الوراثة . والى هؤلاء مثلاً ينتسب خليل [بن ايبك الصفدي] مؤلف أحد الكتب الشهيرة المعتمدة الى اليوم في الفقه المالكي ، وقد توفي سنة ١٣٦٥ وكان قد شارك في تلك السنة نفسها بالدفاع ، مع حامية القاهرة ، عن الاسكندرية يوم غزاها ملك قبرس. وكانت مناصب القضاة والاستاذين في المدارس موقوفة وحدها على العلماء من اهل البلاد. أما في الادارة المدنية حيث حظي الكتّابُ العُدول وكُتّاب التوقيع بالمقام الأرفع ، فكان المماليك يقدمون النصارى واليهود على غيرهم .

هذا القلق المطرد في الوضع السياسي ، الذي اختصر سني حُكم السلاطين ولم يسمح لهم الا نادراً بأن يموتوا حتف أنفهم ، استتبع حالة من القلق وعدم الاطمئنان تهددت رجال البلاط والحكومة جميعاً ، في أرواحهم وممتلكاتهم ، مما لم تستهدف لمثله طبقة حاكمة من قبل الا في أسوأ ايام الدولة الرومانية . فقد عجز الموظفون ، حتى اقدرهم ، عن الاحتفاظ بمناصبهم اكثر من ثلاث سنوات الا في القليل النادر . وكم من قاضٍ أُسند اليه القضاء ثم عزل عنه عشر مرات متواليات ، أو يزيد . ليس هذا فقط ، بل لقد كان ثمة نفوذ فقهاء السنة ورادعهم المعنوي ، اولئك الفقهاء الذين لم يتورّعوا عن اضطهاد رجلٍ صالحٍ مؤمنٍ بالله اصدق الايمان وأشده ، كابن تَيْمِيَّة [٥٢] الحنبلي لاحجامه عن مجاراتهم في جميع ما ذهبوا اليه من رأي ، ولمقاومته كثيراً من مظاهر التدين لدى العامة كعبادة الرسل والاولياء . والواقع ان بيبرس نفسه اعترف بالمذهب الحنبلي مذهباً قويماً ، فعين للحنابلة في القاهرة قاضي قضاة أسوة بالمذاهب الثلاثة الاخرى . بيد ان الحنابلة استثاروا نقمة هذه المذاهب ، فِعْلَ شيخهم الاول في بغداد ، بما ادَّعوه من انهم وحدهم الممثلون للعقيدة المحمدية الخالصة الرشيدة . وهكذا لم يلبث ابن تيمية ، الذي خلف اباه كمدرس بدمشق ، سنة ١٢٨٢ ، ان اتهم بالزندقة ، على اثر فتوى اصدرها جواباً عن

(٥٢) راجع لاووست H. Laoust, *Essai sur ... Ibn Taymiya*, Cairo, 1939.

سؤال ورده من حماة . ذلك بأن فتواه هـــذه تعارضت وآراء الشافعية ، فعزل من منصبه ، وسيقَ سنة ١٣٠٥ الى المحاكمة امام هيئة القضاء الشافعي في القاهرة ، لتصدر حكمها بسجنه . حتى إذا ارتقى نصيرُهُ السابق ، الملك النـاصر ، العرش للمرة الثالثة، عهد اليه بتدريس الفقه الحنبلي في المدرسة التي انشأها، واصطحبه الى دمشق ، سنة ١٣١٣ . ولكن ابن تيمية عاد فأثار نقمة الفقهاء ، كرةً ثانيةً ، سنة ١٣١٨ ، بفتوى خـاصة بمسألة الطلاق ، فلم يستطع الملك الناصر نفسه ان يذود عنه ، فألقي في غيابة السجن خمسة أشهر، استأنف بعدها تدريسهُ . وأياً ما كان، فقد استطاع خصومه ان يحملوا الدولة على اعتقاله من جديد، في تموز سنة ١٣٢٦، على اساسٍ من رأي قال به ، منذ سنة ١٣١٠، في ما يتصل بزيارة قبور الرسل والاولياء . والواقع انه استطاع ان يتابع نشاطه العلمي بادىء الأمر ، على الأقل ، وهو سجينٌ في قلعة دمشق ، حتى اذا حُبسَ عنه الورق والحبر أخذه الغمّ لهذه الاهانة، فقضى نحبه في ٢٩ ايلول سنة ١٣٢٩ . ولئن كان معاصروه قد حاولوا قمع تعاليمه بالقوة ، فقد كُتب لها برغم ذلك ان تبقى حيةً في دوائر أتباعه المحدودة لتستمدمنها الحركة الوهابية حافزها بعد اربعمائةٍ من السنين، ولتفيد منها بالتالي حركة التجدد الاسلامية في الجيل الحاضر . اما في حقول الثقافة الاخرى فقد أنتج السوريون والمصريون انتاجاً خصباً جداً ، في عهـد المماليك ، كان لنا منه ثمرات يانعات، وبخاصة في حقل التـاريخ . ولكن هذا الانتاج يكاد يكون خلواً من الاصالة والابداع ، بالكلية .

والواقع ان هذا الانتاج الواسع العريض ، في عصر المماليك، كان يجد سناده الاقتصادي في نظام الاوقـــاف الذي انشىء في عهد العباسيين ، والذي انتهى في مصر وسورية الى غاية من الغنى تـكاد تكون خيالية .[٥٣] ذلك بان كبار المثرين السوريين والمصريين ، كانوا كزملائهم العراقيين من قبل ، يقفون ممتلكاتهم الضخمة على وجوه البر وخدمة العلم، صيانة لها من المصادرة، فتدرّ على الاقل دخلاً ما للواقف وذريته ، ولكن هذه الاوقاف كانت تصدّ طبقة غير يسيرة من الامة، عن طلب الرزق، وتقود الى حياة من الكسل الديني والتدَرْوش ، مُبعِدةً في الوقت ذاته مساحات شاسعة من الاراضي عن نطاق الاستثمار ، ومن هنا جاز اعتبارها مسؤولة الى حد بعيد عن الانحطاط الاقتصادي في الشرق. ومهما يكن من شيء، فقد أُنشئت معظم الاوقاف في المدن ، فهي تُستغل من طريق الايجار دكاكينَ صغيرةً أو بيوتاً للصناعة وضروب العمل.

وكانت الطبقة الحاكمة ، اي المماليك ، تعتمد في معاشها على ما تُمنح من اقطاعات غنية في العادة . ولكن هذه الاقطاعات ما كانت لتتحول الى ممتلكات خاصـة بالاسرة لان القانون كان يحرم وراثة الاقطاع . والواقع انه كان على الوارثين ، في حال وفاة المُقطَع ، ان يعيدوا الى خزانة الدولة التي أنشأت مكتباً خاصاً بهذه الشؤون، ما كانت قد دفعته مقدماً الى المُقطَع لقاءَ سنواتٍ من الخدمة معيَّنة حال الموت دون اتمامها . ولقد نشأت عن ذلك

(٥٣) انظر بيكر C. H. Becker, *Islam*, I, 63 ff.

مشكلات عديدة اضطرت الدولة ، [بعدُ] الى تذليلها بقانون خاص . ولسنا في حاجة الى النص على أن الفلاحين العاملين على هذه الاقطاعات، والذين حُرموا حق مبارحتها، كانوا يُسلمون، في غير ما رحمة ، الى اهواء المقطع ومحض ارادته . [٥٤]

ليس هذا وحسب. بل لقد تميز النظام الاقتصادي، الى ذلك، بضروب من المصادرة والاحتكار كانت تؤلف العمود الفقري لمالية الدولة، على الرغم من شجب الشرائع الدينية لها ،واحتجاج الفقهاء على اصطناعها مرةً بعد مرّة .فكانت الدولة تبتاع بالأكراه معظم المحاصيل والمواد الرئيسية ثم تبيعها من جديد إلى تجار التجزئة باسعار محددة . وليس من شك في ان الحكومة كانت تجد في هذا الاجراء وسيلة الى منع المضاربات التجارية في أيام الازمة ايضاً. والحق ان التجارة ازدهرت ازدهاراً فائقاً للعادة في عصر المماليك لأن مصر وسورية كانتا لاتزالان ،حتى ذلك الحين، واقعتين على طريق التجارة الهندية الغنية التي نهضت بعبئها جمهوريات ايطالية التجارية . ولقد وفقت هذه الجمهوريات، في كثير من الأحيان ، الى ان تنتزع لنفسها، من طريق المعاهدات التي عقدتها مع المماليك، حقوقاً خاصة انتهت في ما بعد الى ان تصبح أساساً للامتيازات الاجنبية التي كان لها أبعد الاثر في تاريخ مصر ، حتى العصر الحديث .

---

(٥٤) راجع بولياك A. N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon*, London, 1939.

وهكذا تدفقت على سلاطين المماليك موارد ضخمة مكنتهم من ان يُعنوا بالعمارة على نطـــاق واسع غنيّ ، فجاءت آثارهم مضاهية لأروع الآثار في ازهى عصور الاسلام . واذ قد اعتاد المماليك منذ عصر قلاوون وما بعده ، ان يشيدوا منشـــآتهم بحجارة المقالع من مثل حجــر الكلس المستخرج من المقطم ، وحجري البلور والصوان المستخرجين من مصر العليا، فقد ثبتت آثارهم لعوادي الزمان اكثر مما ثبتت آثار من قبلهم ، ولا تزال الى اليوم تقرّر هيئة القاهرة المعمارية . وتحتل المدافن المـكان الأول بين هذه الآثار . والواقع أن طراز الاضرحة المماليكية ، ذات القباب المرتفعة الجميلة ، إنما نُقل من تركستان الى مصر . وهكذا كان المماليك يعتبرون فن وطنهم الاول ، على الرغم من انهم انتُزعوا منه في سني الصبا الباكرة ، المثل الاعلى الذي يسعون الى تحقيقه بواسطة ممثليه الذين التمسوا الحماية في اكنافهم . وكانت القبة التركية تمتاز من القبة الفارسية كما شاعت في عهد الفاطميين والايوبيين ، بارتفاع دائرتها عن الجزء المستطيل او المربـــع من القاعدة التي تدعمها بواسطة أشباه محاريب مرتفعة عند الزوايا، أو بواسطة صفوف متعاقبة من المثلثات الداعمة . وههنا خلد الطراز الخشبي الهندي ، الذي نشأت عنه [بعدُ] القبة الحجرية . وفي عهد السلطان حسن (١٣٤٧ – ١٣٥١) ظهر في القاهرة طراز جديد في بناء واجهات المساجد . فقد فُصّلت جدرانها الحجرية الشامخة الملساء بمحاريب متساوية ترتفع حتى قاعدة السقف ، لتنعقد عليها الحواشي

الافقية المتدلية (البواكي) . وكانت النوافذ تجعل في المحاريب. أما الجدار فكان يتوّج ، في العادة ، بأكليل من الشرفات . وكان البـــاب الرئيسي ينهض ، على العموم ، في الزاوية وسط فجوة عميقة ، ينتهي اليها المرء بواسطة سلّم مكشوف .والذي يبدو لنا ان هذا الطراز الذي يتمثل فيه الفن البابلي الاشوري القديم ، قد نقل من الجزيرة العليا والمناطق الجبلية الكردية ، حيث قدّر له ان يحفظ ،وكأنه في متحف،إلى آذربيجان وآسية الصغرى في الشمال ، والى مصر في الجنوب . ومن أروع الأمثلة على هذا الطراز جامع السلطان (وفيه ضريحه) والمدرسة التي انشأها وجعل فيها أروقة مستقلة لتدريس المذاهب الاربعـــة جميعـاً . [٥٥]

(٥٥) انظر دبز E. Diez, *Die Kunst der islamischen Vôlker*, 142 ff.

الأتراك والمغول : انقضاء الخلافة

●

ولئن كان الاتراك قد أوقعوا اعظم الأذى ، خلال قرون متطاولة من سوء الادارة ، بحضارة إيران والعراق التي بلغت في يوم غاية ما بعدها من الازدهار ، فقد كان من نصيب انسبائهم التتار او المغول ، في مستهل القرن الثالث عشر ، القضاء نهائياً على تلك الحضارة. والواقع ان المؤرخ العربي ، ابن الاثير ، لم يجانب الحقيقة عندما قال في معرض كلامه على أحداث سنة ٦١٧ ﻫ . (١٢٢٠) ، وفي لهجة باكية مؤثرة ، ان غزو المغول للشرق الأدنى هو اعظم كارثة حلت بالانسانية . ولعل العوامل الاقتصادية قد لعبت دوراً كبيراً في هذا الاجتياح المغولي ، شأنها من قبل في ما يتصل بخروج العرب من بلادهم لفتح العالم ؛ وبكلمة ثانية ، من الجائز ان يكون النزاع على المراعي ، بين مربي الخيول ورعاة المواشي ، قد لعب دوراً ما في هذا الحدث العظيم . ولكن الفضل في جمع شمل المغول وتوحيد صفوفهم — وكانوا من قبل قسمين كبيرين ، ألِف أولهما حياة التنقل على حدود الامبراطورية الصينية ،

واقام ثانيها في الشمال معتمداً في معاشه على الطرد وصيد الاسماك — إنما يرجع ، وفقاً لما جرت به سنة التاريخ ، الى شخصية قوية هي هنا شخصية جنكيز خان الذي استطاع ان يجتاح بجحافل المغول بلدان التمدن القـديم ، في وحشية مدمرة ، متعطشة الى الدم ، عُرف بها هذا العِرْق وكانت له طابعاً .

شاهات خوارزم

وكان الجزء الشرقي من امبراطورية الخلفاء السابقة ، قـد أمسى ، بعد سقوط السلاجقة ، ألعوبةً في أيدي المتغلبين الاتراك الذين زرعت حروبهم المتواصلة الخراب والدمار في تلك البلدان المتحضرة . وليس يتسع المجال هنا لتفصيل الكلام على هـذه الاحداث الفاجعة ، فنجتزىء بالاشارة الخاطفة الى ابرز الوقائع واهمها . فمنذ سنة ١٠٩٧ وما بعدها وُفق سنجر ، احد وارثي السلطان السلجوقي ، الى ان يُعيد توحيد فارس والبلدان الواقعة على جانبي نهر جيحون ، فترةً قصيرة من الزمان ، ساد فيها السلام والامن . ولقد كان عليه ان يُقرّ ، عـلى خوارزم ، محمد بن أنوشتكين ، الذي سبق لبركيارق ان ولاه عليها والذي استقل متخذاً لقب خوارزمشاه ؛ كما اضطر الى ان يقر على سجستان تاج الدين أبا الفتح ابن طاهر ، وينتهي نسبه ، في الظاهر ، الى الصفارية . وخضع الغزنويون ، حكام ما وراء النهر المستقلون — وكانوا كاسلافهم يعتبرون غزو الهند عملهم الرئيسي — الى حد ما ، للسلطان سنجر . ولكـن أتسز (١١٢٨ — ١١٥٦) الذي ولي عرش خوارزم بعد أبيه محمد ما لبث ان سعى الى التحرر من نفـوذ

السلطان السلجوقي، فخلعه السلطان جزاء عصيانه. حتى اذا بارح سنجر البلاد شق أتسز عصا الطاعة من جديد، وحرض قبيلة قراخِتاي المغولية الباقية على الوثنية، على مهاجمة سمرقند، رغبة منه في صرف همة سنجر نحو الشرق. وكان اقرباء الاتراك هؤلاء – وقد ذكرنا شيئاً عن تاريخهم القديم في موطن سابق – قد حكموا بلاد الصين منذ سنة ٩١٦، وكانوا يُعرفون بسلالة لِياو، ومن هنا لا يزال الروس الى اليوم يسمون الصين خِتاي. ولكن « الجرجينيين »، وهم شعب تُنكُتي، طردوهم من هناك حوالى سنة ١١٢٥، فارتدوا في اتجاه الغرب. وهاجم المغول، بادىء الامر، بلاد القِيرغيز على ضفاف اليَنيسي، ثم هاجموا كاشغر وخُتَن في الجنوب. وفي ٩ ايلول سنة ١١٤١ انزلوا بسنجر وجنوده هزيمة منكرة على الضفة الاخرى من نهر جَيحون، ومن ذلك الحين صار اميرهم يحكم على رقعة واسعة من الأرض تمتد من الينيسي في الشمال الى بلخ في الجنوب، ومن خوارزم التي انقلب شاهها تابعاً له، في الغرب، حتى الامبراطورية الاويغورية في الشرق. واتخذ مقره قرب بَلاساغون على ضفاف «تشُوِي» وهو النهر الرئيسي في تركستان الروسية اليوم. وكانت النصرانية التي نشرها المرسلون النساطرة في ربوعهم لا تزال تصطرع والاسلام الذي ظل في النهاية ارجح كفة وأعز نفراً بسبب من تشعب صلاته واتساعها[٥٦]

---

(٥٦) كانت للاوروبيين معرفة غامضة بهذه الاحوال. ولقد نشأ عن هذه المعرفة، بعد الذي طرأ على لقب جورخان من تحريف، الاسطورة الواسعة الانتشار عن امبراطورية برستر جون Prester John

وأفاد أتسز احسن الافادة من مصائب سيده المطلق . ومع انه لم يستطع أن يحتفظ نهائياً بما استولى عليه من البلاد ، ليضطر آخر الأمر الى ان يجدد ولاءه لسيده القديم ، فأن ابنه إيــل ارسلان الذي خلفـــهُ على العرش سنة ١١٥٦ ما لبث ان مكن للدولة الخوارزمشاهية ، فكان لها اثر حاسم في تاريخ آسية الوسطى ، فترة قصيرة من الزمان.

الدولة الغورية

وبعد ذلك بقليل سقطت الدولة الغزنوية في ايدي الجماعات التركية الجديدة ايضاً . وتفصيل ذلك انه كان يحكم بلاد الغُور الجبلية ،بين وادي هِلْمَنْد،وهراة في افغانستان،امراءوطنيون من آل سُوري . وكان هؤلاء الامراء موالين للدولة الغزنوية ، عاملين في ظلها . وكان احدهم [قطب الدين محمد بن الحسين ،قد صاهر] بهرام شاه صاحب غزنة [فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته]فعاجله بهرام شاه بالقتل . عندئذ هب اخوه[سيف الدين سُوري بن الحسين] وسار الى غزنة طالباً ثأر اخيه ، سنة ١١٤٨ ، فاكره السلطان على الهرب عنها الى الهند . وهناك جمع جموعاً كثيرة وعاد الى غزنة فخرج سوري الى لقائه فقهره بهرام شاه وقتلهُ ، ولكن إخوة سوري ما لبثوا أن حشدوا جحافلهم

في الشرق الاقصى . راجع اوبرت ،

G. Oppert, *Der Presbyter Johannes in Sage und Geschichte*, 2 nd edition, Berlin, 1870.

وراجع ايضاً زارنك F. Zarncke, *Der Priester Johannes*, Leipzig, 1879 (Kônigliche Sâchsische Gesellschaft für Wissenschaft, VII, XIX) .

المتوحشة وأعادوا الكرة على غزنة سنة ١١٥٠ ففتحوها ودمروها تدميراً ؛ وليس في مشهدها اليوم غير مئذنتين تذكّران بتاريخها الغابر . ومن ذلك الحين عاش بهرام شاه في الهند ، جاعلاً مقره مدينة لاهور .

ثم ان الغوريين ساروا الى هراة ، مهاجمين ممتلكات سنجر . ولكن السلطان السلجوقي تصدى لهم وهزمهم ، وأسر زعيمهم طوال سنتين عاد بعد انقضائهما الى بلاده. اما الحملة التي شنها سنجر على عشائر الغُزّ التركمانية فلم يُكتب لها النجاح الذي كتب لحملته على الغوريين . وتفصيل الأمر ان قبيلة قَراخِتاي المغولية كانت قد ازعجت هؤلاء الغزّ عن مراعيهم، فحملتهم الحاجة الى اراضي سنجر . ولقد نزع الغز ، بادىء الامر ، الى الخضوع ، ولكن استبداد عمال الخراج أكرههم على الثورة. فلما كانت سنة ١١٥٣ هزموا السلطان هزيمة قاصمة وأسروه، طوال سنوات ثلاث. ولم يكد ينجو من اسرهم حتى جاء اجله سنة ١١٥٧

واجتاح الغُز ، بعد انتصارهم على سنجر ، البلاد التي كانت في حوزته يذبحون أهلها وينهبون أموالها. وخلف سنجر ابن اخيه محمود ، ولكن الوصي عليه ، المؤيد ، لم يلبث ان خلعه. فلما توفي إيل ارسلان وتنازع ابناه عرشه انحاز المؤيد الى جانب اصغرهما ولكن تَكَش ، وهو الأكبر ، هزمه سنة ١١٧٤ وقتله. والواقع أنه دارت بين الاخوين حروب طويلة اشترك فيها الغُز المنتشرون في طول البلاد وعرضها ايضاً ، حتى اذا كانت سنة ١١٩٣ تمت لتكش السيطرةُ على المملكة برمتها ، بعد وفاة اخيه . وأمنت

خوارزم في عهده، حتى سنة ١٢٠٠ ، غارات الغز لانتهاك هؤلاء في الهجوم على ما تبقّى من ممتلكات الغزنويين في الهند . ولكن معز الدين الغوري لم يلبث ان هاجمها سنة ١٢٠٤ ، عقب وفاة تكش وارتقاء [ابنه] علاء الدين محمد الثاني ، العرش فباءت محاولته بالاخفاق ، واطبقت جموع القراختاي على قواته المرتدة فكادت تسحقها سحقاً . والحق ان هذه الهزيمة اصابت الحكم الغوري في الهند باذى كبير . فما هي إلا فترة يسيرة حتى تنازع الامراء ، في تلك الديار ، على السلطان . ولكن ألتمش [شمس الدين] ، وكان من قبل مملوكاً تركياً ، استطاع ان يوحد المملكة كلها في ظله ، كرةً اخرى .

في عهد الناصر العباسي

وفي فارس، احتك شاه خوارزم بمنطقة نفوذ الخليفة العباسي الناصر [لدين الله] (١١٨٠–١٢٢٥) الذي وفق الى تحرير بغداد من حكم امراء الجيش ، ومن ثم تقدم ، من عاصمته في العراق ، الى بسط سلطانه في اتجاه الشرق. والواقع ان هذا الخليفة الذي يعد آخر الدهاة من بني العباس حاول ان يمكّن لسلطته الهزيلة المثقلة، بعمل بارع قوامه موالاة الشيعة ورعايتهم . ذلك بأنه نشأت في العراق منذ عدة قرون جماعات الفتوة [٥٧] التي كان اول ظهورها، بلا ريب، على الحدود بين المجاهدين ، ولكنها لم تلبث بعد ذلك ان نشطت في داخل الامبراطورية ، فكانت في ازمان الاضطراب

(٥٧) انظر تيشنر F. Taeschner, *Islamisches Ordensrittertum zur Zeit der Kreuzzüge, Die Welt als Geschichte*, 1938, 387-402.

السياسي كثيراً مـا تروّع السكان وتوقع في قلوبهم الرعب ، أو تنقلب احياناً الى عصابات من الفتاك المجرمين . امـــا في زمن السلم فـكانت الفتوة على اتصـال بالفرق الصوفية . وانما سعى الناصر الى ان يسخر هذه الجماعات لخدمته ، من طريق تنظيمها تنظيماً جديداً وتزعّمها بنفسه . واذ كان علي بن أبي طالب ، صهر الرسول ، هو الى حدٍ مـا «ملاكهم الحارس» بوصفه مثلهم الاعلى في البطولة، فقد افسح الناصر لأعقـــاب عليّ وذريته في مجال النشاط في منظمـــة الفتوة الجديدة مفيـــداً من نفوذهم الادبي ، حريصاً في الوقت ذاته على ان تظل سيطرته سليمـــة لم تمس . ولما كانت هذه المنظمة الفروسية تعـنى بالرياضة البدنية في حماسة واضحة فقد أقبـل كثيرون من الامراء على الانتساب اليها، معتبرين عضويتها زيادة في الشرف، على الرغم من أن المنظمة لم تيسر للخليفة شيئاً مما كان يتطلع اليه من نفوذ سياسي عريض يأتيه من طريقها . صحيح أن زعيم الحشاشين الاكبر – وكان خطرهم قد تضاءل – أقسم برغم عقائده الشيعية يمين الطاعة والولاء للخليفة، ولكن شيئاً ما لم ينتج عن هذا الحدث. ولم يكد تكش يُشغل في الشرق حتى سار وزير الخليفة [مؤيد الدين محمد بن علي المعروف بابن القصاب] الى خوزستان والاقاليم الفارسية المجاورة ففتحها . حتى اذا تمت لتكش الغلبة على اعدائه في الشرق سنة ١١٩٦ انقلب الى الغرب فاسترد ما كان قد فقـده ، حتى تخوم خوزستان . وفي سنة ١٢١٤ تقدم الخليفة شمالاً، نحو بلاد الجبال وكان قد استبد بها مملوك اسمه منكلي، فحرض الخليفة عليه احد

اصحابه ، اوزبك بن البهلوان صاحب آذربيجان [وكان منكلي قد أوحشه] ، فهزم منكلي وقتله ، مقيماً أوغلمش ، مملوك [اخيه] مكانه. حتى إذا سعى هذا الى عقد حلف مع علاء الدين محمد الثاني [ابن تكش] ، عهد الناصر الى احد الحشاشين في قتله ، فتم له ما أراد . وهنا عقد علاء الدين العزم على ان يقوض سلطان خصمه العنيد ، فدعا سنة ١٢١٧ الى مؤتمر ديني لتقرير أحقية العلويين بالخلافة ، وكان أتباعهم لا يزالون يملأون فارس من اقصاها الى اقصاها. ثم ان اختياره وقع على علويّ من ترمذ يدعى علاء الملك كمنافس للخليفة ، ومن ثم شرع في إعداد العدة لفتح بغداد ورفع علاء الملك الى عرش الخلافة . واتفق ان هجمت جحافل الشتاء ، في ذلك العام ، قبل ميقاتها المعلوم بمدة صالحة ، فاضطر الى ان يرجع من حيث أتى [٥٨] . وقبل ان يوفق الى إنفاذ خطته في العام التالي ، نزلت بالبلاد الاسلامية كارثة مهولة قلبت الوضع السياسي رأساً على عقب .

اولية المغول . جنكيز خان يفتح بلاد الصين

ذلك بان الشعوب النازلة في قلب آسية تمخضت في ذلك الحين

---

(٥٨) ولقد شيد الخليفة ، تخليداً لذكرى نجاته من هذا الخطر ، باب الطلسم في بغداد ، وهو الذي اتخذ في ما بعد برجاً للبارود ، والذي نسفه الاتراك في الحرب العالمية الاولى فيما هم ينسحبون امام القوات البريطانية الزاحفة . وانما جعلت فوق هذا الباب صورة الخليفة وعن يمينه تنين ، وعن شماله آخر وقد أمسك بفكي كلٍّ منهما يريد تمزيقه . ولقد ذهب فان برشام M. van Berchem الى ان هذين التنينين يرمزان الى خصمي الخليفة : الحشاشين والعلويين .

بهجرة أخرى عظيمة. وكان جيران الأتراك الشرقيون، وهم قبائل يربطها بهم نسب قديم ، قد احتفظوا ببعض خصائص الجنس المغولي. ولقد سبق منا الكلام على احدى هذه القبائل ،قراختاي، التي كانت اول من هاجر ، بعد قبائل الهُون ، في اتجاه الغرب. وفي ذلك الوقت كان انسباؤهم لا يزالون ينزلون في منغوليا الحالية ، وفي جنوبي سيبيريا . واطلق اهل الصين على هؤلاء اسم التتار ، وهو اسم نقع عليه حتى في نقش اورخون العريق في القدم ، وقسموهم ثلاثة اقسام وفقاً لمراحل تطورهم . فأما جيرانهم الاقربون الذين نزلوا في ما وراء السور الصيني ، والذين كانوا قد تأثروا شيئاً كثيراً بالثقافة الصينية فدعوهم التتار البيض. والى شمال صحراء غوبي كان ينزل التتار السود ، وهم رحّل ، وكان المرسلون النساطرة قد مكنوا لأنفسهم في ما بينهم ، فتنصّرت قبائل الكِرايت التي كانت تعيش على ضفاف نهري أونون وكيرولين العليا وعلى ضفاف التولا ايضاً . وكانت شعوب الغابات تقطن شمالي هؤلاء التتار السود ، وتحيا حياة قوامها القنص والطرد ، وتعدّ القبائل الآنفة الذكر على الرغم من القربى بينها ، منحطة مستضعفة . وكانت الشامانية في اوج قوتها عندهم . وكان الاعتقاد بوجود عالم من الارواح غيبيّ ، يضمن للسحرة ، اي للكهنة الشامانيين ، سلطاناً كبيراً على حياة الناس . وفي سنة ١١٥٥ رزق ييسوكاي [احد افراد أسرة قِيات] - وهم متفرعون من التايجيوت ، احدى القبائل القناصة النازلة على مقربة من تخوم التتار السود - غلاماً

هو بكره ، سماه تموجين . ولكن أبا الغلام ما لبث ان توفي سنة ١١٦٧ من غير ان يترك لتموجين منصباً معيناً او سلطة ثابتة ، لاننا نشك في ما اذا كان هو نفسه قد تمتع بسلطة ما على الاطلاق. وكان تموجين ذا همة عالية ، فاستطاع ان يجمع حوله نفراً من المغامرين ويخرج على رأسهم لغزو العشائر الاخرى التي تربطها بعشيرته صلة النسب ، والتي كانت اكثر من عشيرته هذه تمدناً . والواقع ان الحكومة الصينية كانت دائماً على استعداد لأن توقع الشقاق بين هؤلاء الجيران الذين لم يكن من اليسير عليها اخضاعهم ، وبذلك تكفي نفسها مؤونتهم . وكانت سلالة كِنْ الصينية قد أفنت سنة ١١٦١ قبيلة من التتار تدعى «مُغول» بمساعدة جيران هذه القبيلة النازلين على ضفاف بحيرة «بُويِرْنور» . حتى اذا تعاظم شأن هؤلاء ، وخشي الصينيون بأسهم حشدوا لقتالهم النصارى من قبائل الكرايت . وهنا بدا لتموجين المغامر أن يشارك في هذا الصراع ، مستهلاً حياته السياسية بالمطالبة بثأر المغول ، الذين خلع اسمهم على اتباعه ، ومن ثم على شعبه برمته . ولكن الخلاف لم يلبث ان دب بين حلفاء الأمس ، حوالى سنة ١٢٠٢ ، فاذا بمركز تموجين يتحرج ، واذا به يضطر الى الانكفاء الى بحيرة بالْجيونا مع عصبة قليلة من اصحابه . وكان بين اصحابه هؤلاء ثلاثة نفر مسلمين ، اغلب الظن انهم من التجار الفرس الذين اعتادوا في ذلك الحين القيام برحلات تجارية الى الشرق الاقصى . والحق ان اثنين منهم رافقاه فترة طويلة في حملاته العسكرية ، ولعلهما أشارا عليه بشؤون كثيرة تتصل بتنظيم امبراطوريته . ولم تكد تقبل

سنة ١٢٠٣ حتى كان تموجين قد نفى من البلاد حلفاءه السابقين بعد ان ناصبوه العداء ، فاطاعتـه قبائل منغوليا الشرقيـة جميعاً . وفي سنة ١٢٠٦ تم له اخضاع قبيلة النايمان النصرانية القوية ، في منغوليا الغربية . وفي ذلك الوقت خلع عليه احـد الكهان الشامانيين لقب جنكيز خان الملكي (وان تكن بعض المصادر تنص على ان ذلك كان قبل بضع سنين) فعرف به عند الاجيال التالية . ثم انه دعا الى عقد المجلس التمثيـلي الاول (قورولتاي) حيث رفع علماً يحمل صورة تسعة اذناب خيل بيضاء علامةً على شرف مركزه كحاكم ، ووضع الاسس الاولى لامبراطوريته . وكان جيشه الخاص ، ويبلغ عدده عشرة آلاف من اشداء الرجال ، هو قوام قوته وسلطانه . وكان الفٌ من هؤلاء الرجال يؤلفون حرسه الخاص . والواقع ان جنكيز خان أخضع حرسه هذا لتدريب عنيف اساسه العدل ، كان يشرف عليه بنفسه . وكان كل من افراد الحرس يعدّ مساوياً في الرتبة للقواد. وأخذ جنكيز خان عن النايمان استعمال خط الأويغور في دواوين الدولة . ولا مراء في انه لم يضع قط ، بادىء الامر ، خطة نظامية يتبعها في توسيع رقعة امبراطوريته . وانما كانت الحملات التي قام بها في السنوات القليلة التالية مجرد غارات على نطاق واسع لم يقصد من ورائها الى غير انتهاب جياد الخصوم وسبي نسائهم [٥٩] . وبعد عام من تدميره بلاد التنكت هاجم امبراطورية سلالة كِن ، في شمالي الصين . وفي سنة ١٢١٤ عقد بين الفريقين صلحٌ مهر بزواج جنكيز

---

(٥٩) راجع بارتولد (نقلا عن رشيد الدين) في الموسوعة الاسلامية ج١ ص٨٥٧

من احدى الاميرات الصينيات. ولكن الحرب لم تلبث ان نشبت بين جنكيز والصينيين كرة اخرى سنة ١٢١٥. فتمّ لجنكيز هذه المرة فتح بكين. ومهما يكن من شيء، فلم يكد الخان يغادر البلاد حتى استردت سلالة كِن حريتها من جديد. اما امراء هذه الامرة الذين أخرجهم المغول من ديارهم، فولوا وجوههم قِبَل المغرب وانقضوا على امبراطورية القراختاي، وكانت قد ضعفت من جراء حروب خوارزمشاه [علاء الدين] محمد الذي تغلب في ما بعد على القراختاي، في طَراز (تَلَس)، سنة ١٢١٠ وفتح ما وراء النهر. وسقط باقي البلاد في يد كوجلك خان، امـــير النايمان، في حين دخل زملاؤه المجاورون -وهم امير الاويغور، في الجنوب، وخان القارلوق (القرلُغ) في الشمال، وامير الامالق (الألمالِيغ) في وادي إلي- في طاعة جنكيز وحمايته.

فتح فارس

وبعد فتح بكين وجّه جنكيزخان، سنة ١٢١٥، ابنـــه جُوجي نحو الغرب ليقاتل قبائل المِركيت الذين كانوا حلفاء للنايمان، والذين سبق ان طردوا من مساكنهم الى بوادي القيرغيز. وفيما كان جوجي يقوم بهذه الحملة التقى جيشاً كان خوارزمشاه [محمد] قد سيره لاخضاع قبيلة القفجاق، جيران المِركيت. وإذ قد ظلت المعركة سجالاً بين الفريقين، آثر جوجي على ما يظهر ان يتجاهل الحادث على اعتبار انه سوء تفاهم ليس غير. وأياً ما كان فقد ارتأى خوارزمشاه أن يوفد الى جنكيز خان بعثة يستطلع من

طريقها موارد العدو وعدته [٦٠] . أما العلاقات التجارية بـــين الامبراطوريتين فليس من شك في انها كانت قائمة قبل ذلك .

ولكن الذي لا سبيل الى فهمه هو سلوك خوارزمشاه ، ذلك السلوك الغريب في اثناء النزاع الذي نشب سنة ١٢١٨ . ففي ذلك الحين مثل بين يديه، في ما وراء النهر ، ثلاثة تجار مسلمين أوفدهم اليه جنكيز ، ومعهم هدايا عظيمة المقدار ، للسلام عليه بوصفه « ولده الاثير عنـــده » ، وهو تعبير يفيد ، في لغة ذلك العصر الديبلوماسية ، معنى التبعية له. وتذهب المصادر التي بين ايدينا الى ان الشاه لم يعبر عن استيائه من ذلـــك الا بعد مثول الرسل بين يديه . وايا ما كان، فنحن نشك في ان مقتل السفراء على الحدود ونهب قوافلهم كان يمكن ان يتم من غير علمه ، وهو الذي عـــاد فأعمل السيف في رقاب رسل آخرين وفدوا عليه في بعثة جديدة، وكان حقاً عليه إكرامهم والتلطف في معاملتهم .

ولم يكن في ميسور جنكيز خان ان يغضي على هذه الاهانة الفاحشة . وعلى الرغم من ان جزءاً من قواته كان لا يزال منهمكاً في الحرب الصينية فقد جمع نخبة جيشه وسار بها بنفسه ، يرافقه اولاده ، الى خوارزم، فاضطر امير القارلوق والالمالق المسلمان الى المسارعة لنجدتها. وكان الموقف يقتضي خوارزمشاه محمد حشد قوات امبراطوريته كلها في الميدان، ولكنه أهمل ذلك، في غباء لا

(٦٠) يعزو المؤرخون المتأخرون المعادون لبني العباس هذه البادرة — توجيه رسل من المسلمين لأول مرة ، الى المغول — الى الخليفة الناصر رغبة منه فيما زعموا، في تحريض جنكيزخان على الخروج الى خوارزمشاه والتعرض لمملكته ، وبذلك يشتغل خوارزمشاه عن الخليفة بنفسه .

نكاد نجد له تأويلاً. ولو قد فعل، اذن لأربت جيوشه على جيوش المغول. واذ لم يستطع ان يثق بجنود المقاطعات المفتوحة حديثاً فقد اكتفى بتحصين الثغور، وعسكر في سمرقند ينتظر هجوم قوات المغول الرئيسية، وكانت تشتمل على اربعة جيوش زاحفة تطرد أمامها سكان القرى المجاورة، تهيئةً لالقاء الحصار على المدن. وفيما كان ابناء جنكيز يحاصرون الحصون القائمة على الحدود، كان الخان الكبير ينقض بجيوشه على بخارى التي ما لبثت ان سقطت في يده، بعد حصار وجيز، فأعمل النهب فيها وقتل من اهلها خلقاً كثيراً، وغادرها رماداً كأن لم تغن بالامس. وأسقط في يد خوارزمشاه لدن تسامعَ بهذه الكارثة، وملأ قلبه الرعب، فتراجع الى بلخ، ومن ثم الى نيسابور. اما جنكيز خان فسار الى سمرقند وغيرها من المدن الكبرى ففتحهـا بنفسه، في حين سير بضع كتائب من جيشه لتعقب الشاه. والواقع انه كان في مكنة الشاه بشيء من العزيمة الصادقة وبما قد تبقّى لديه من قوات، أن يهاجم هو المغول، لاسيما وقد كانت جيوشه التركية تعلم علم اليقين أن المغول لن يُبقوا عليهم، ومن هنا أبدت ثباتاً وشجاعة فائقين، في الدفاع عن الحاميات المفردة المختلفة. ولكنه آثر ألا يفعل. وكان آخر ملجأ فزع اليه جزيرة صغيرة في بحر الخزَر، وكان طالبوه من المغول قد أيسوا من اللحاق به، فعادوا عنه. وهناك توفي في ١١ كانون الثاني ١٢٢١، فخلفه ابنه الاكبر جلال الدين مَنْكُبَرْتي.

نهاية الدولة الخوارزمشاهية

وبينا تابع المغول عملهم التدميري على الساحل الجنوبي من

بحر الخزر ليندفعوا بعد ذلك ، من طريق القبق ، الى الروسيا الجنوبية ، وينقلبوا الى مواطنهم الاولى عـــبر الفولغا ،

كان اول عمل قام به جلال الدين بن محمد أن قفل الى خوارزم التي كانت لا تزال في يده . ولكن الاتراك في هذه المدينة كانوا قد بايعوا أخاه الاصغر، أُزْلَـغ ،الذي سبق لمحمد أن اختارة لولاية العهد . فاضطر جلال الدين ، بعد أن خذله الاتراك، الى الشخوص الى غزنة ، حيث وفق الى ان يجمع جيشاً لحرب جنكيزخان ، بعيد استيلاء هذا الاخير على خوارزم وخراسان . وتمكن جلال الدين من أن يهزم احدى طلائع المغول قرب فَرْوان ، في الجبال القائمة بين بامِيان ووادي كابُل وغزنة . ولكن الخلاف لم يلبث ان نشب بين امراء جيشه ، فانفضّ من حوله التركمان وقبيلة الخَلَج فلم يعد في مركز يساعده على ان يغامر بهجوم جديد على المغول بذلك العدد القليل من الجند الذي أقام على ولائه . وهكـــذا اضطر الى ان يفر الى الهند . ولكن متعقبيه من المغول أعدوا له كميناً على ضفاف نهر مِهْران (السند) البعيدة الغور ، والتي لم يجرؤ على عبورهـا ، وقضوا على الكثرة المطلقة من جيشه ، في حين نجا هو بنفسه بعد ان خاض ، في حال من اليـأس ، عباب النهر الغاضب (تشرين الثاني ١٢٢١) . وفي الهند استطاع ان يجمع حوله قوة صغيرة قوامهـا بعض المغامرين الاتراك المنتشرين في طول البلاد وعرضها . وكفّ جنكيزخان عن مطاردته فترة من الزمان ، وانسحب في تؤدة وتمهل الى منغوليا ، مواصلاً في الوقت نفسه مجازره المخوفة في اراضي الدولة الخوارزمشاهية السابقة .

وصمد جلال الدين ، في الهند ، ثلاث سنوات ، لجأ بعدها الى مقاطعة كرمان الفارسية ، وكان قد فتحها « بُراق حاجب » الوصي على أخيه غياث الدين بيرشاه . وهنا ، وعلى التخوم الجبلية ما بين فارس وبلاد الجبال ، سلخ بعض سنوات اخرى هائماً على وجهه مع بعض الاتراك والمغول ، حتى اذا كان يوم ١٦ آب ١٢٣١ انقض عليه رجل كردي متعطش للانتقام فأرداه قتيلاً . وليس من شك في ان جلال الدين كان يعوزه التنظيم الدقيق الشامل في جميع المعارك التي خاضها . ولكنه كان ، على اية حال ، آخر من دافع عن حياض الاسلام في وجه الوثنيين ، وهو من اجل ذلك خليق بهالة الاعجاب التي أحاط سيرته بها كاتبه المعروف بـ « النسوي » .

اما سائر ملوك المسلمين وامرائهم ، سواء في ذلك الايوبيون في سورية والسلاجقة في آسية الصغرى ، فقد تنافسوا في التودد الى المغول ، رجاء ان يسمحوا لهم ، على الاقل ، بالاستقلال الداخلي في ظل السيادة المغولية .

خلفاء جنكيز

واستجم جنكيزخان ، بعد تغلبه على فارس ، بضع سنوات في البوادي التي خضعت له اخيراً ، ثم في موطنه الاول . حتى اذا كانت سنة ١٢٢٥ خرج يريد مملكة التنكت في « هسيا » وهي مقاطعة قانصو الحالية التي تتداخل كالوتد ما بين الصين الشمالية والصين الجنوبية . ولكنه توفي قبيل سقوط العاصمة المحاصرة ، ببضعة ايام ، في آب سنة ١٢٢٧ . وكان قد قسم امبراطوريته بين اولاده جرياً على العائدة الشائعة عند المغول . وكان ابنه الاكبر ، جوجي ، قد أقام في ماتم له فتحه من البلدان الغربية ، حيث

أظهر من الاستقلال ما جعل اباه يفكر في حمله على الطاعة بقوة السلاح ، ولكنه توفي قبل ابيه بستة اشهر . وكان ولده الثاني ، جغتاي ، يعد أفقه القوم واكثرهم تضلعاً من التشريع الذي وضع جنكيز قواعده ، فتم له بذلك ، وهو مقيم في مقره بوادي إلي ، ان يتمتع بنفوذ عظيم جداً ، على الرغم من انـه لم يبذل جهداً للحصول على شيء من السلطة الرسمية . بيد انه ورث أخاه جوجي بعد وفاته . وفي حين ورث الابن الاصغر ، تولـوي ، وفقـاً للعرف المغولي ، « بيت » ابيـه اي كرسيه القبلي في منغوليا الشرقية ، اعلن جنكيز ابنـه الثالث ، او كتاي ، خاناً اكبر (قاءان) * ، واتخذ مقره على ضفاف نهر أورخون .

وفي اعقاب سنة ١٢٤١ واوائل سنة ١٢٤٢ توفي اوكتاي ليتبعه على الأثر اخوه جغتاي . وشجر الخلاف بين وارثيها مدة استشعرت خلالها ديار الاسلام شيئاً من الراحة والطمأنينة . وفي سنة ١٢٣٥ عهد المجلس التمثيلي الى باتو ، ثاني اولاد جوجي ، في إخضاع اوروبة الشرقية لحكم المغول . فخرج في السنة التاليـة لتحقيق ما ندب له ، يرافقه اولاد جغتاي واوكتاي وتولوي ، فوفق سنة ١٢٣٧ الى ان يفتح عاصمة البلغار في وادي الفولغا . ثم انـه فتح الروسيا في سني ١٢٣٧ – ١٢٤٠ ، وبولنـدة سنة ١٢٤١ – ١٢٤٢ ، والمجر ودلماسيا في السنة نفسها . وفي يوم الميلاد من سنة ١٢٤١ عبر باتو الدانوب (الطونة) المتجمد وفتح غران ؛ وفي ربيع ١٢٤٢ سار الى بلغارية ، ثم رجع في شتاء ١٢٤٢–١٢٤٣

* « ملك الملوك » (المعربان)

الى منطقة الفولغا من طريق الأفلاق * والبُغدان ** ونشب الخلاف، حتى في هذه الحملة، بين باتو وابناء عمومته. وكان اوكتاي قـــد توفي في كانون الاول سنة ١٢٤١ ؛ ولكن ابنه الأكبر ، كوُيوك الذي سبق ان شق عصا الطاعة على باتو اثناء الحملة البلقانية، لم يُعلن « خاناً أعظم » حتى سنة ١٢٤٦. وبعد سنتين ليس غير ، فاجأ الموت كويوك في الحملة التي قام بها في اتجاه الغرب، والتي كان باتو يعد العدة لدفع أذاها عن ممتلكاته . ورغب باتو، بوصفه اكبر افراد الاسرة سناً ، في ان يسمي خليفته . فدعا احـد المجالس التمثيلية الى الانعقاد، ولكن اخاه بَركه وفق الى ان يحمل القوم على المناداة بـ « مَنكو »، اكبر اولاد تولوي، خاناً اعظم. ولما كان ابناء جغتاي واوكتاي لم يشاركوا في ذلك فقد قتلوا جميعاً وقتل ذوو قرباهم ، عندما تقدموا في ما بعد ليقسموا يمين الطاعة، بتهمة إضمار الخيانـة . وهكذا انشطرت امبراطورية المغول شطرين تفصل ما بينهما البادية القائمة بين نهر طَراز ونهر « تشوي ». وفي حين تحكـّم أعقاب باتو، بوصفهم سادة « القبائل الذهبية *** » في مصاير اوروبة الشرقية ، وفـّق هولاكو ، اخو منكو ، الى ان يركز لواءه في الشرق الأدنى .

وعبر هولاكو في تقدمه غرباً نهر جيحون في غرة كانون الثاني سنة ١٢٥٦ ، فسارع صغار الامراء في فارس وبلاد القبق الى

---

* Wallachia ** Moldavia

*** أصل الاصطلاح في التركية « زر اوردو » ومعناها، « المخيم الذهبي ». (المعربان)

الدخول في طاعته وإعلان الولاء له . وكان من جملة هؤلاء زعيم الحشاشين الذين فقد اسمهم سحره القديم منذ زمن طويل، ولكنهم ظلوا على أية حال قوة يحسب لها حساب ، لما كان في حوزتهم من الحصون المنيعة الى أبعد الحدود . ومهما يكن من الامر ، فقد أبى هولاكو ان يتقبل ولاء ركن الدين ، آخر زعماء الحشاشين، وكان قد خلف أباه قبيل ذلك ، في هذه الزعامة ، بعد ان أورد منهل الردى ، بالاتفاق مع ابنه من غير شك . من أجل ذلك تعين عليه ان يفر الى حصن مَيمون في ناحية ألموت ؛حيث أقام معه نصير الدين الطوسي ، الرياضي الفلكي الشهير . ونصح له نصير الدين بالاستسلام من غير ما مقاومة البتة ، رغبةً منه في ان ينجو هو أيضاً ، بهذه الوسيلة . ولكن ركن الدين ُقتل فيما كان ُيحمل الى معسكر هولاكو . وطارد جنود هولاكو الحشاشين في أرجاء فارس كلها وأعملوا في رقابهم السيف . أما الطوسي فحظي عند هولاكو ،وصحبه في حملاته التالية بوصفه منجم البلاط . ثم انه عهد اليه في إنشاء المرصد الفلكي الكبير في مدينة مَراغة بآذربيجان .

هولاكو يزيل الخلافة العباسية من بغداد

وطمح هولاكو ، منذ البدء ، الى ان ينشيء لنفسه ، بوصفه تابعاً من اتباع اخيه ،امبراطورية خاصة في الغرب . وإذ انطرحت فارس على قدميه ، فقد انتهى الى ان يكون قاب قوسين أو أدنى من أراضي الخلافة العباسية في العراق . وكان قد تعاقب على عرش بغداد بعد وفاة الناصر ، الخليفة الحازم ذي الهمة العالية،

سنة ١٢٢٥ ، خلفاء مستضعفون [هم الظاهر بأمر الله ، والمستنصر بالله ، والمستعصم بالله] . والحق ان هولاكو ما كان في حاجة الى ان يحرض الشيعة من الفرس ، كالطوسي مثلاً ، عـــلى قصد بغداد والاستيلاء على هذه الغنيمة الباردة . ففي ١٧ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ سقطت العاصمة العباسية في أيدي المغول ، بعد فترة من المفاوضات أحجم فيها المستعصم عن الاستسلام في اللحظة المناسبة ، عندما استشعر عجزه الصريح عن حشد قواتـــه بسبيل مقاومة جدية . وابقى هولاكو على المدينة نفسها مجنبـاً اياها ، في الأعم الأغلب ، ويلات التدمير والتخريب . أما الخليفة فقتل ، بعد ان نهب قصره وقتل معه جماعة أخرى من ذوي قرباه ، في حين فرّ بعضهم الى مصر حيث رفع السلطان بيبرس ، كما سبق منا القول ، أحدهم الى العرش كخليفة زائف تحت اسم المستنصر بالله ، رغبة منه في أن يخلع على حكمه صفة شرعية . ولقد ظلت هذه الخلافة الوهمية قائمة في مصر حتى انقضاء دولة المماليك عقب الفتح العثماني سنة ١٥١٦ — ١٥١٧ .

وأعلن أمراء سورية الصغار خضوعهم لهولاكو بعد سقـوط بغداد مباشرة . أما مماليك مصر فكانوا أول من وقف في وجه الغزاة ، وقفة موفقة . وكان المغول قد طلبوا اليهم الاستسلام ، فرد عليهم المماليك بهجوم شنوه على فلسطين . وفي ٣ ايلول سنة ١٢٦٠ أنزلوا بالمغول هزيمة حاسمة عنـــد عين جالوت ، قـرب الناصرة * في حين كان هولاكو نفسه منهمكاً في حرب مـــع

* في الاصل ، قرب نابلس (المعربان)

«القبائل الذهبية» بعد ان استشعر بركه خان الخطر يتهدده من جانب هولاكو وقوته الجديدة الطامحة. ذلك ان المماليك، والسلطان بيبرس منهم خاصةً، استخلصوا سورية برمتها، شيئاً بعد شيء، من ايدي هولاكو وخلفائه الأيلخانية. وكان الانحلال قد أصاب، في الوقت نفسه، قوة المغول المركزية من طريق التجزؤ، فلم يبق في ميسورها ان تسعف جناحها الغربي بمساعدة ما.

غازان ووزيره رشيد الدين

وليس احد من ملوك الأيلخانية هؤلاء، يستحق الاشارة غير غازان (١٢٩٥–١٣٠٤) بن ارغون حفيد هولاكو. صحيح أنه اختصر عمره، فعل الكثرة من افراد شعبه، بما أدمن على الشراب. ولكنه حاول، خلال عهده القصير، ان يعوض بلاد الفرس من بعض ما خسرته بسبب الجرائم التي اقترفها اسلافه فيها. وكان هولاكو نفسه قد استمسك بالوثنية — شأن اجداده الذين لم يلتمسوا قط، بما فطروا عليه من روح الجندية، أيّ مشاركة روحية مع رعاياهم — على الرغم من انه اظهر العطف على البوذيين، كما اظهره على النصارى ابتغاء مرضاة زوجه النصرانية دُقوز خاتون. اما غازان، من ناحية ثانية، فنشّىء في البوذية، ولكنه اعتنق، هو وجميع افراد جيشه الاسلام، قبيل ارتقائه العرش، وكان على أهبة ان يخوض المعركة ضد واحد من ابناء عمومته. والواقع انه اختار المذهب السني، حتى اذا خلفه اخوه ألجايتو خدابنده (١٣٠٩) رغب عن السنة، وتشيع. ويستفاد من النقود المضروبة في عهد غازان انه تطلع الى الاستقلال عن الخان

الاكبر المقيم في بكين ، وكان من قبل يعمل باسمه ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم «بقوة السماء» . واصطنع غازان ، في فرض سلطانه على ذوي قرباه وعلى امراء المغول ، ابلغ القسوة واثقل العنف؛ وحتى الامير نوروز ، الذي كان له الفضل في ارتقاء غازان العرش ، لم يلبث ان ذهب ضحية هذه السياسة . وشجع غازان التطور الاقتصادي في امبراطوريته . فقد كان الخراج يفرض ، حتى عهده ، وفقاً لاهواء الحكام من المغول وعمالهم من الفرس ، فلما آل الحكم اليه امر ، اول ما امر ، بان تمسح الاراضي كلها ، من جديد ، وان تتخذ نتائج ذلك اساساً في فرض الضريبة . واصدر سنة ١٣٠٤ قراراً امر فيه بان يحاط الرعايا علماً بكل ما يتصل بالضرائب ، من طريق تعليق البيانات الوافية حولها عند مداخل القرى او في المساجد ومعابد النصارى واليهود ، بل بأن يحاط البدو الرحل علماً بها في مراعيهم ، بواسطة النقش على الخشب او الحجارة او المعدن او الالواح المكتوبة . وانما نقل الينا ذلك مؤرخه رشيد الدين ، ثم جاءت النقوش المكتشفة في آني وانقرة ، والراقية الى عهد خلفائه ، مصدقة لما ذهب اليه هذا المؤرخ [٦١] . وشجع غازان ايضاً السكنى في المناطق العديدة التي هجرها سكانها بسبب الاعصار المغولي ، والتي ظلت منذ ذلك الحين خاوية على عروشها . وأمر غازان باسقاط الضرائب عن كاهل المستعمرين الجدد . ليس هذا فحسب . فقد أدخل روحاً جديدة من الثقة في الميدان التجاري

---

(٦١) انظر ويتك ، نقلا عن بارتولد . W. Barthold ap. P. wittek, *Festschrift Jacob* , 348.

بان الغى الاوراق المالية ذات القيمة التحكية الرجراجة التي سبق لاسلافه ان احدثوها على الطريقة الصينية، واحل مكانها نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة. وكان لهذه التدابير اثرها الواضح في موارد الدولة الرسمية فارتفعت من ١٧٠٠ تومان * الى ٢١٠٠ تومان ، اي حوالي اثني عشر مليون دولار . كذلك اعاد تنظيم القضاء في فارس بعد ان عبث به العرف المغولي ، وكان هذا العرف ساذجاً جداً ، غير محدود دائماً ، واعاد للشرع الاسلامي سلطانه وقوته. كذلك انشأ محكمة عليا مشتركة للقانونين الفارسي والاسلامي . ثم انه زين عاصمته تبريز بابنية فخمة، واقفاً اموالاً ضخمة على المساجد المحلية ودور العلم . وشيد مرصداً فلكياً ومدرسة للعلوم الدنيوية التي كان هو وغيره من ملوك المغول يقدرونها قدراً خاصاً لما لها من الفائدة العملية . والواقع ان رشيد الدين ، وزيره المطلق وطبيب بلاطه ، انما وضع كتابه المفصل في تاريخ المغول، باللغة الفارسية، واسمه «تاريخي غازاني»، بناء على إشارة منه . وفي الكتاب ايضاً نص على ان غازان شارك في تأليفه بنفسه .

وخلف غازان أخوه ألجايتو خدا بنده . وفي عهده احتفظ الأيلخانيون بقوتهم في أعلى ذرواتها . وكانت مدينة «السلطانية» الواقعة في شمالي العراق ، على الجبال الفاصلة بين نهري زَنْجان وأَبْهَر ، قد اجتذبت اليها المغول، لما تمتاز به من مناخ جبلي صحي

---

* التومان عشرة آلاف عند الفرس . واصل الكلمة يعود الى كلمة مغولية بالمعنى نفسه . (المعربان)

ولما يحيط بها من المراعي ومواطن القنص والطرد ؛ وكان أرغون قد اقام فيها حصوناً قوية . فلما رزق الجايتو خدا بنده ابنـــه أبا سعيد جعلها عاصمة ملكه . ولم يكن في ميسور السلطانية ، على اية حال ، ان تحتفظ بمركزها هذا مضاهية تبريز ذات الموقع الجغرافي الاصلح . ومكّن الجايتو لنفسه في الداخل بالقضاء على اميري جيـلان وهراة. أما جهوده في سبيل السيطرة على آسية الصغرى واتخاذها سداً في وجه قوة المماليك فذهبت أدراج الرياح، شأن جهوده في سبيل الحصول على مساعـدة القوى النصرانية في اوروبة تحقيقاً لهذا الغرض .

طلائع الادب التركي

وفي عهد غازان وخلفائه - ثم في عهد انسبائهم ايضاً حتى حدود الصين - انتهت الفارسية الى ان تكون ، الى جانب التركية ، لغة الديوان الرسمية ، ولغة الاتصال الدولي . وكانت المرونـــة والطواعية تعوزان اللغة المغولية؛ ولم يكن ثمة مجال لنشوء حياة فكرية مستقلة بـــين المغول . صحيح ان جنكيز خان اخذ عن النايمان ، كما اشرنا آنفاً، الخط الأويغوري، واصطنعه في دواوين الدولة، وهو خط يتحدّر من الشكل السرياني للابجدية السامية، (تلك الابجدية التي يقوم على اساسها خطنا [اللاتيني] ايضاً) وكان المرسلون النساطرة قد عملوا على نشره منذ قرون ، حتى بلغ قلب آسية. والواقع ان هذا الخط اصطنع في كتابة اللغة التركية الشرقية ايضاً، وحل محل الخط الشبيه بالخط الرونيّ المتحدر بدوره من تحريف للابجدية السامية ، والذي اصطنعه اقدم من نعرف من

الخانات الاتراك في تدوين تاريخهم في القرن الثامن على ضفاف نهر اورخون . ولكن الأتراك ايضاً لم يكونوا قد انشأوا أدباً مستقلاً ذا غناء يستطيع ان يضاهي الادب الفارسي ، على الرغم من ان الأويغور وفقوا في حاضرتهم ، طرفان ، عند القسم الجنوبي من نهر تيان شان ، الى ترجمة جمهرة كبيرة من الكتب ، تحت تأثير البعثات التبشيرية البوذية والمانوية . وفي هذه الترجمات وضع الخط الاويغوري ، للمرة الاولى ، موضع الاستعمال ؛ ولقد كشفت لنا « البعثة الالمانية الى آسية الوسطى » على الخصوص عن بقايا منها ، فسّرتها لأول مرة عبقرية العالم الالماني مولر * . والواقع اننا لا نعرف إلا نتفاً يسيرة من الادب القومي - الغنائي والملحمي - الذي ازدهر يوماً بين اتراك آسية الوسطى ، وذلك من طريق النماذج التي اقتبسها محمود الكاشغري (١٠٧٣) في كتابه [ديوان لغات الترك] وهو اقدم واوسع كتاب لتعليم اللغة التركية عرفه العرب . أما أول أثر أدبي تركي مستقل ، بعد نقوش اورخون ، فظهر عقب سقوط الدولة الاويغورية في كاشغر ، بنصف قرن . ففي هذه المدينة نظم « يوسف خاصّ حاجب » البلاساغوني (سنة ١٠٦٩ - ١٠٧٠) قصيدة تعليمية كبرى للسلطان بُغراخان حسن ابن سليمان أرسلان قصد بها إلى ان يبرز حكمة الحياة للامراء بخاصة ، ومن هنا جعل عنوانها « قوداتقو بيليك » اي « علم السعادة » . ولقد بنى يوسف قصيدته هذه على آراء ابن سينا الفيلسوف وأفرغها

* K . F . W . Müller

في وزن شعري * مقتبس عن الاوزان الفارسية . وهو يضع مواعظه على ألسنة شخصيات رمزية من اختراعه ، فواحدة تمثل العدالة واخرى تمثل السعادة، الى غير ذلك من الشخصيات. وانما تكشف لنا هذه الشخصيات ، على الرغم من ضروب التكلف الساذجة ، عن نواحٍ كثيرة في ما يتصل ببنية المجتمع والدولة في محيط الناظم الثقافي . والحق ان اثر الاسلام الغامر ليس يبدو واضحاً جلياً في هذه القصيدة ، في حين انه اخذ في الوضوح اكثر فأكثر في الأدب القومي الذي نشأ على هذا الغرار ، والذي كان يدور، في الاعم الاغلب، حول معراج النبي، وسير الاولياء. ولم يكن الخط الاويغوري يصطنع الا في احوال فردية ، ثم انه افسح المجال شيئاً بعد شيء للخط العربي . وجائز ان تكون النسخة الاصلية من قصيدة « قوداتو بيليك » قد كتبت بهذا الخط العربي ايضاً . اما ما طرأ على الادب التركي الشرقي من تطور جديد اشتد معه الاثر الفارسي وتعاظم، فلم يتم الا في عهد تيمور وخلفائه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

شاعرا الفرس سعدي وحافظ

وكان الادب الفارسي قد فزع ، إبان الاجتياح المغولي ، الى ولاية فارس في الجنوب الغربي من ايران . وكان احد اتابكة السلاجقة ، من آل سَلْغُر قد استقل سنة ١١٤٨ بتلك الديار واقام فيها دولة عمرت ١٣٠ سنة. ولقد ادّى اصحاب هذه الدولة السلغرية الجزية، بادىء الامر، الى سلاجقة العراق ثم الى ملوك خوارزم

* هو البحر المتقارب . (المعربان)

واخيراً الى المغول . وفي ظل سعد بن زنكي ، أحد اتابكية فارس هؤلاء، نظم الشاعر سعدي[62]، بين سنة ١٢٥٦ وسنة ١٢٩١ في مسقط رأسه شيراز ، حيث استقر بعد حياة قلقة مترحلة ، كتابيه الرئيسيين اللذين ينزع فيهما نزعة اخلاقية وهما « كُلستان »* او «حديقة الورد» وهو مزاج من الشعر والنثر ، و « بُوستان » وهو شعر كله . والواقع ان كل فارسي ، حتى يومنا هذا ، ينظر الى الكتاب الاول (الذي نقله الى الألمانية في عام ١٦٥٤ آدم اوليريوس) كأفضل تعبير عن مظهر من مظاهر الخلق القومي كان سائداً في قوة ووضوح حتى الثورة الوطنية ، اعني النزعة الى التعصب الديني والسخرية ، ومن هنا فهو اقرب الكتب الى قلبه . وكان الأمن والسلام قد اصبحا خبراً ماضياً في مدينة الورود شيراز، ايضاً، خلال مدة طويلة تقضت بعد سقوط الحكم الأيلخاني . وحوالي سنة ١٣٤٠ وفق الى الاستيلاء على المدينة الامير ابو اسحق بن محمود شاه إنجو ولكنه لم يلبث ان اضطر الى التخلي عنها، سنة ١٣٥٣، [لمبارز الدين] محمد المظفّري الذي كان يفخر بنسبه العربي الصريح ، الراقي الى احدى القبائل التي نزلت خراسان في اثناء الفتح . ثم ان ابنه [جلال الدين] شاه شجاع خلفه سنة ١٣٦٤، وكان قد سمل ، سنة ١٣٥٨، عيني ابيه والقاه في غيابة السجن. وفي عهده لمع اشهر شعراء الفرس الغنائيين جميعاً

(٦٢) وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى مولاه سعد بن زنكي .

* نقل « كلستان » (بالكاف الفارسية) الى العربية جبرائيل بن يوسف الشهير بالخلع (القاهرة ١٩٢١) . (المعربان)

شمس الدين محمد ، المشهور في تاريخ الادب باسم « حافظ » (اي الذي يحفظ القرآن) . وكان حافظ من الشيعة الاثني عشرية . من اجل ذلك لم يستطع ان يتمتع بالحرية ويتنفس الصعداء إلا بعد وفاة محمد ، الذي كان سنياً متعصباً . فلما رقي العرش شاه شجاع عطف على حافظ ، وأسند اليه ، بناء على اقتراح الوزير قوام الدين حسن احد اصدقــاء الشاعر ، تدريس التفسير في المدرسة بشيراز ، فشغل هذا المنصب الى ان توفي سنة ١٣٨٩ ، بعد ان شهد غزوة تيمورلنك . والواقع ان شهرة حافظ طبقت آفاق البلاد الناطقة بالفارسية منذ نشر ديوانه سنة ١٣٦٨ - ١٣٦٩ . وانمــا تمجد قصائده جمــال الطبيعة ، اول ما تمر بها يد الربيع الخيرة ، على الخصوص ، كما كان يتبدى له في كثير من الأحيــان على ضفاف [ركن آباد] وهي القناة التي حفرها ركن الدولة البويهي سنة ٩٥٠ لأرواء سهل شيراز ، وفي متنزّه المصلّى ، حيث ثوى في مقره الاخير . انهــا ترجّع صدى اغنية الهزار الدامعة ، وتغني مباهج الشباب والخمر ، والحب الشاذ الشائع في بلاد الشرق منذ أجيال ، وان تكن قد نزعت ، في ما يتصل بالكلام على هــذا الحب ، الى التلطف والاحتياط . ليس هذا فحسب . بل انهــا لتسخر من الرياء بضروبه جميعــاً ومن اي ضرب آخر من الغلاظــة والجهل . وهي تنم عن قلب كبير وروح حرة اضطرتها ظروف الوطن البائسة الى الاستخفاف بقيم الحياة كلها ، ونشدان السعادة في الملذات وحدها . واذ خلع في ما بعد على اناشيده الدنيوية هذه جلبابا آخر من المعاني (يذكـّر بالتفاسير الروحية التي وضعتهـا

الكنيسة لسفر نشيد « الانشاد » النابض بالشهوة) فقداكتسب هذا الشاعر الساحر الغاوي اتباعاً معجبين في الحلقات الروحية أيضاً . والحق ان جميع شعراء الفرس والاتراك اهتدوا ، بعد ، بهدي هذه القصائد ، بوصفها نماذج من الغزل ، كاملة ، لاتضاهى.

جلال الدين الرومي

أما جلال الدين الرومي المولود في بلخ سنة ١٢٠٧ ، وهو أعظم شاعر متصوف في الاسلام ، فنشأ خارج البلاد الفارسية . ذلك بأن أباه ، بهاء الدين ولد ، تعرّض لغضب [قطب الدين] محمد خوارزم مشاه ، فاضطر الى ان ينزح عن البلاد . وبعد ان ضرب في الأرض مدة طويلة ، قيّض له سنة ١٢٢٦ ان يجد نصيراً وحامياً في شخص الأمير السلجوقي علاء الدين كَيْقُباد في قونية بآسية الصغرى . ولقد أسند اليه علاء الدين هذا منصباً من مناصب التدريس هناك ، حتى إذا توفي خلفه ابنه في هذا المنصب . وما هي إلافترة يسيرة حتى اتصل جلال الدين بالمتصوف شمس الدين التبريزي ، فاجتذبه اجتذاباً كلياً الى حياة التصوف ، فوسم جلال الدين ديوانه في ما بعد باسم شمس الدين هذا : « ديوان شمس الدين تبريزي » . ثم انه انشأ الطريقة المولوية التي انتشرت انتشاراً واسعاً والتي كان لها ، حتى الثورة الوطنية في تركيا ، نفوذ عظيم جداً . وكان « دراويش » هذه الطريقة يهدفون الى حالة الوجد الصوفية على انغام الناي. والحق انه يقدم الينا في كتابه الرئيسي ، مَثنوي [٦٣] ، مجموعة غير

---

(٦٣) ويقع في ستة مجلدات .

منظمة ، من الحكايات الموضوعة على ألسنة الحيوان ، والقصص، والتأملات ، مفرغة في قالب شعريّ رفيع يقصد آخر الأمر الى بسط العناصر الرئيسية في التفكير الصوفي ، وإلى افناء «الأنا» في الوحدة الوجودية . ولقد رفع أتباع جلال الدين كتاب مثنوي مقاماً علياً يكاد يداني مقام القرآن نفسه ؛ وانقضت حقبة من الدهر كان هذا الكتاب يتحكم خلالها في الاستشراف * الفكري الذي اخذت به افضل العناصر في الامبراطورية العثمانية .

---

* outlook

فهرست الاعلام

آبق ، مجير الدين ٢٢٢

آذربيجان ١٩، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٧٨ ، ٧٩، ٨٦، ١٢٥ ، ١٣٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠، ٢٧١

آسية ٢٦٠ ، ٢٧٦

آسية الشرقية ١١٠

آسية الصغرى ٣٧، ٣٩، ١٣٦، ٢٠٣، ٢١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦، ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨، ٢٧٦ ، ٢٨١

آسية الوسطى ٣٢، ٤٨، ١٠٩، ١١٠، ٢١٠، ٢٥٦، ٢٧٧

آش ، وادي ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٥

آلتاني ، جبال ١٠٩

الآمر (الخليفة) ١٠٧

آني ٢٧٤

الآواريون ١١١

آيا صوفيا ٥١

الأباضيون ٩٥

ابراهيم الثاني ٩٧

ابراهيم الجدالي ، يحيى بن ١٨٢، ١٨٣

ابراهيم العلوي ٧، ٨

ابراهيم الفزاري ٤٠

ابسال ١٩٥

الأبستاق ١٦

أبهر ٢٧٥

ابو حفص ، محمد بن ١٩٨

الاتراك ١٢، ٤٧، ٤٩—٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٢، ٨٥، ٩٣، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩—١١٢، ١١٨ ، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ٢١٦، ٢٣٨، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٧

أتسز ٢٥٤، ٢٥٥

أتسز ، إيل ارسلان بن ٢٥٦

الأثير ، ابن ٢٥٣

الأحساء ٧٥

أحمد (أمير فرغانة) ١١٣

أحمد ، ابو الفوارس ١٠٢، ١٠٣.
أحمد الهادي ، حمزة بن ١٠٦
الأحمر ، بنو ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٥
« إحياء علوم الدين » ١٢٩، ١٨٨
إخوان الصفاء ٧٣
ادريس بن عبد الله ٩٨ ، ٩٩
ادريس الثاني ٩٨
الأدارسة ٩٨ ، ٩٩ ، ١٦٨
الأرتقية (الدولة) ١٠٧
الارتقيون ٢١٨
أرجونة ٢٠١
الاردن ، نهر ٢٢٦
أردون الأول ١٤٨
أردون الثاني ١٥٢
أردون الثالث ١٥٤
ارسطو ٢٧، ٩٣، ١٩٦، ٢٣٤
ارسلان ، ألب ١٢٦، ١٢٧، ١٣٥، ١٩٠، ٢١٨ ، ٣١٩
أرسلان ، إيل ٢٥٧
أرسلان ، تتش بن ألب ١٣٩
ارغل ١٦٧
أرغون ١٤٩ ، ١٨٩ ، ٢١٥
أرغون (حفيد هولاكو) ٢٧٦
أرغون ، ارسلان ١٣٩
أرغون ،غازان بن ٢٧٣ ، ٢٧٤، ٢٧٦
الأرك ١٩٧
الأرمن ٢٢٠، ٢٤٣
ارمنغول (صاحب أرغل) ١٦٧
إرمينية ١٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٦١
أرناط ٢٣٠
الأزد ٢٩
أزلغ ٢٦٧
اسبانية ٢١، ١٤٥، ١٤٧–١٤٩، ١٥١ ، ١٥٣، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٥ ، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٤ ، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٥
الاسبتارية ٢٤٣
استانبول ٥١
إستمي ١١٠
اسحق ، محمد بن ٣٠
الأسكتلندي ، ميخائيل ١٩٦
الأسكندرية ٣٧، ٣٨، ١٠١، ١٠٣، ١٤٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦
اسماعيل باشا ١٠٢
اسماعيل الساماني ١١٣ ، ١١٧
اسماعيل بن جعفر الصادق ٧٣
اسماعيل (الملك الصالح) ٢٢٦، ٢٢٧–٢٢٩
اسماعيل الدرزي ، محمد بن ١٠٥
الاسماعيلية ٩٩، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٦
أشبونة ١٤٥، ١٩٤
اشبيلية ١٤٨، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٨، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥
أشتوريش ١٤٥، ١٤٩
الأشرف (الملك) ٢٣٦ – ٢٣٨
أشروسنة ٤٨
الأشعري ، أبو الحسن علي ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٩٠ ، ١٩١
الأشعرية ١٢٨
اشناس ٤٩، ٥٢
أشير ١٦٣
إصفهان ٩٣، ١٢٥
الأصفهاني (ابن العماد) ٢٣٢
« الأصنام » ٢٩
الأطلس ١٩٢، ١٩٧، ٢٠٠
الأغالبة ٢١، ٩٥ — ١٠٠، ١٩٨
الأغلب ، ابراهيم بن ٢١
الأغلبي ، احمد ابو ابراهيم ٩٦
أغمات ١٧٠، ١٨٣
إفريقية ٢١، ٥٥، ٩٥، ٩٨ — ١٠٠، ١٠٨، ١٥٢، ١٥٩، ١٦٢ — ١٦٥، ١٨٠، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤، ١٩٧ — ١٩٩، ٢٠٥
افريقية ، شمالي ١٤٧، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٣، ١٧٠، ١٨٢
الافضل (ابن صلاح الدين) ٢٣٥
الأفطس ، بنو ١٧٢ — ١٧٤
افغانستان ٥٧، ٥٩، ١١٨، ١٥٦
افلاطون ٢٣٤
الأفلاطونية الجديدة ١٦٠، ٢٣٤
الأفلاق ٢٧٠
إقريطش (كريت) ٣٧، ١٤٧
الأقصى (المسجد) ٢٣٤
اقليدس ٤٠
اقيتانية ١٤٥
أكثم ، يحيى بن ٥٣
الاكراد ١٩، ١٠٣
الاكراد ، حصن ٢٤٣
اكس لاشابل ٢٢
« الأكليل » ٧٠
البتكين ١١٨
البيرة ١٤٢، ١٥١
البيرة ، جبال ٢٠٢
التمش ، شمس الدين ٢٥٨
الجايتو خدا بنده ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦
الجايتو خدا بنده ، ابو سعيد بن ٢٧٦
ألش ١٥٥
« ألف ليلة وليلة » ١٣٢، ٢٤٥
الفونس (ملك قشتالة) ٢٠١
الفونس الاول ١٨٩، ١٩٣
الفونس الثاني ١٤٥
الفونس الثالث ١٤٩
الفونس السادس ١٧٠، ١٨٥ — ١٨٧
الفونس السابع ١٩٤
الفونس الثامن ١٩٧، ١٩٨
الفونس العاشر ٢٠٢
الألمانق ٢٦٤، ٢٦٥
الألمان ١٣١، ٢٢٠

المانية ٢٣١، ٢٣٧
ألمرية ١٧٧، ١٨٧، ١٩٣، ٢٠٢
ألموت ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١
إلي ، وادي ٢٦٤، ٢٦٩
الألياذة ١٢٣، ١٢٤
أليسانة ١٨٨، ١٨٩، ١٩٧
أماجور ٦٤
أمبيذقليس ١٦٠
أملرك ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧
الأموية (الدولة) ١١
الأمويون ٥، ٨، ١٠، ٢٢، ٢٥، ٢٩، ٤٢، ٨٢، ٩٩، ١٠٠، ١١٢، ١١٣، ١٤٢ — ١٤٥، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥ — ١٦٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٧، ٢١٢
الأمين ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٣٧
الأمين ، موسى بن ٣٣
الأنبار ٨
اندراوس (ملك المجر) ٢٣٦
الاندلس ١٢، ٢٩، ٣٧، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٣٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٣ — ١٥٥، ١٥٩ — ١٦٣، ١٦٥ — ١٦٩، ١٧١، ١٧٤، ١٧٨ — ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦ — ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٥
أنر ، معين الدين ٢٢١
أنس ، مالك بن ٧، ١٢، ١٤٧
انطاكية ٣٨، ٢١٧، ٢٢٢
أنقرة ٢٧٤
انكلترة ٢٣١، ٢٣٢
الانكليز ١٢١
أنوجور بن طغج ١٠٢
انوسنت الثالث (البابا) ٢٣٧
انوشتكين ، محمد بن ٢٥٤
انوشروان (كسرى) ١١٥
اهل الذمة ٥٣، ١٠٥
اوجانيوس الثالث ٢٢٠
الأوحد (ابن العادل) ٢٣٦
اورخون ، نهر ١١٠، ٢٦١، ٢٦٩، ٢٧٧
اوروبة ١١٦، ١٥٣، ١٥٥، ٢٠٤، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٦٩، ٢٧٦
الاوزاعي ٤٣، ١٤٥
اوزبك ٢٠٠
اوغلمش ٢٦٠
اوقليدس ١٠٤
اوكتاي ٢٦٩، ٢٧٠
إوليريوس ، آدم ٢٧٩
أونون ٢٦١

أويغور ١١٢،٢٦٤،٢٧٧
الأويغورية (الدولة) ٢٧٧
الأيغوريون ١١٢
إيبيرية ١٧٦
أيبك ٢٤١
ايبك ، علي بن ٢٤١
ايتاخ ٥٢
ايران ٢٢،٥٧،١١٣،٢٥٣،٢٧٨
الايرانيون ١٦
الايرانية (الجبال) ٩٤
ايزابل ٢١٥
ايزابل (زوجة فردريك) ٢٣٨
ايطالية ٢٣٧،٢٥٠
الأيلخانية ٢٧٣
الأيلخانيون ٢٧٥
أيلك خان ١١٩،١٢٠
الأيلكخانية (الدولة) ١١٤، ١٢٤،١٢٥
أيلة ٢٢٦
أيوب بن شادي ٢٢٢،٢٢٣،٢٢٥
أيوب (الملك الصالح) ٢٤١
الايوبية (الدولة) ٢٢٢
الايوبيون ٢٢٩،٢٣٥،٢٣٦، ٢٣٩ — ٢٤٢،٢٦٨
بابك الخرمي ٣٥،٣٧،٤٨
بابل ١٤٠
باتو ٢٦٩،٢٧٠
باخرى ٨
بادربورن ١٤٣
باديس ١٠٨
باديس الزيري ، المعز بن ١٨٤
الباطنية ٩٩،١٧٥،٢٢٥
باكه ، الاله ١٨٠
بالجيوتا ٢٦٢
بالس ٢٢٢
باميان ٢٦٧
بايكباك ٦٢
ببشتر ، قلعة ١٥٠ — ١٥٢
بحكم الديلمي ٨٨
بجاية ٢٠٥
البحر الأحمر ٢٠٩،٢٢٨
البحر الأسود ١١٠،١٥٣
البحر الصيني ١١٧
البحر المتوسط ١٨٤،٢٠٤
البحر الميت ٢٣٠
البحرين ٧٥
بخارى ٦٢،١١٣،١١٩، ١٢٥،٢٦٦
البخاري ٤٣
بختيشوع ٣٩
بدران ، قريش بن ١٢٦
البدندون ٣٨
البدو ٥٧
براز ١٩٤
براق حاجب ١٦٨
البرامكة ١٨،٢٠،٢٣،٣٩

البرانس ، جبال ١٤٣، ١٤٤
البربر ١٤، ٤٧، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٠، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٧
بربروسا (فردريك الاول) ٢٣١
برتراند دي تولوز ٢٢١
البرتغال ١٩٣
برد ، بشار بن ١٦
برزويه ١١٥
برشلونة ١٤٣، ١٤٥، ١٦٦، ١٦٧
برغواطة ، قبيلة ١٨٠، ١٨٣
برقوق ، السلطان ٢٠٧، ٢٤٥
بركيارق ١٣٠، ١٣٩، ١٤٠، ٢٥٤
بركه خان ٢٤٥، ٢٧٣
برمك ، آل ١٨
برمك ، خالد بن ١٨
برمك ، الفضل بن يحيى بن ١٩، ٢٠
البرمكي ، يحيى ١٩، ٣٠
برنار (القديس) ٢٢٠
برنديسي ٢٣٧
البرهمية ١٢٠
البريدي ٨٨، ٩٤
البساسيري ١٢٦، ١٢٧
بست ١١٨، ١٢٧
بسطة ٢٠١
بسكرة ٢١
بشر ، بلج بن ١٤٢
البشكنس ١٤٤، ١٤٥، ١٦٣
البصرة ٧، ١١، ١٦، ٢٤، ٢٨، ٤٧، ٥٦، ٥٧، ٨٢، ٨٣، ١٣٤
البصري ، الحسن ٨٢، ٨٣
بطرس ، القديس ٥١
بطرة ٢٠٥
بطوطة ، ابن ٢٠٩ — ٢١١
بطليموس ٤٠، ٤١، ١١٧
بطليوس ١٤٩، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٥، ١٨٦
بغا ٥٤، ٥٥
بغا ، موسى بن ٥٥
بغداد ٨، ٩، ١١، ١٥، ١٨ — ٢٠، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٣٨ — ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٦ — ٥٠، ٥٢، — ٥٦، ٥٨ — ٦١، ٦٣، ٦٧ — ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٢ — ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١١٣، ١١٧، ١١٨، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٥٣، ١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٥، ١٩٠، ١٩١، ٢٢٥، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٢
البغدان ٢٧٠
بغدوين الاول ٢١٧
بغدوين الثالث ٢٢٢
بغدوين الخامس ٢٣٠

بغراجان ، السلطان ٢٧٧
بكر ، أبو (الخليفة) ٤٥
بكر، أبو (زعيم المرابطين) ١٨٣، ١٨٤
بكين ٢٦٤، ٢٧٤
بلاد العرب ٣٣
بلاساغون ٢٥٥
بلاي ، قلعة ١٥١
بلبيس ٢٢٤
بلخ ١٨، ٥٩، ١١٣، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ٢٥٥، ٢٦٦، ٢٨١
البلخي ، أبو زيد ١١٧
بلرم ٩٧
البلعمي ١١٦
البلغار ٩٠، ٢١١، ٢٦٩
بلغارية ٢٦٩
البلقاء ٢٣٠
بلكاقاغان ١١٠
بلنسية ١٥٥، ١٧٨، ١٨٦، ٢٠٩
بليولوجس ، ميخائيل ٢٤٤
البنجاب ١١٩، ١٢٠
بهاء الدولة البويهي ١٢٣
بهاء الدين ولد (ابو جلال الدين الرومي) ٢٨١
بهرام الجنابي، أبو سعيد الحسن بن ٧٥
بهرام شاه ٢٥٦، ٢٥٧
البهلوان ، اوزبك بن ٢٦٠
بهلوي ، الشاه رضا ١٢٤
البوذية ١٣، ١١٢، ٢٧٣
البوذيون ٢٧٣، ٢٧٧
البوريون ٢٣٣
البوري ، مجير الدين آبق ٢١٢
« البوستان » ٢٧٩
بولدوين ٢٣١
بولندة ٢٦٩
بومين ١١٠
بونة ٩٥
بوير نور ، بحيرة ٢٦٢
بويه ، آل ٩٣، ١١٤
بويه ، احمد بن ٩٣، ٩٤
بويه ، الحسن بن ٩٣
بويه ، علي بن ٩٣
البويهي ، معز الدولة ٩٧
البويهي ، عضد الدولة ٩٢
البويهي فخر الدولة، مجد الدولة بن ٩٥
البويهية ، الدولة ٩٥ ، ١٢٥
البويهيون ٨٨، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٢٤
بويون ، غودفري دي ١٧
بياسة ١٩١
بيبرس، الملك الظاهر ركن الدين ٢٣٢، ٢٤١ — ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٧٢، ٢٧٣
بيبرس ، سلامش بن ٢٤٥
بيت المقدس ١٣٦، ٢١٦
بيت لحم ٢٧٣
بيرشاه ، غياث الدين ٢٦٨
البيروني، ابو الريحان محمد ١٢٠، ١٢١

بيزنطة ٢٢، ٣٨، ١٥٣، ٢٢٣
البيزنطيون ٥، ١٠، ١٢، ١٩، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٨٨ — ٩٠، ١٢٧، ٢٢٢، ٢٢٥
البيزيون ١٠٨
تاشفين ، علي بن ١٧٨
تاشفين ، يوسف بن ١٨٣ — ١٨٨
تاكرنا ، جبال ١٤٩، ١٥١
تانغ (أسرة مالكة في الصين) ١١٠
تاهرت ٩٥، ١٤٢
التايجيوت ٢٦١
التبت ٣٢، ١٠٩
تبريز ٢٧٥، ٢٧٦
التبريزي ، شمس الدين ٢٨١
التتـــار ٢٦١
تدمر ١٩
تركستان ١١٢، ١١٤، ١١٩، ١٢٤، ٢٥١، ٢٥٥
التركمان ١٢٥، ٢٦٧
ترمذ ٢٦٠
التروبادور ١٧٦
تستر ٨٤
التستري ، سهل ٨٤
تسيمتسس ، يوحنا (الدمستق) ٩٠
تشوي ، نهر ٢٥٥، ٢٧٠
تطيلة ٢٥٢
تغلب ٨٨
تكريت ٢٢٢
تكش ٢٥٧، ٢٥٩
تكش ، علاء الدين محمد بن ٢٦٠
تلس ٢٦٤
تلمسان ٩٩، ١٦٣، ١٩٣، ٢٠٠
تموجين ٢٦٢، ٢٦٣
تمـيم ٣٠
التنكت ، بلاد ١٠٩، ٢٦٣، ٢٦٨
التنكتيون ١١٢
تهامة ٢٢٨
توجين ، بنو ٢٠٧
توران شاه ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٩، ٢٤١
التوراة ٣١، ٤٢
توزون ٩٤
توفيل ٣٨، ٤٨
تولا ٢٦١
تولوز ، ريمون دي ٢١٧
تولوي ٢٦٩، ٢٧٠
تومان (نقود) ٢٧٥
تومرت ، محمد بن ١٩١، ١٩٢
تونس ١٨٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٥، ٢٠٧
تيان شان (جبال) ١٠٩، ١١٤
تيان شان (نهر) ٢٧٧
تيم الله (قبيلة) ١١
تيمورلنك ٢٠٧، ٢٧٨، ٢٨٠
تيمية ، ابن ٢٤٧، ٢٤٨
تينملل ١٩٢
ثاوموروس المصيصي ٣٨

الجاحظ ١١٧، ١٤٣
جالوت، عين ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٢
جامع، ابن ١٩٨
الجبال، بلاد ٥٤
جبل طارق ١٥٢
جبريل، جورجيس بن ٣٩
جبير، ابن ٢٠٩
جبيرول، سليمان بن يحيى ١٧٩
الجراكسة ٢٠٧، ٢٤٥
جرجان ١٤، ١١٤، ١٢١
الجرجانية (كوركانج) ١١٩
الجرجرائي ٧٦
الجرمان ١٧٦
الجرمانية، الشعوب ١١٠
الجرجينيون ٢٥٥
الجزائر ١٠٨، ١٨٠، ١٨٤، ١٩٨
الجزائر الشرقية ١٩٤
الجزولي، عبد الله بن ١٨٣
الجزيرة الخضراء ١٨٥، ١٨٦، ٢٠٢
جزيرة العرب ٤٤، ٢١٠
الجزيرة العليا ٨٨، ٢٣٩، ٢٥٢
الجزيرة الفراتية ٣٢، ٧٨، ٨٩، ١٠٠، ١٣٩، ١٤٠، ٢١٢، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٥–٢٣٧
جعبر (قلعة) ٢١٩
جعفر البرمكي ١٩–٢١
جعفر (ابن ابن حفصون) ١٥٢
جعفر (اخو المكتفي) ٧٦
جعفر الصادق ٧٣
الجعفري (قصر المتوكل) ٥٤
جغتاي ٢٦٩
جفري بك داود ١٢٥
جليقية ١٦٦
الجمالي ١٠٦، ١٠٧
الجمل، واقعة ٣٠
جنديسابور ٣٩، ٦٠
جنكيز خان ٢٣٨، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦٣–٢٦٩، ٢٧٦
جنكيز خان، جوجي بن ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩
جنون، ابن ١٦٥
الجنويون ١٠٩
الجنيد ٨٤
جهور، ابن ١٧١، ١٧٢
جهور، ابو الوليد بن ١٧٢
الجوسق ٤٩
جوسلين الثاني ٢٢٠
جوهر ١٠٣
الجويني ١٩١
الجياب، ابن ٢٠٤
جيان ١٤٢، ١٥١، ٢٠٢
جيبال ١١٩
جيحون، نهر ١٢، ١٢٧، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٧٠
جيرالدا، برج ١٥٦
الجيزة ١٠٣

الجيش ، أبو ٦٧
جيلان ١٧٦
الجيهاني ١١٧
الحاجب المنصور ١٦٦
حارم ٢٢٢،٢٢٤،٢٣٠
حافظ الشيرازي ٢٧٨،٢٨٠
الحاكم بأمر الله الفاطمي ١٠٣–١٠٦
حبوس ، الامير ١٧٩
حجاج ، ابراهيم ابن ١٥٠
الحجاج، السلطان يوسف ابو ٢٠٤،٢١٥
الحجاز ٤٣،٢٣٠
حران ٣٨
الحريري ١٣٤،١٣٥،١٧٢
حزم ، ابن ١٧٥–١٧٨،١٩١
حسن ، السلطان ٢٥١
الحسن ، ابو (المريني) ٢٠٢
حسن ، قوام الدين ٢٨٠
الحسن ، محمد عبد الله بن ١٦١
الحسني ، القصر ٧٧
الحسين ، طاهر بن ٣٣،٣٤،٣٦
الحسين ، علي بن ٥٨
الحسين ، يحيى بن ٧١
الحسين بن علي ٢٩،٥٣
الحسين ، قطب الدين محمد بن ٢٥٦
الحشاشون ١٣٦،١٣٨–١٤٠
٢٢٨،٢٤٣،٢٥٩،٢٦٠
حضرموت ٧٠
حطين ٢٢٩،٢٣٠
حفص ، بنو ١٩٨–٢٠٠،٢٠٥
حفص ، ابو زكريا ابن أبي ١٩٩
حفص ، عبد الواحد ابن أبي ١٩٨
حفصة ، مروان بن أبي ٢٣
حفصون ، حفص بن عمر بن ١٥٢
حفصون ، ابن ١٤٩–١٥١
حفصون ، سليمان ابن ابن ١٥٢
الحكم الاول ١٤٥،١٤٦
الحكم الثاني ١٥٦،١٦٢،١٦٣،١٦٥
الحكم ، سليمان بن ١٦٧،١٦٨،١٧٧
الحكم ، هشام بن ١٦٣،١٦٤،١٦٦
حكيم (المقنع) ١٢،١٣
حلب ٣٧ ، ٨٨ – ٩٢ ، ١٠٧،
٢٠٩،٢١٩، ٢٢١ ، ٢٢٢
٢٢٧–٢٢٩،٢٣٤–٢٣٦
الحلاج ٨٤،٨٥
الحلة ١٤٠
حلوان ١٢٦
حماه ٩٩،٢٢٧،٢٢٨،٢٣٣،٢٤٨
حمدان ، (مؤسس الدولة الحمدانية) ٨٨
حمدان ، الحسن بن ٨٨
حمدان ، الحسين بن ٨٨
حمدان ، ابو الهيجاء بن ٨٨
حمدان ، علي بن ٨٨
حمدان قرمط ٧٤
الحمدانيون ٨٨،٩١،٩٤،٩٥،١٠٢
الحمراء ٢٠٤،٢١١،٢١٢
حمص ٢٢١،٢٢٣،٢٢٧

حماد (عم باديس) ١٠٨
الحمادية (الدولة) ١٨٤
حمود ، بنو ١٨٥
حمود ، علي بن ١٦٨
حمير ٦٩
حنبل، احمد بن ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٥٣، ٨٣
حنيفة ، ابو ١١، ٤٣، ٤٤
الحيرة ٢٩
« الحيوان » ١٣٣
« حي بن يقظان » ١٩٥
حيان ، جابر بن ٨٢
الخابور ٢١٩
خاقان ، الفتح بن ٥٤
خانقين ٣٣
ختن ٢٥٥
ختاي (الصين) ٢٥٥
ختاي ، قبيلة مغولية ١١٢
الخجستاني ٦٠
« خداينامة » ١٠، ٣١
خراسان ٦، ١٣، ١٤، ٢٢، ٢٣، ٣٦، ٣٧، ٥٨، ٦٠، ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٦٧، ٢٧٩
الخراساني ، ابو مسلم ٥، ١٣
الخزر ٩٠
الخزر (قزوين) ، بحر ١٠٩، ٢٦٦، ٢٦٧
الخزرج ٢٠١
الخطيب ، ابن ٢٠٤ — ٢٠٧
الخطيب ، نجم بن ٢٠٥
الخلج ، قبيلة ٢٦٧
خلدون ، ابن ٢٠٤ — ٢٠٦، ٢٠٨
خلدون ، كريب بن ١٥٠
خلف الاحمر ٢٤
الخليج الفارسي ٧٥
الخليل بن احمد ٢٧، ٢٨
خمارويه ٦٥ — ٦٨
الخوارج ١٤، ٣٦، ٤٤، ٥٦، ٥٧، ٨٨، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠١
خوزستان ٨٨، ٩٤
خوارزم ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٨
خوارزم (بحيرة آرال) ١٢٥
خوارزمشاه ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٦
الخوارزمشاهية ١٢١، ٢٥٦، ٢٦٦، ٢٦٧
الخوارزمي ٤١، ١١٧
خوداه ، سامان ١١٣
خوزستان ٥٧، ٥٩، ٦١، ٧٨، ٨٤، ٢٥٩
الخيام ، عمر ١٣٠، ١٣١، ١٣٧
الخيزران ١٧
دؤاد ، احمد بن أبي ٥٣
دار الأسود ٢١١، ٢١٣
دار الحديث ٢٢٠
دار السلام ٩

داعي الدعاة ١٤١
دامغان ١٤٠
الداقوب ٢٦٩
داود (أبو ألب أرسلان) ١٢٦، ١٢٧
داود، محمد بن ١٧٥
الداوية، فرسان ٢٤٣
دجلة ٨، ٤٩، ٥٧، ٦١
الدراويش ٢٢٠، ٢٣٤
دراج القسطلي، احمد بن ١٧٠
الدروز ١٠٣، ١٠٦
دقوز خاتون ٢٧٣
دقيقي ١٢٣
دلامة، أبو ٢٥
الدلتا ٦٧، ١٨٤، ٢٣٦
دلماسيا ٢٦٩
دلهي ٢١٠
دماوند ١٩
دمشق ١٦، ٢٠، ٤١، ٥٤، ٦٥ – ٦٧، ٧٤، ٨٩، ٩٢، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٨، ١٢٧، ١٣٦، ١٣٩، ١٦٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥ – ٢٣٩، ٢٤٧، ٢٤٨
دمياط ٦٧، ٢٢٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩
الدنداني، زكرويه ٧٤
ديار بكر ١٢٨
دير العاقول ٥٩
ديسقوريدس ١٦٢
الديلم ١٤، ٩٣، ٩٤
ديوان التفتيش ١٧
ديوجين، رومانوس ١٢٧
ذيبة المهل (جزائر) ٢١٠
رائق، ابن ٨٨، ٩٤، ١٠٢
رائق، علي محمد بن ٨٧
الرازي ٨٥
الراضي (الخليفة) ٩٣، ١٠٢
الراضي (ابن عباد) ١٨٥
الراوندية ١٣
رباح، قلعة ١٦٧
رباط ١٩٨، ٢٠٠
الربيع، الفضل بن ٢٠، ٣٢
ربيعة، عمر بن أبي ٢٣
رتلاند ١٤٤
رجار ٩٨، ١٠٨
ردمير ١٥٤
رذريق ١٨٦
رزيك، طلائع بن ١٠٧، ٢٢٣
الرس ٧١
الرستميون ٩٥، ١٤٢
الرسي ٧١
رشد، ابن ١٨٩، ١٩٤ – ١٩٧
الرشيد ١٢، ١٤، ١٧ – ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٣٩، ٤٠، ٤٩، ٥٨، ٦٧، ٢٣٢، ٢٤٤
رشيد الدين، سنان ٢٢٨
رشيد الدين، وزير غازان ٢٧٣ – ٢٧٥

رضوان (القائد) ٢٠٤
رقادة ٩٧، ١٠٠، ١٠٣
الرقة ٢٠، ٣٤، ٤٩، ٦٥، ١٠٢
ركن آباد (قناة) ٢٨٠
ركن الدولة البويهي ٢٨٠
ركن الدين (زعيم الحشاشين) ٢٧١
الرمادي ١٧٤
الرملة ٦٦، ١٠٢، ٢٢٩، ٢٣٢
رندة ١٤٩
رندة ، حصن ٢٠٥
رندة ،جبال ٢٠٢
الرهاء ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠
الرودكي ١١٥
روذبار ١٣٧
روزن ١٣١
الروس ٩٠
الروسيا ٢١١، ٢٤٦، ٢٦٧، ٢٦٩
الروضة ، جزيرة ٢٤١
روكوت ١٣٤
الروم ٦٣، ٩٠، ٩١، ١٠٣، ١٢٧
الرومانية ، الامبراطورية ٧٨
رومة ٥١
الرومي ، جلال الدين ٢٨١
الري ٦، ٣٣، ٧١، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٩
رياح ، بنو ٢٠٠
ريكاردوس ٢٣١، ٢٣٢
ريكافورد ١٤٧

ريموند ١٦٧، ٢١٨، ٢٢١
رينولد ٢٢٢
الزاب (إقليم) ٢١، ٩٥
الزاهرة ، مدينة ١٦٥، ١٦٧
زبيد ٧٠، ٢٢٨، ٢٢٩
زبيدة ٣٢
الزرادشتية ١٥
زرياب ١٤٨
الزط ٤٧
الزقاق ١١٥
زكرويه ٧٥
الزلاقة ٢٨٦
زمرك ، ابن ٢٠٦
زناتة ، قبيلة ١٠١، ١٦٣، ٢٠٠
الزنادقة ١٥، ١٧، ٢٣٤
زنجان ، نهر ٢٧٥
الزنج ٥٥ — ٥٧، ٥٩ — ٦١، ٧٣، ٨٢، ١٠٣، ٢١١
الزندقة ١٦٠، ١٦٥
زنكرون ، كنيسة ١٥٦
زنكي ، آل ٢١٨
زنكي الثاني ٢٢٩
زنكي ، سعد بن ٢٧٩
الزهراء ١٥٨، ١٧٨
الزهراوي ، ابو القاسم ١٧٨
الزيات ، ابن ٥٢
زياد ابن ابيه ٧٠
زيادة الله الاول ٩٦

زيادة الله (ثالث الأغالبة) ٩٧
زيادة الله الثاني ١٠٠
زيار ، مرداويج بن ٩٣
زيان ، قبيلة ٢٠٠
زيتون (تسو – ثونج) ٢١٠
زيد بن ابراهيم ١١
زيد ، الحسن بن ٧١
زيد العلوي ، محمد بن ١١٤
الزيدية ٤٤، ٦٩، ٩٣
زيدون ، ابن ١٧١، ١٧٢، ١٨٠
الزيري ، الحسن ١٩٣
زيري ، زاوي بن ١٧٩
زيري ، يوسف بلكين بن ١٠٨
الزيرية ، الدولة ١٨٤
زينب (ارملة أمير أغمات) ١٨٣
الساج ، يوسف بن أبي ٨٦
الساسانيون ٨–١٠، ١٦، ٣٩، ٤٦
سالم ، السلطان أبو ٢٠٤، ٢٠٥
سالم ، مدينة ١٦٤، ١٦٧
سامان ١١٣
الساماني ، منصور بن نوح ١١٩
الساماني ، نوح ١١٩
السامانيون ١١٣–١١٩، ١٢٥
سامرا ٢٥، ٤٩، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦٢، ٦٤، ٦٨، ٩٦
سبأ ٦٩
سبتة ١٠١، ١٠٣، ١٥٢، ١٦٥، ١٦٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٩٥
سبران ، إمارة ١٢٧
سبكتكين ١١٨، ١١٩
سبكتكين ، محمود بن ٩٥
سجستان ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٨٦، ١١٤، ١١٨، ١٢٦، ٢٥٤
سجلماسة ١٠٠، ١٦٣
سراج ، ابن ٢١٢
سرخس ٣٥
سردانية ١٠٨
سرقسطة ١٤٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠١
سرقوسة ٩٧
سرنديب ٤٠
السروجي ، ابو زيد ١٣٤
سعد ، ابن ٣١، ٤٨
سعد الدولة ٩١
سعدي (الشاعر) ٢٧٨، ٢٧٩
سعيد ، الامير أبو ١٩٥
سعيد ، أبو ٢٠٤
سعيد ، ابن أبي ٧٥
السعيد (الخليفة) ٢٠٠
سعيد الدولة ٩١
السفاح ٥، ٦، ١٥، ١٨
السقطي ٨٤
سلا ١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٥
السلاجقة ١٠٧، ١٠٨، ١٢٤–١٢٧، ١٣٠، ١٣٥، ٢١٦–٢١٨، ٢٢١، ٢٣٨، ٢٥٤، ٢٦٨، ٢٧٨

سلامان ١٩٥
سلامة ، ابن ٢٠٧
سلجوق ١٢٤، ١٢٥
السلجوقية ، الدولة ١٣٨، ١٤١
السلطانية ، مدينة ٢٧٥، ٢٧٦
سلغر ، آل ٢٧٨
سلمة ، أبو ١٨
سلمية ٩٩
سلنغة ، نهر ١١٢
سليط ، وادي ١٤٨
سليم ، بنو ١٨٤
سليمان ، جبال ١١٨
سليمان العربي ١٤٣، ١٤٤
سمرقند ٢٢، ٣٢، ١١٣، ١٢٥، ١٣٦، ٢٥٥، ٢٦٦
سنام ، قلعة ١٣
سنباذ ٦
سنجار ٢٢٩
سنجر ١٣٩، ١٤٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧
السند ٥٩، ٢٦٧
السندباد ١١٥
« السند هند » ٤٠
السنغال ١٦٣، ١٨٢ – ١٨٤
السهروردي ٢٣٤
سهل ، الفضل بن ٣٢، ٣٤، ٣٦
سهل ، الحسن بن ٣٦
سوري ، آل ٢٥٦
سورية ٢٠، ٣٢، ٣٣، ٤٣، ٤٨، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٧٤، ٧٥، ٧٨، ٨٨، ١٠٦، ١٠٧، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠ – ١٤٢، ١٤٥، ٢١٦ – ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٧ – ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٨، ٢٧٣
السوريون ٣٨، ١١٢، ٢٢٤
السوس ٧، ٨، ٣٩، ١٩١ – ١٩٣
سومطرة ٢١٠
سومنات ، هيكل ١٢٠، ١٢١
السويس ١٠٣
سيبريون (القديس) ٢١
سيبويه ٢٨
سيبيريا ٢٦١
سيحون ١٢٥
سير ، بن ابي بكر ١٨٨، ١٩٤
سيف الدولة ٨٩ – ٩٢، ١٠٢
سيف الدين ٢٢٧، ٢٢٨
سيلان ١١٧
سينا ، ابن ١١٦، ١٩٥، ٢٧٧
سينا ، شبه جزيرة ١٠٢
شاتيون ، راجينالد دي ٢٣٠
شاذي الكردي ٢٢٢
شارلمان ٢١، ٢٢، ١٤٣، ١٤٤
الشاش ١١٣
شاطبة ١٧٧
الشافعي ٤٣، ٢٢٤، ٢٣٥

الشافعية ٥٢
الشام ٦١،٦٦،٨٩،١٢٩،١٥٦،
١٨٠
الشام ، بادية ٩١
الشامانية ١٣،٢٦١،٢٦٣
شانت ياقو ١٦٦
شانجه ١٥٢،١٥٤،١٦٦،١٩٤
شاه شجاع ٢٧٩،٢٨٠
« الشاهنامة » ١٢٣
شاور ٢٢٣
شبام ٧٠
شبيث ، نصر بن ٣٧
شبروط ، حسداي بن ١٧٩
شجرة الدر ٢٣٨ — ٢٤٠
الشحر ٧٠
شداد ، بهاء الدين بن ٢٣٣
شربند ١٥١
الشرف . اقليم ١٥٠
الشرق الادنى ١٣٧،٢١٦،٢٢٢،
٢٤١،٢٥٣
الشرق الاقصى ٢١١
شريش ٢٠١
الشزري ، باب ١٤٤
شنترين ١٩٤
شنجول (عبد الرحمن) ١٦٦
شهيد ، ابن ١٧١
شوبك ٢٢٦
شيراز ٥٩،٩٣،٢٧٩،٢٨٠
شيركوه ١٠٨،٢٢٢ — ٢٢٤
شيزر ٢٣٣
الشيعة ٣٥،٩١،٩٨،١٢٢،١٣٧،
٢٢٥،٢٧٢،٢٨٠
الصابئة ٧٣
صاحب الخال ٧٥
صاحب الناقة ٧٤،٧٥
الصالح اسماعيل ٢٣٨،٢٣٩
الصالح ، ايوب ٢٣٨،٢٣٩
الصباح،الحسن بن ١٣٧،١٣٨،١٤٠
صبح ١٦٣،١٦٥
الصحراء الكبرى ١٨٠،١٨٣،١٨٤،
٢٠٠
صدقة ، أبو ١٤٠
صعدة ٧١،٧٢
الصغد ١١٢
الصفار ، يعقوب ٥٨،٦١
الصفارية ٥٧،١١٣،٢٥٤
« صفة جزيرة العرب » ٧٠،١١٦
صفد ٢٤٣
الصفدي ، خليل بن ايبك ٢٤٦
صفورية ٢٣٠
صفوان ، جهم بن ٤٥
صفين ٣٠
الصقالبة ١١١،١٥٣،١٥٤،١٦٤
١٦٥،١٦٨
صقلية ٩٥،٩٧،٩٨،١٠٨،١٩٣،
٢٠٣،٢٠٩،٢٢٧،٢٣١،٢٣٧

الصقليون ١٩٤
صلاح الدين الايوبي ٦٢، ١٠٨، ٢٠٩، ٢١٦ ، ٢٢٤ - ٢٣٦ ، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤
الصليبيون ١٠٧، ١٤٠، ٢١٦ – ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥ – ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٣
الصميل الكلابي ١٤٢
صنجيل ، جبل ٢١٨
صنعاء ٦٩ – ٧١، ١١٦، ٢٢٨، ٢٢٩
صنهاجة ١٦٣، ١٨٢
صور ١٠٧، ٢٣١
الصوفية ٨٢ – ٨٤، ١٦٠
صيدا ٢٣٨
الصين ٣٢، ١٠٩، ١١٠، ٢١٠، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٦
ضرغام (القائد) ٢٢٣
الطائع(الخليفة) ٩٤
طارق ، جبل ٢٠٢، ٢٠٦
طالب ، علي بن ابي ٢٩، ٣٠، ٤٤، ٥٦، ٧٤، ٩٩، ٢٥٩
طاهر ، آل ٥٨، ٥٩، ٧١، ١١٣
طاهر ، ابن ٥٩
طاهر ، تاج الدين بن ٢٥٤
طاهر ، طلحة بن ٣٦، ٣٧
طاهر ، عبد الله بن ٣٧
طاهر ، محمد بن عبدالله بن ٥٤، ٥٥
الطاهرية(الدولة) ٣٣، ٥٧
طباطبا ، محمد بن ابراهيم بن ٣٤
طبرستان ١٩، ٣١، ٥٩، ٧١، ٩٣، ١١٤، ١٢٥
الطبري ٢٩ – ٣١، ٤٢، ١١٦، ١٢٢، ٢٠٨
طبرية ، بحيرة ٢٣٠
«الطبقات» ٣١
طخارستان ٥٩
طرابلس الشام ٢٠٧، ٢١٨، ٢٢١، ٢٣١
طرابلس الغرب ٩٥، ١٩٣
طراز ، نهر ٢٧٠
طرطوس ٣٨، ٤٦، ٦٢، ٦٦
طرفان ، مدينة ٢٧٧
طريف ، جزيرة ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٩
طغج ، محمد بن ١٠١، ١٠٢
طغج ، علي ابن ابن ١٠٢
طغرلبك ٩٥، ١٢٥ – ١٢٧
طفيل ، ابن ١٩٤ – ١٩٦
طليطلة ١٤٣، ١٤٦ – ١٤٩، ١٥٢، ١٦٨ – ١٧٠، ١٨٥، ١٨٦
طنجة ١٠٣، ١٨٤، ١٩٥، ٢١٠
الطواحين ٦٦
طورس ، جبال ٩٠
طوس ٢٢، ٣٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٠
الطوسي ، نصير الدين ٢٧١، ٢٧٢
طوطه (الملكة) ١٥٤

طولون ، أحمد بن ٦٢ – ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٨١
طولون ، العباس بن احمد بن ٦٥
الطولونيون ٦٢، ٦٦ – ٦٨، ٧٥، ١٠٣
الظافر (الخليفة) ١٠٨
الظاهر (ابن صلاح الدين) ٢٣٥
الظاهر (اخو صلاح الدين) ٢٣٤
الظاهر العباسي ٢٧٢
العادل ، الملك ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦
العادل (ابن الكامل) ٢٣٨
العاضد الفاطمي ١٠٨، ٢٢٣ – ٢٢٥
العامرية (الدولة) ١٦٦، ١٧٦
عانة ١٢٦
عباد ، بنو ١٦٨
عباد ، محمد بن ١٦٩
عباد ، المعتمد بن ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٥ – ١٨٧
عباد ، المعتضد بن ١٧٢
العباس ، حامد بن ٨٥
العباس ، ابو ١٦
العباسة (اخت الرشيد) ٢٠
العباسة ، مدينة ٦٧
العباسية ، مدينة ٢١
العباسيون ٥، ٧، ١٠، ٢٣، ٣٤، ٦٢، ٩٧، ١١٣، ١١٦، ١١٨، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٨، ١٧٥، ٢٤١، ٢٤٩
عبدان ٧٤
عبد الحق ، ابو يحيى بن ٢٠٠
عبد الحق ، ابو يعقوب بن ٢٠٢
عبد ربه ، ابن ١٧٤
عبدالرحمن(ابن الحاجب المنصور) ١٦٦
عبد الرحمن الداخل ٢٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٦
عبد الرحمن الثاني ١٤٧، ١٥٦
عبد الرحمن الثالث ١٠١، ١٥١ – ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠ – ١٦٢، ١٦٧، ١٧٧، ١٧٩
عبد الرحمن الرابع ١٧٧
عبد الرحمن الخامس ١٧٧
عبد الرحمن ، هشام بن ١٤٤
عبد الرحمن ، يعفر بن ٧٠
عبد الرزاق ، ابو منصور بن ١٢٣
عبد الله ، ابو ١٠٠
عبد الله ، ابو (القرمطي) ٧٤
عبدالله ، (الامير الاموي) ١٥٠، ١٥١، ١٥٦
عبدالله بن الحسن ، ادريس بن ٩٨
عبد العزيز ، (العثماني) ١٠٢
عبد العزيز (المريني) ٢٠٦
عبد القدوس ، صالح بن ١٦
عبد القيس ، قبيلة ٧٥
عبدالمؤمن بن علي ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٩
عبد المؤمن ، ابو سعيد بن ٢٠٩
عبد الملك (ابن الحاجب) ١٦٦

عبد الملك الاول (الساماني) ١١٨،
١١٩
عبد الملك، هشام بن ٤٤، ٧١، ١١٣،
١٤٢
عبد النبي (حفيد المهدي) ٢٢٩
عبد الواحد الثاني ١٩٩
عبد الواحد (خليفة الموحدين) ١٩٨،
١٩٩
عبد الواحد ، عبد الله بن أخي ١٩٩
عبد الواد، يغمراسن بن ٢٠٠، ٢٠٢
عبدوس ، ابن ١٧١
عبدون ، ابن ١٧٣
عبد يشوع (الاسقف) ١٣٤
عبيد ، عمرو بن ٤٥
عبدالله (ابن الفاطمي محمد) ١٠٠، ١٠١
العتاهية ، أبو ٢٥، ٨٢
العتبي ١٢٢
عثمان (الخليفة) ٤١، ٤٥
العثمانية (الامبراطورية) ٢٨٨
العثمانيون ١٣٦
عدوة الاندلسيين ١٤٦
العراق ٦، ٨، ٣٤، ٤٦، ٥٤، ٥٥،
٦٠، ٦٤، ٦٩ – ٧٥، ٧٨، ٨١،
٨٢، ٨٨، ٨٩، ٩٣ – ٩٥، ١٢٤،
– ١٢٦، ١٢٨، ١٤٨، ٢٠٩،
٢٢٢، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٧١
٢٧٥، ٢٧٨
العرب ٢٠، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٤٢،
٤٧، ٤٨، ٩٠، ٩٦، ٩٠ – ٩٨، ١١١،
١١٤، ١١٦، ١٢٢، ١٣١، ١٣٥،
١٤٢، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١،
١٨٢، ٢٠٠، ٢٣٧، ٢٥٣
العرب، بلاد ٣٣، ٦٩، ٧١، ٧٥، ١٣٨
عربي ، ابن ٢٠٢، ٢٠٣
عرية ، حصن ٢٢١
العروس ، جبل ١٥٨ – ١٦٠
عز الدين أيبك ٢٣٩
العزيز (الفاطمي) ١٠٤، ١٨٤
العزيز (الايوبي) ٢٣٥
عسقلان ١٠٧، ٢٣٢
عضد الدولة ٩٥
عطاء ، واصل بن ٤٥
العقاب ، حصن ١٩٨
عقبة ، مسجد ٩٦
« العقد » ١٧٤
العقيلية (الدولة) ١٢٦، ٢١٩
عكا ٢٠٩، ٢٣١
العلى ، ابو ١٩٩
علاء الدين محمد الثاني ٢٥٨، ٢٦٠
علاء الملك العلوي ٢٦٠
علان الشعوبي ٢٦
العلويون ٦ – ٨، ١٤، ٣٤، ٤٤، ٥٣،
٥٤، ٧٠، ٩١، ٢٦٠
علي ، ابو الحسن ٢١٥
علي ، الحسن بن زيد بن ٥٩
علي ، تاشفين بن ١٩٣

علي ، داود بن ١٧٥
علي ، زيد بن ٥٦ ، ٧٠ ، ٧١
علي ، سليمان بن ١٦
علي ، عبد المؤمن بن ١٩٢ ، ١٩٤
علي ، عيسى بن ١٥ ، ١٦
العليص ، بنو ٧٤
عماد الدين زنكي ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٢٢٢
عمار ، أبو بكر بن ١٧٢
عمان (بالضم) ٧٨ ، ٩٢
عمر (الخليفة) ٤٥
عمر الأسدي ، سيف بن ٣٠
عمر المتوكل ١٧٣
عمر ، يحيى بن ١٨٣
عمرو (اخو يعقوب الصفار) ٦٠
عمورية ٤٨
عنتر ، سيرة ٢٤٥
عيسى ، علي بن ٣٣
« العين » ، كتاب ٢٧
عين زربة ٤٧
غازي ، سيف الدين ٢١٩ ، ٢٢٦
غالب (صاحب مدينة سالم) ١٦٤ ، ١٦٥
غانية ، يحيى بن ١٩٨
غران ٢٦٩
غرناطة ١٧٩ ، ١٨٥ — ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ — ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٥
غريغوريوس التاسع ٢٣٧
الغز ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
الغزال ، يحيى بن الحكم ١٤٨
الغزالي ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١
غزنة ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧
الغزنوي ، اسماعيل ٢١٩
الغزنوي ، محمود ١١٩ — ١٢٥
الغزنوي ، مسعود بن محمود ١٢٥
الغزنوية (الدولة) ١٢٥ ، ١٣٦ ، ٢٥٦
الغزنويون ٢٥٤ ، ٢٥٨
غلاطية ٤٨
غليام الصالح ٢٠٩
غمارة ، قبيلة ١٩٧
غوبي ، صحراء ٢٦١
الغور ، بلاد ٢٥٦
الغوري ، معز الدين ٢٥٨
الغورية (الدولة) ٢٥٦
الغوريون ٢٥٧
الفائز (ابن الملك العادل) ٢٣٦
الفارابي ٩٢
فارس ٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٧ — ١٣٩ ، ١٤٦ ، ٢١٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
فاس ١٦٣ ، ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٢٥
الفاضل ، القاضي ٢٣٣

فاطمة ٥٦، ٩٩
الفاطميون ٨٩، ٩١، ٩٩، ١٠١ – ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨، ١١٧، ١٢٧، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٣، ١٨٤، ١٩٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٥١
« الفتوحات المكية » ٢٠٣
الفرات ٨، ٢٠، ٣٤، ٤٩، ٢١٩
الفرات ، ابو الحسن بن ٧٧
فراس ، ابو ٩١
فردريك الاول ٢٣١
فردريك الثاني ٩٨، ٢٠٣، ٢٣٦–٢٣٨
الفردوسي ١٢٢ – ١٢٤
فردون ١٥٣
فرديناند الاول ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣
فرديناند الثاني ٢١٥
فرديناند الثالث ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢
الفراء ٢٨، ٤٢
فرخشاه ٢١٨
الفرس ١٨، ٢٦، ٣١، ٤٢، ٤٧، ٦٩، ٨٥، ١٠٢، ١٠٩، ١١٠، ١١٤ – ١١٦، ١٢٢ – ١٢٤، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٥٩، ١٦١، ٢٦٢، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٧٩
فرغانة ٢٤، ١٠٢، ١١٣
الفرنجة ١٤٤، ١٥٩، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٤ – ٢٢٧، ٢٣٩
فرنسة ١٥٣، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٣٩
فروان ٢٦٧
الفسطاط ٤٣، ٦٤، ٦٧، ٢٢٤، ٢٣٥
«الفصل في الملل والاهواء والنحل» ١٧٧
« فصوص الحكم » ٢٠٣
فلتيرة ١٥٢
فلسطين ٦٣، ٦٦، ٦٧، ١٠٢، ١٨٠، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٦ – ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٧٢
فنسنت ، القديس ١٥٥
فهر ، قبيلة ١٤٣
« الفهرست » ١٣٢
الفهري، يوسف بن عبد الرحمن ١٤٢، ١٤٣
الفهلوية ١٥
فوكاس ، برزوس ٩٠
الفولغا ، نهر ٢١٠، ٢١١، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠
فيتزجرالد ١٣١
فيليب اوغسطس ٢٣١
الفيوم ١٠١
القائم (الفاطمي) ١٠١، ١٢٦
القادر (الخليفة) ٩٤
القادر ، الملك ١٨٦
القارلوق ٢٦٤، ٢٦٥
القاسم بن ابراهيم ٧١
القاسم بن هرون ٣٢
قاعة الأختين ٢١٢
قاعة السفراء ٢١٢

القالي ، ابو علي ١٦١، ٦٧٤
« القانون » ١١٦
القاهر (الخليفة) ٨٠، ٨٦، ٨٧، ٩٣
القاهرة ٦٤، ١٠٣، ١٦٣، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٨، ٢٥١ –
القبائل الذهبية ٢٧٣
قبرس ٢٢٢، ٢٤٦
القبق (القوقاز) ٢٤٦، ٢٦٧، ٢٧٠
قتلمش ١٢٧
قتلمش ، سليمان بن ١٣٦
قحطبة ١٩
القدس ١٠٧، ٢١٧، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٩ – ٢٣٣، ٢٣٧ – ٢٣٩
القرآن ٢٦، ٣١، ٤١ – ٤٣، ٤٥، ٥٣، ٨٣، ٩٩، ١٧٥، ١٩١، ٢٨٠، ٢٨٢
القراخانية ١٢٥
قراختاي ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٤
القرامطة ٦٧، ٧٠، ٧٢–٧٦، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٩، ١٨٤، ٢٣٤
قرطاجنة ٢١٠
قرطبة ١٤٣، ١٤٦–١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٨–١٦٠، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧–١٧٢، ١٧٤، ١٧٦–١٧٨، ١٨٠، ١٨٨، ١٩١، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١
القرم ، شبه جزيرة ٢١٠
قرمط ، حمدان ٧٣
قزمان ، ابن ١٧٤
قزوين ، بحر ٥٩، ٧١، ١٣٧
قسطنطين الرابع ٩٧
القسطنطينية ٩١، ١٥٨، ١٦٢، ٢١٠
قشتالة ١٥٤، ١٦٩، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٥
قشمير ١٢٠
القشيري ١٩١
القصاب ، مؤيد الدين بن ٢٥٩
القطائع ٦٤، ٦٧، ٦٨
قطر الندى ٦٧
قطز ٢٤١، ٢٤٢
قفجاق ، قبيلة ٢٦٤
قلانس ١٦٦
قلاوون ٢٤٥، ٢٥١
قنسرين ٣٢
« قوداتقو بيليك » ٢٧٧، ٢٧٨
قورولتاي ٢٦٣
قوص ٢٢٣
القوط الغربيون ١٥٦، ١٧٩
القوطية ، ابن ١٦١
القوقاز (القبق) ١٢
قونية ٢٨١
قيات ، امرة ٢٦١
القيامة ، كنيسة ٢٣٨
القيرغيز ١١٢، ١٢٤، ٢٥٥، ٢٦٤

القيروان ١٤، ٢١، ٩٦، ٩٧، ١٦٣، ١٨٤
القيسية ٣٧، ١٤٢
قيليقية ٤٧، ٦٧
كابل ١١، ١١٩، ١٢٧، ٢٦٧
كابلستان ١٢٠
كاودانو ٣٩
كاشغر ٣٢، ١٣٦، ٢٥٥، ٢٧٧
الكاشغري ، محمود ٢٧٧
كافور الأخشيدي ٩٢، ١٠٢، ١٠٤
الكامل (ابن العادل) ٢٣٦ - ٢٣٨
كانتون ٢١٠
كانشو ١١٢
كاوس ، حيدر بن (الافشين) ٤٨
كبار ١٠٤
« كتاب الاعتبار » ٢٣٣
كتامة ، قبيلة ١٠٠
كجرات ١٢٠
الكرايت ، قبائل ٢٦١، ٢٦٢
كربلاء ٣٠، ٣٥، ٥٣
الكرج ٩٣، ١٢٠
الكرخ ٩
الكرخي ، معروف ٨٤
الكرك ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٤٣
كرمان ٥٨، ٩٣، ٢٦٨
الكسائي ٢٨
كش ، مدينة ١٠٣
الكعبة ٧٥، ٢٠٧
الكلبي ، محمد ٢٩، ٤٢
الكلبي ، هشام بن ٢٩
الكلبية ٣٧، ١٤٢
كلتكين ١١٠
« كلستان » ٢٧٩
« كليلة ودمنة » ١٥، ١١٥
كن ، سلالة ٢٦٢ - ٢٦٤
كنج ، رستاق ١٢٢
الكنج ، نهر ١٢٠
الكندي ٣٩، ٤٠
كوجلك خان ٢٦٤
كورسيكا ١٠٨
كورة لبلة ١٧٦
الكوفة ٥، ٧، ٨، ١١، ٢٤، ٢٨ - ٣٠، ٣٤، ٨٢، ٩١
كولون ٥١
كونت بيرزا ١٤٨
كونراد الثالث ٢٢٠
كويوك ٢٧٠
كيرولين العليا ٢٧١
كيقباد ، علاء الدين ٢٨١
لاهور ١٢٠، ٢٥٧
لبنان ١٠٦
لخم ، بنو ٢٩، ١٦٩
اللد ٢٣٢
لمتونة ١٨٢، ١٨٣
لؤلؤة ٦١، ٦٤، ٦٥
لؤلؤة ، حصن ٣٨

لورقة ١٨٦،١٨٧
لوسينيان ، غي دي ٢٣٠
لويز التاسع ٢٢٠،٢٣٨،٢٣٩
ليث ، رافع بن ٢٢،٣٢
الليث ، عمرو بن ١١٤
لياو ، سلالة ٢٥٥
الليط ١٨٦،١٨٧
ليو ، الامبراطور ١٥٨
ليو كريشيا ١٤٩
ليون ١٤٨،١٥٢،١٥٤،١٦٦،
١٦٩،١٨٥،٢٠١
مؤاب ٢٣٠
المأمون ٢٦،٢٨،٣٢–٤١،٤٦،
٤٧،٥٣،٧٠،١١٣،١٩٩
المأمون ، العباس بن ٤٦،٤٩
المأمون ، محمد بن علي بن ١٢١
المؤمنية ٧٥
مؤنس الخادم ٧٧،٨٦،٨٧،١٠١
المؤيد ، ابراهيم ٥٤
المؤيد (الوصي) ٢٥٧
ماردة ١٤٨،١٥٢
ماردين ، قلعة ٨٨،٢١٨
ماركو بولو ١٣٨،٢١١
مازندران ٧١
مالقة ١٤٩،١٦٨،١٨٦،١٨٧
مالك (الامام) ٤٣،١٩٩
المالكية ١٩٤
المانوية ١٥،٤٥،٤٦،٧٣،٢٧٧
المانويون ١١٢
ماني ١٦
مانيول الاول ٢٢٢
ماهان ، ابراهيم بن ٢٥
ما وراء النهر ٢٢،٣٣،٤٧،١١٣،
١١٤،٢٥٤
المتقي (الخليفة) ٨٨،٩٣،١٠٢
المتنبي (الشاعر) ٩١،٩٢،١٣٥
المتوكل ٤٦،٥٢–٥٤
« مثنوي » ٢٨١
مجد الدولة البويهي ١٢٠
المجر ٢٣٦
المجسطي ٤٠
محمد (الرسول) ٣٠،٣١،٤٢،٤٣،
٤٥،٧٠،٧١،٨٣،١٢٩،١٣٠،
١٤٧،٢٠١،٢٥٩،٢٧٨
محمد (ابن المتوكل) ٥٣
محمد ، ابو (حاكم بياسة) ١٩٩
محمد ، ابو عبد الله ٢١٥
محمد (اخو بركيارق) ١٣٩،١٤٠
محمد الاول ١٤٨،١٤٩،١٥٦
محمد الاول الغالب ٢١٢
محمد الثاني ٢٠٢
محمد الثاني المهدي ١٦٦
محمد ، جلال الدين بن ٢٦٧،٢٦٨
محمد الحبيب ٩٩،١٠٠
محمد الخامس ٢٠٥
محمد خوارزمشاه (قطب الدين) ٢٨١

محمد ، السلطان ٢١٦
محمد ، عباد بن ١٦٩
محمد ، عبد الله بن ١٧٣
محمد ، علي بن ٥٦
محمد العلوي ٧
محمد ، مروان بن ١٤٢
المحاسبي ٨٣، ٨٤
المحسن (ابن ابن الفرات) ٧٨
محمود (اخو بركيارق) ١٣٩
محمود (ابن اخي سنجر) ٢٥٧
محمود السلجوقي ١٣٠
محمود شاه انجو ، ابو اسحق ابن ٢٧٩
المختار الثقفي ٣٠
المختارة ٥٦، ٦١
مخنف ، أبو ٢٩
المدائن ٦، ٨
المدبر ، أحمد بن ٦٣
المدينة (يثرب) ٨، ٢٥، ٣٠، ٥٥، ٧١، ٧٢، ٧٩
المرابطون ١٧٣، ١٨٠-١٨٥، ١٨٩، ١٩٠-١٩٤، ١٩٨، ٢٠٢
مراغة ، مدينة ٢٧١
مراكش ٩٨، ١٠٠، ١٥٢، ١٦٨، ١٧٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٤-٢٠٦، ٢١١، ٢١٥
مرج عيون ٢٢٩
المرجئة ٤٤

المرداسية (الدولة) ١٠٧
مرسية ١٧٢، ١٨٦، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٣
مرعش ٩٠
المركيت ، قبائل ٢٦٤
مرو الروذ ٢١، ٣٣، ٣٤، ١٢٥
مروان ، ابن ١٢٨
مروان ، عبد الرحمن بن ١٤٩
مروان ، عبد الملك بن ٩، ٢٣
مرين ، بنو ٢٠٠، ٢٠٢
المريني ، ابو الحسن ٢٠٥
مزاحم ، نصر بن ٣٠
مزدك ١٤، ١٦
مزيد ، بنو ١٤٠
المستظهر (الخليفة) ١٣٩
المستعصم (الخليفة) ٢٧٢
المستعين (الخليفة) ٥٤، ٥٥، ٦٢
المستكفي (الخليفة) ٩٤
المستنصر (الخليفة) ٢٧٢
المستنصر الساماني ١٠٩
المستنصر الفاطمي ١٠٦، ١٢٦، ١٨٤
المستنصر ، ابو العباس ٢٠٦
المستنصر ، المستعلي بن ١٠٧
المستنصر ، نزار بن ١٣٧
مسرة ، ابن ١٦٠، ١٧٩، ٢٠٣
مسعود عز الدين ٢٢٩
المسعودي ١١٧
مسلم (المحدث) ٤٣

مسلم الخراساني ، أبو ٦، ١٩، ٣٥
المصحفي ، جعفر ١٦٢، ١٦٤
مصر ٦، ٣٧، ٤٣، ٦١ - ٦٧، ٦٩، ٧٨، ٨٠، ٨٩، ٩٢، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٠١ - ١٠٤، ١٠٨، ١١٧، ١٣٧، ١٦٣، ١٨٠، ١٨٤، ١٩٧، ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢٣ - ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤ - ٢٣٦، ٢٣٩ - ٢٤٣، ٢٤٩، ٢٥٠ - ٢٥٢، ٢٧٢
مصمودة ، قبيلة ١٩١
مصياد ١٤١، ٢٢٨، ٢٤٣
المظفر ، يحيى بن ١٧٣
المظفري ، مبارز الدين ٢٧٩
معافى ، المقدم بن ١٧٣
معاوية (الخليفة) ٧٠
المعتز (الخليفة) ٥٤، ٥٥، ٦٢
المعتز ، عبد الله بن ٧٦، ٧٧
المعتزلة ٤٤ - ٤٦، ٥٣، ٨٤، ١٢٨
المعتصم ٣٧، ٤٦ - ٤٩، ٥٢، ٦٢، ٧٠
المعتصم (صاحب ألمرية) ١٨٧
المعتصم ، يحيى ١٩٩
المعتضد (العباسي) ٦١، ٦٦، ٦٧، ٧٢، ٧٧، ٧٩
المعتمد (العباسي) ٥٧، ٦٥
المعتمد ، جعفر بن ٦٣
المعتمد ، المظفر بن ١٧٣
المعري ، ابو العلاء ١٧١
المعز لدين الله ١٠٣، ١٠٤، ١٦٣

معز الدولة ٨٩
معشر ، ابو ٣٠، ٣١
المعظم (ابن العادل) ٢٣٦، ٢٣٧
المعمري ، ابو منصور ١٢٢
المغول ١٠٩، ١١٢، ٢٠٧، ٢٣٦، ٢٤١ - ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٥٣ - ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٦ - ٢٧٠، ٢٧٢ - ٢٧٦، ٢٧٩
مقاتل ، محمد بن ٢١
مقاتل البلخي ٤٢
« مقامات الحريري » ٩٢، ١٧٢
المقتدر ٧٧ - ٧٩، ٨٦، ٨٨، ١٠١
المقتدر ، احمد بن ٨٧
المقتدر ، أم ٨٠
المقتدي ١٣٩
المقدسي ١١٧
المقطم ٢٣٥، ٢٥١
المقفع ، عبد الله بن ١٥ - ١٧، ٣١، ١١٥، ١٢٢، ١٣٣
المقنع (الذهبي) ١٢، ١٣، ٣٥
مقلة ، ابن ٨٧
المكتفي (الخليفة) ٦٧، ٧٦، ٨٧
مكة ٢٥، ٥٥، ٥٨، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ١٠٠، ١٨٢، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٠
مكناسة ١٨٩، ٢٠٠
ملازكرد ١٢٧
ملتان ١٢٠
الملك الأفضل ١٠٧

الملك الرحيم ١٢٦،٩٥
الملك السعيد ٢٤٥
ملكشاه ١٢٧،١٢٨،١٣١، ١٣٦،١٣٧،١٣٩
الملك الصالح ١٠٧
ملوية ، وادي ٢٠٠
المماليك ٢١٦،٢٤١–٢٥٢،٢٧٢، ٢٧٣،٢٧٦
مناد ، بلكين بن ١٦٣
مناد ، زيري بن ١٦٣
« المناظر » كتاب ١٠٤
منبج ٩١
منت ليشم ٢٧٦
المنتصر ٥٤
منذر ، الامير ١٥٠
المنصور ، ابو جعفر ٥–١٦،١٨، ١٩،٣٠،٣٢،٣٩،٤٥
المنصور ، ابو طاهر اسماعيل ١٠١
المنصور ، الحاجب ١٥٧،١٦٣– ١٦٧،١٧٠،١٧٣،١٧٦
منصور ، نوح بن ١١٦،١٢٣
المنصور ، نور الدين علي ٢٤٠
المنصورية ١٠٣
منغوليا ١١٠،٢٦١،٢٦٣،٢٦٧، ٢٦٩
منقذ ، أسامة بن ٢٣٣
المنكب ، مرسى ١٤٣
منكبرتي ، جلال الدين ٢٦٦
منكلي ٢٥٩،٢٦٠
منكه ٣٩
منكو ٢٧٠
المنيعة ٦١
المهتدي (ابن الواثق) ٥٥،٦٣
المهدي (الخليفة) ٩،١٠،٢٠،١٤–١٧، ٢٥،٢٩
المهدي ، ابراهيم بن ٣٤–٣٦،٧٦
المهدي ، (ابن تومرت) ١٩٣
المهدي ، محمد الثاني ١٦٧
المهدي المنتظر ٧٢،١٣٧،١٩٢،٢٢٨
المهدي ، المنصور بن ٣٤
المهدية ١٠٠،١٠١،١٨٥،١٩٣، ١٩٨
مهران ، نهر ٢٦٧
الموالي ٤٧
الموحدون ١٨٩،١٩١–٢٠٢
موسى الرضا ، علي بن ٣٤،٣٥
موسى ، عيسى بن ٧،١٤
موسى المولد ١٤٩
الموصل ١٧،١٩،٦٥،٦٦،٨٦، ٨٨،٨٩،١٢٦،٢٠٩،٢١٨، ٢١٩،٢٢٦،٢٢٧،٢٢٩
الموصلي ، اسحق ٢٥،١٤٨
الموفق بالله ٥٧،٥٩–٦١،٦٤– ٦٦،٧٢
الموفق ، احمد ن ٦١،٦٦
الموفقية ٦١
مولر (الالماني) ٢٧٧

مونتفرا كونراد دي ٢٣١
ميخائيل السابع ١٢٧
ميمون ، ابن ١٨٠،٢٨٩
ميمون ، حصن ٢٧١
ميورقة ١٧٨،١٩٤،١٩٨
الناصر (العباسي) ٢٥٨-٢٦٠،٢٧١
ناصر الدولة ٨٩
الناصر ، داود بن المعظم ٢٣٨
الناصر ، محمد ١٩٧،١٩٨
الناصر ، الملك ٢٤٨
الناصر ، يوسف بن ١٩٨
الناصرة ٢٣٨،٢٧٢
نافع ، عقبة بن ٩٦
النايمان ، قبيلة ٢٦٣،٢٦٤،٢٧٦
نبرة (نافار) ١٤٩،١٥٢،١٥٤،١٦٦
النجاحية ، السلالة ٢٢٨
نجران ٧٢
النزارية ١٣٧
« نزهة المشتاق » ٩٨
النساطرة ١١٢،٢٦١،٢٧٦
النسوي ٢٦٨
« نشيد الانشاد » ٢٨١
النصارى ٥٣،١٠٤،١١٢،١٤٢،
١٤٥-١٤٨،١٥٠-١٥٢،١٥٤،
١٦٢،١٦٥،١٦٧،١٦٨،٢١٨،
٢٢٠،٢٣١،٢٣٢،٢٣٤،٢٣٨،
٢٤٠،٢٧٣،٢٧٤
النصرانية ٤٢،١٨٠،٢٥٥

نصر بن احمد ١١٣
نصر ، بنو ٢٠٢،٢١١
نصر الثاني ١١٤،١١٥
نصر ، محمد بن يوسف... ابن ٢٠١
النصرية (الدولة) ٢٠١
نصيبين ١٣٤
النصيرية ، جبل ١٤١،٢٢٨
نظام الملك ١٢٧-١٢٩،١٣٥-
١٣٧،١٣٩،١٩٠
نظام الملك ، فخر الملك بن ١٣٠
النظامية ١٢٨،١٩١
نغزالة ، اسماعيل بن ١٧٩
نفوسة ، جبل ٩٦
نفيس ، نهر ١٨٢،١٩٢
نقفور ٢٢،٩٠
نواس ، أبو ٢٤،٧٦
النوبة ٢٤٣
نوبهار ١٨
نوح ، منصور بن ١١٥
نوح الاول ١١٤
نور الدين زنكي ٢١٩-٢٢٧
٢٣٢،٢٣٣
النورمانديون ٩٨،١٠٨،١٤٨،
١٩٣،١٩٤،٢٣٧
نوروز ، الامير ٢٧٤
نيسابور ٥٩،٦٠،١٢٥،١٢٨-
١٣٠،٢٦٦
النيل ١٠٣،١٠٦،٢٤١

الهادي (الخليفة) ١٩،١٧
الهادي ، الأمام (الرسي) ٧٢،٧١
هجر ٧٥
هراة ٥٨، ١١٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٧٦
هرثمة ٣٣، ٣٤
الهاشمية ٨
هرقلة ٢٢
هشام الاول ١٤٥، ١٥٦
هشام الثاني ١٦٧
هشام الثالث ١٦٨، ١٦٩
الهفوف ٧٥
هلال ، بنو ١٨٤، ٢٤٥
هلمند ، وادي ٢٥٦
الهمداني ، الحسن ٦٩، ١١٦
همذان ٦، ٩٣، ١٢٦
الهمذاني ، بديع الزمان ١٣٤
الهند ١٥، ٣٠، ٨٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ٢١٠، ٢٥٤، ٢٥٦ — ٢٥٨، ٢٦٧، ٢٦٨
هود ، ابن ٢٠١
هولاكو ٢٧٠ — ٢٧٣
الهون ٢٦١
الهيثم ، الحسن بن ١٠٤
الواثق بالله ٥٢
الواثق ، محمد بن ٥٢
الوادي الكبير ١٤٦
واسط ٤٧، ٥٥، ٦١، ٦٢، ٧٣، ٩٤، ١٢٧
وصيف ٤٤،٥٢
واضح ١٦٧
الواقدي ٣٠، ٣١
ولادة بنت المستكفي ١٧١
الوليد الثاني ٢٣
وليم النورماندي ٢٣١
الوهابية ٤٤، ٢٤٨
وهران ١٩٣
يارجوخ ٦٢
ياغي سيان ٢١٧
يافا ٢٣٨، ٢٤٤
ياقوت ، المظفر بن ٨٧
ياقوت ، محمد بن ٨٦، ٨٧
يحيى ، يحيى بن ١٤٧
يزيد ، أبو ١٠١
اليعفرية (الدولة) ٧٢
يعقوب ، القديس ١٦٦
يعقوب ، المنصور ١٩٤، ١٩٧
يعقوب المنصور، عبدالواحد أخو ١٩٨
يعقوب ، يوسف ابو ١٩٤، ١٩٧
اليمامة ٢٣
اليمانية ١٤٣، ١٤٤
اليمن ٤٠، ٢٣٦
« اليميني » ١٢٢
ينال ، ابراهيم بن ١٢٦
« ينبوع الحياة » ١٧٩
ينيسي ، نهر ٢٥٥
اليهود ٤٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، ١٧٩، ٢٧٤

يوحنا الأسباني ١٧٩
يوسف (أمير برشلونة) ١٤٣
يوسف ، أبو ٢٠٢،٢٠٠
يوسف ، أبو (القاضي) ١٢
يوسف الثاني ٢٣٩
يوسف ، الحجاج بن ٤٠،١٥
يوسف خاص حاجب ٢٧٧
يوسف ، علي بن ١٩٣
يوسف ، عمروس بن ٢٤٦
يوسف ، محمد بن السلطان ٢٠٤
« يوسف وزليخا » ١٢٣
يولوجيوس (الراهب) ١٤٧، ١٤٩
اليونان ٣٨
ييسوكاي ٢٦١

محتويات الكتاب

مقدمـة ٣

العباسيون الأولون ٥ – ٥١

إخضاع العلويين ٦ – بناء بغداد ٨ – الادارة ٩ – الثورات في فارس : المقنع ١٢ – المهدي يحارب الزنادقة ١٥ – بين موسى وهرون ١٧ – الرشيد والبرامكة ١٨ – الأغالبة في شمالي إفريقية ٢١ – الشعر في العراق ٢٢ – النحو وفقه اللغة ٢٦ – التاريخ ٢٨ – الصراع بين الأمين والمأمون ٣٢ – الدولة الطاهرية ٣٣ – النهضة العلمية في عصر المأمون ٣٨ – الحديث والفقه ٤١ – المناظرات الكلامية ٤٤ – المعتصم وحرسه ٤٦ – بناء سامرا ٤٩

انحلال الخلافة ونشوء الدويلات ٥٢ – ١٠٨

المتوكل وابناؤه ٥٢ – ثورة الزنج في العراق ٥٥ – بين الصفارية والطاهرية في ايران ٥٧ – الطولونيون في مصر ٦٢ – جامع ابن طولون ٦٨ – ظهور الزيدية في جنوبي بلاد العرب ٦٩ – القرامطة ٧٢ – الصراع على الخلافة : عبدالله بن المعتز ٧٦ – مالية الدولة في عهد المقتدر ٧٨ – الصوفية والصوفيون ٨٢ – إمرة الأمراء ٨٦ – بنو حمدان في الموصل وحلب ٨٨ – الحياة الفكرية في ظل سيف الدولة ٩١ – البويهيون في فارس والعراق ٩٣ – الأغالبة في إفريقية وصقلية ٩٥ – الأدارسة في مراكش ٩٨ – الفاطميون في شمالي إفريقية ومصر ٩٩ – الحاكم بأمر الله : الدروز ١٠٣ – نهاية الفاطميين ١٠٦

الفرس والأتراك ١٠٩ – ١٤١

أقدم الممالك التركية في آسية الوسطى وآسية الشرقية ١١٠ – السامانية في خراسان ١١٣ – الشعر الفارسي ١١٤ – نشأة علم الجغرافية ١١٦ – انهيار الدولة السامانية ١١٧ – محمود الغزنوي ١١٩ – الفتوح في الهند ١٢٠ – البيروني ١٢٠ – الفردوسي ١٢٢ – السلاجقة ١٢٤ – ملكشاه والوزير نظام الملك ١٢٧ – الغزالي ١٢٩ – عمر الخيام ١٣٠ – القصص والمقامات ١٣١ – الادارة في امبراطورية السلاجقة ١٣٥ – الحشاشون ١٣٦ – في ظل بركيارق وأخيه محمد ١٣٩

الاسلام في الاندلس وشمالي افريقية ١٤٢ – ٢١٥

النضال ضد النصارى في شمالي اسبانية ١٤٥ – النصارى والمولدون يثيرون الاضطرابات ١٤٧ – عصر الزهو في ظل عبد الرحمن الثالث ١٥١ – جامع قرطبة الكبير ١٥٥ – الزهراء ١٥٨ – الحياة الفكرية في الأندلس ١٥٩ – الحكم الثاني ١٦٢ – الحاجب المنصور ١٦٣ – الدولة العامرية تستمر ١٦٦ – الصراع بين المهدي وسليمان ١٦٧ – ملوك الطوائف ١٦٨ – تطور الحركة الأدبية ١٧٠ – الموشحات والأزجال ١٧٣ – التصنيف في الحب ١٧٥ – الحركة العلمية ١٧٦ – اليهود في الأندلس ١٧٨ – البربر في شمالي افريقية ١٨٠ – المرابطون ١٨٢ – المرابطون في الأندلس ١٨٥ – الموحدون ١٨٩ – ابن طفيل وابن رشد ١٩٤ – الضعف بعد القوة ١٩٧ – بنو الاحمر ٢٠١ – محيي الدين ابن عربي ٢٠٢ – ابن الخطيب وابن خلدون ٢٠٤ – ابن جبير وابن بطوطة ٢٠٩ – الحمراء ٢١١ – سقوط بني الأحمر واخراج المسلمين من اسبانية ٢١٥

الشرق الادنى في عهد الصليبيين وقيام دولة المماليك بمصر ٢١٦ – ٢٥٢

الصليبيون في سورية ٢١٧ – آل زنكي في الموصل ودمشق ٢١٨ – الدولة الايوبية ٢٢٢ – صلاح الدين يقضي على الخلافة الفاطمية بمصر ٢٢٥ – حطين وفتح القدس ٢٢٩ – آثار صلاح الدين العمرانية ٢٣٤ – الايوبيون في سورية ومصر ٢٣٥ – فردريك الثاني في فلسطين ٢٣٦ – لويز التاسع في دمياط: شجرة الدر ٢٣٨ – المماليك البحرية : معركة عين جالوت ٢٤١ –

عهد الظاهر بيبرس ٢٤٣ – المماليك البرجية ٢٤٥ – الحياة الفكرية في عصر المماليك : ابن تيمية ٢٤٧ – الحياة الاقتصادية ٢٤٩ – فن العمارة ٢٥١

الأتراك والمغول : انقضاء الخلافة ٢٥٣ – ٢٨٢

شاهات خوارزم ٢٥٤ – الدولة الغورية ٢٥٦ – في عهد الناصر العباسي ٢٥٨ – اولية المغول : جنكيز خان يفتح بلاد الصين ٢٦٠ – فتح فارس ٢٦٤ – نهاية الدولة الخوارزمشاهية ٢٦٦ – خلفاء جنكيز ٢٦٨ – هولاكو يزيل الخلافة العباسية من بغداد ٢٧١ – غازان ووزيره رشيد الدين ٢٧٣ – طلائع الأدب التركي ٢٧٦ – شاعرا الفرس سعدي وحافظ ٢٧٨ – جلال الدين الرومي ٢٨١

فهرست الاعلام ٢٨٣ – ٣١٢

الخرائط

ص

١ . اسبانية الاسلامية ١٦٤

٢ . الأندلس وشمالي افريقية ١٨١

صدر عن دار العلم للملايين

●

		ق. ل
مرآة الضمير الحديث (الطبعة الثانية)	الدكتور طه حسين	٢٠٠
بين بين	للدكتور طه حسين	٢٠٠
منهج البحث في الادب واللغة	ترجمة الدكتور محمد مندور	١٥٠
على المحك	للاستاذ مارون عبود	٤٠٠
مجددون ومجترون	» » »	٣٠٠
اشباح ورموز	» » »	١٥٠
هل الأدباء بشر ؟	للدكتور اسحق موسى الحسيني	١٠٠
عبد الله بن المعتز	للاستاذ عبد العزيز سيد الاهل	٣٠٠
عبقرية ابي تمام	» » » » »	١٥٠
عبقرية البحتري	» » » » »	١٥٠
غزل النساء	للاستاذ عيسى سابا	١٠٠
الاساليب الشعرية	للاستاذ ابراهيم العريض	٢٠٠
المختارات السائرة	للاستاذ انيس المقدسي	٥٠٠
رواد النهضة الحديثة	للاستاذ مارون عبود	٣٠٠
النقد الجمالي واثره في الادب العربي	للآنسة روز غريّب	٢٥٠

صدر عن دار العلم للملايين

ق . ل

هذا العالم العربي: للدكتور نبيه فارس والاستاذ محمد توفيق ٣٠٠

وعي المستقبل : للاستاذ قدري حافظ طوقان ١٠٠

معنى النكبة (الطبعة الثالثة): للدكتور قسطنطين زريق ١٠٠

روح الحضارة العربية : ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ٢٠٠

فلسفة ابن سينا واثرها في اوربة : للمستشرقة جواشون ٢٠٠

معالم الفلسفة الاسلامية : للاستاذ محمد جواد مغنية ٢٠٠

برقة: الدولة العربية الثامنة : للاستاذ نقولا زياده ١٥٠

العروبة في ميزان القومية : » » » ٢٠٠

بعد النكبة : للاستاذ قدري حافظ طوقان ١٠٠

العرب والحضارة الحديثة : (للاساتذة احمد زكي بك ،
الدكتور صبحي المحمصاني ، احمد سامح الخالدي ،
الشيخ بهجت الاثري) ٢٠٠

اسماء الاشهر العربية ومعانيها : للدكتور انيس فريحه ١٥٠

العرب ، تاريخ موجز : للدكتور فيليب حتي ٣٠٠

قصة اللاعنف في جنوب افريقية: للمهاتما غاندي ٥٠٠

رائد التراث العربي : اقتباس صلاح الدين المنجد ٣٠٠

مؤامرة اليهود على المسيحية : للاستاذ اميل الخوري ١٥٠

صفحات من الماضي القريب : للاستاذ ساطع الحصري ١٥٠

صدر عن دار العلم للملايين

●

الكتاب	المؤلف	ق . ل
الدستور والديموقراطية	للدكتور صبحي المحمصاني	٦٠٠
المبادىء الشرعية	للدكتور صبحي المحمصاني	٦٠٠
جمال الدين الافغاني (الطبعة الثانية)	للاستاذ قدري قلعجي	١٠٠
صلاح الدين الايوبي (» »)	» » »	١٠٠
ابو ذرّ الغفاري (» »)	» » »	١٠٠
محمد عبده (» »)	» » »	١٠٠
العرب في التاريخ	تأليف المستشرق برنارد لويس وترجمه الدكتور نبيه فارس والاستاذ محمود زايد	٣٠٠
المعجزة العربية	تأليف ماكس فانتاجو ترجمة الاستاذ رمضان لوند	١٢٥
معالم الفكر العربي	للاستاذ كمال اليازجي	٤٠٠
دفاع عن الاسلام	للمستشرقة فاغليري ترجمة الاستاذ منير البعلبكي	١٥٠

تاريخ الشعوب الاسلامية

خمسة اجزاء

أوسع المراجع في التاريخ الاسلامي
والحضارة الاسلامية على الاطلاق

للمستشرق الالماني كارل بروكلمان

	ق.ل
الجزء الأول : العرب والامبراطورية العربية	٣٠٠
الجزء الثاني : الامبراطورية الاسلامية وانحلالها (الخلافة العباسية – نشوة الدويلات – الاسلام في الاندلس وشمالي افريقية – الحروب الصليبية – دولة المماليك .)	٤٠٠
الجزء الثالث : الاتراك العثمانيون وحضارتهم	٣٠٠
الجزء الرابع : الاسلام في القرن التاسع عشر (الامبراطورية العثمانية ومصر – شمالي افريقية – السودان – فارس وافغانستان)	٣٠٠
الجزء الخامس : الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الأولى (تركية – مصر – شبه جزيرة العرب – سورية وفلسطين وشرقي الاردن والعراق – فارس وافغانستان)	٣٠٠

الثمن : ٤٠٠ ق.ل. او ما يعادلها

مطابع الغندور – بيروت